الدكتور رمضان عبد التواب





مظاهره وعلله وقوانينه

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

التطور اللغوي

مظاهره وعلله وقوانينه

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويرى

مكتبة الخانجى

للطباعة والنشر والتوزيع

ص . ب ١٣٧٥ القاهرة



المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

☎ : ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

التطور اللغوى
مظاهره وعلله وقوانينه

تأليف
الدكتور رمضان عبد التواب
العميد السابق لكلية الآداب
جامعة عين شمس

الطبعة الثالثة
مزيدة ومنقحة

الناشر مكتبة الخانجى بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة الطَّبْعة الثانية

هذه طبعة جديدة ، مزيدة ومنقحة ، من كتاب : « التطور اللغوى » الذى أنفقت شطراً من حياتى فى جمع مادته ، عبر القراءة الواسعة المتأنية ، لتراثنا العربى المجيد ، ولم أبخل عليه بوقت أو جهد ، فى إعداده وتبويبه ، وتوضيح مسائله ، والاحتجاج لقضاياه ؛ فجاءت الطبعة الأولى منه ، قبل سبع سنوات ، وقد اشتملت على الكثير من التفسيرات اللغوية الجديدة ، لبعض مظاهر التطور اللغوى .

وتقبّل الكثير من العلماء الأجلاء ، ورفقة الدرب من الزملاء والأبناء ، هذا العمل المتواضع ، بروح الود والحب والإنصاف . وكنت أرقب بعين الرضا مادته وتفسيراته المختلفة ، تتناثر هنا وهناك فى ثنايا البحوث والمؤلفات .

ولاشك أننى مدين بكل إضافة أو تنقيح ، تضمنته هذه الطبعة الجديدة ، لتشجيع هؤلاء وأولئك جميعا . ورُبّ وجهة نظر هنا ، أو مناقشة هناك ، جعلتنى أضاعف الجهد ، وأعيد النظر ، وأحاول البسط والتفصيل .

وتمتاز هذه الطبعة ، إلى جانب المادة الجديدة ، التى تراها فى ثنايا الموضوعات القديمة ، بأربعة فصول جديدة ، عن : سياحة الألفاظ ، وشاهد الحال ، وتعاقب التطور ، وسيادة الحالة الواحدة من الحالات الإعرابية

وإنه على الرغم من أننى حذرت فى موضوع : « المبادىء الأساسية » من هذا الكتاب ، من الوقوع فى الخلط بين دراسة التطور اللغوى ، والدعوة إلى اتباع هذا التطور بلا قيد ولا شرط ؛ فقد ظن بعض علمائنا الأجلاء ، أننى من أنصار التطور المطلق فى العربية الفصحى . وتجد بعد هذه المقدمة صورة لرسالة طيبة ، من رئيس المجمع اللغوى بالقاهرة ، قد ترى فيها شيئا من هذا الاتجاه ، فى واحدة من أكبر مؤسساتنا اللغوية فى بلدنا الطيب .

غير أن كثيرا من شبابنا الناهض ، أدرك ما قصدت إليه تماما ، حينما تمنيت ألا يظن بعض الناس « أننا حين نعالج قضايا التطور اللغوى ، نكون من أنصار هذا التطور فى العربية ؛ فإننا نعالج هذه القضايا هنا ، من الناحية الوصفية التاريخية . وهناك فرق كبير فى مناهج البحث فى اللغة ، بين الوصفية والمعيارية » .

ومن هؤلاء الدكتور صبيح حمود التميمى ، الذى يقول فى كتابه عن التفكير اللغوى عند العرب فى العراق : إن إدراك اللغويين للتطور « واقع لا مغمز فيه . وما فيه من خلاف مع وجهة النظر الحديثة ، هى مسألة عدم الاعتراف بالتطور ، كظاهرة لغوية تساير العربية فى عصورها المختلفة ، وإنما أجازوه ضمن فترة زمنية محددة ، لا تتعدى منتصف القرن الثانى الهجرى تقريبا ، اعتقادا منهم بأن عرب تلك الفترة فصحاء ، لا تشوب ألسنتهم وفصاحتهم أية شائبة ... فهم اعترفوا بالتطور وأقروه ، صراحة وتمثيلا ، لأمد محدود . وأساس هذا التحديد عندهم هو المحافظة على الكيان الأمثل للغة العربية ، بعد أن دبّت رياح التغيير اللغوى ، وبدأت تعصف بهذا الكيان بجميع جوانبه ، من أصوات ، وألفاظ ، ودلالات ، وأساليب ؛ فعز عليهم أن يروا لغة القرآن الكريم ، نهبا لهذا الخطر المُحْدِق بها ، فاضطروا لهذا التحديد ، حفاظا على صورتها المثلى » .

ثم قال بعد ذلك : « وجميل بنا أن نذكر هنا قول الدكتور رمضان عبد التواب : إن العربية لها ظرف خاص ، لم يتوفر لأية لغة من لغات العالم

وهذا الظرف يجعلنا نرفض ما ينادى به بعض الغافلين ... من ترك الحبل على الغارب للعربية الفصحى ، لكى تتفاعل مع العاميات ؛ ذلك أنها ارتبطت بالقرآن الكريم ، منذ أربعة عشر قرنا ، ودُوِّن بها التراث العربى الضخم ، الذى كان محوره هو القرآن الكريم فى كثير من مظاهره . وقد كفل الله لها الحفظ ما دام يحفظ دينه ... لولا كل هذا لأمست العربية الفصحى لغة أثرية ، تشبه اللاتينية أو السنسكريتية . هذا هو السر الذى يجعلنا لا نقيس العربية الفصحى ، بما يحدث فى اللغات الحية المعاصرة » .

ثم قال معقبا : « فقول الدكتور رمضان ، هو تمثيل صادق لنظرة علماء العربية ، فى تحديد أمد التطور اللغوى ، التى كانت أولى ثماره ، هى أننا فى هذا العصر ، نقرأ ونفهم بيسر وسهولة ، ودونما أية صعوبة ، ما كتب قبل أربعة عشر قرناً . وهى ميزة تكاد تنفرد بها اللغة العربية » .

هذا ، وقد أسعدنى حقا شيوع المصطلحات المختلفة ، التى جاءت بهذا الكتاب ، فى كثير من المؤلفات اللغوية المعاصرة ، كالركام اللغوى ، والحذلقة ، والبلى اللفظى ، والفصل الخاطىء ، والاشتقاق الشعبى ، وانكماش الصوت المركب ، وانحلال الصوت المزدوج ، وغير ذلك . وآمل أن تلقى الفصول الجديدة ، من القبول والرضا ، لدى الدارسين من الزملاء والأبناء ، مالقيته الفصول القديمة ، التى يراها القارىء الكريم هنا فى ثوب قشيب .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يرزقنا التوفيق والسداد ، ويجنبنا الخطأ والزلل . كما نسأله عز وجل أن يُقِضَّ مضاجع أعداء العربية والدين ، ويرزقهم الحسرة والندامة ، ويمتعهم بالكثير من الحقد يأكل قلوبهم ، والمزيد من الغِلّ تأكلهم ناره . فأما الزَّبَد فيذهب جُفاءً ، وأما ما ينفع الناسَ فيمكث فى الأرض . رَبَّنا آتنا من لَدُنْك رحمة ، وهَيِّىء لنا من أَمْرِنا رَشَداً .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

منيل الروضة فى ١٩٨٩/٥/٥ م **أ . د . رمضان عبد التواب**



٢٦ ش الدكتور طه حسين بالجيزة

مكتب الرئيس

تليفون : ٨٩٧٢٦٤

بسم الله الرحمن الرحيم

القاهرة في ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٨١

السيد الدكتور رمضان عبد التواب

وكيل كلية الآداب - جامعة عين شمس

تحية طيبة . . . وبعد ،

فأنا شاكر لك أصدق الشكر على كريم إهدائك ، وقد قضيت زمنا مع حديثك عن " التطور اللغوى " . وراقني أن تقف طويلا عند ظاهرة كبرى من الظواهر اللغوية ، وأن تتسلح لها بشتى أسلحتك ، من اطلاع واسع ، وبحث عميق ، ونظرة صائبة ، وهذا هو عهدي بك دائما فيما تضطلع به .

وقد آن الأوان فعلا لأن نؤمن بالتطور اللغوى ، وكثيرا ما ترددنا في التسليم به ، وأضفينا على العربية جمودا وقداسة لا تتلاءم مع سنة الحياة . وما قامت المجامع اللغوية كلها إلا على أساسين هامين أولهما أن اللغة ظاهرة اجتماعية تسير بسير المجتمع وتقف بوقوفه ، وثانيهما أن اللغة ملك من يتخاطبون بها ، فإن أريد بها أن تملكهم عبس وتستعبد هم فقدت وظيفتها .

والتطور أمارة حركة وحياة ، وسبيل تحسين وتجويد ، يقدر الماضى ، ويواجه الحاضر ، ويمهد للمستقبل .

وقد أثبت بوضوح أن العربية خضعت لسنة التطور منذ نشأتها ، وكشفت عن مظاهر هذا التطور وعلله وقوانينه فسر في طريقك ، والله يوفقك .

وتقبل شكرى مرة أخرى وأصدق تحياتي ...

رئيس المجمع

ا . مدكور

إبراهيم مدكور

مُقَدِّمَةُ الطَّبْعَةِ الأُولَىٰ

دفعنى إلى كتابة هذا البحث ، ما أومن به من أن اللغات ، لا تسير فى حياتها على نحو من الصدفة المطلقة ، ولا تخبط فى تنقلها على ألسنة الناس خبط عشواء ، بل يحكمها فى هذا وذاك قوانين ، تكاد ترقى إلى مكانة القوانين الطبيعية ، ثباتا وقوة ، ولا يعنى جهلنا بهذه القوانين فى بعض الأحيان ، أنها غير موجودة ، ومهمة العلم هو البحث عن هذه القوانين ، يكتشفها ولا يخترعها ، يميط اللثام عنها ولا يتحكم فيها .

ومن المهم هنا أن نعرف أن الظاهرة اللغوية حرة الحركة ، يمكن أن تتجه إلى أية جهة شاءت من جهات التطور ، غير أنها لا تولى وجهها هنا أو هناك ، إلا وهى محكومة بقانون لغوى معين .

ولهذا السبب لا يستطاع التنبؤ باتجاه التطور اللغوى ، فى ظاهرة من الظواهر اللغوية ، كما أنه لا يمكن الإجابة عن السؤال التالى ، فى الدرس اللغوى : لماذا آثرت الظاهرة اللغوية ، السير فى اتجاه معين ، ولم تسر فى اتجاه آخر ؟ فلا يستطيع أكبر عباقرة اللغة ، معرفة لماذا تطورت القاف فى بعض اللهجات المصرية إلى همزة ، ولم تتطور إلى غين ، كما حدث لهذا الصوت ، فى بعض نواحى العراق والسودان .

غير أن الإجابة عن كيفية هذا التطور ، أمر سهل ، فلا تطور إلا بقانون تحدده طبيعة الظاهرة اللغوية ، ويندرج تحته الكثير من أمثلة اللغات المختلفة فتطور القاف إلى همزة أو غين أو كاف أو جيم قاهرية مثلا ، أمر يمكن تفسيره جيدا بالقوانين الصوتية ، من قرب المخارج أو صفات الأصوات .

فالطرق التى يمكن للقاف أن تسلكها فى تطورها كثيرة ومتعددة ، ويمكن للدارس اللغوى معرفة الكيفية ، التى تم فى ضوئها التطور إلى إحدى هذه الطرق ، غير أنه لا يستطيع بأية حال من الأحوال ، معرفة السر فى إيثار طريق على آخر .

وأصل هذا البحث ، مقالة نشرتها فى العدد الخامس ، من مجلة كلية اللغة العربية بالرياض ، فى عام ١٩٧٥ م . وقد رأيت كيف اشتد إقبال الدارسين على تصويرها والإفادة منها ، ورجانى كثير من الزملاء والأبناء ، أن أضمنها بعض كتبى التى نشرتها فى الفترة السابقة ، غير أننى - وقد رأيت فى حواشى نسختى الخاصة ، كثيرا من التعليقات والإضافات ، وجملة صالحة من الزيادات والتنقيحات - آثرت أن أجعل من هذه المقالة كتابا مستقبلا .

وأملى أن يسد هذا الكتاب فراغا فى المكتبة العربية ، وأن يفيد منه الدارسون للغة ، والباحثون فى قضاياها ومشكلاتها . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

رمضان عبد التواب

المَبَادِئُ الأَسَاسِيَّةُ

أرانى فى بداية حديثى ، مضطرا إلى تأكيد عدة أمور فرغ منها المحدثون من علماء اللغات ، منذ فترة طويلة ، وهى تعد عندهم الآن من البديهيات ، على حين يجادلنا فيها بعض الدارسين العرب ، ممن بقى فى الكهوف القديمة ، يرددون قولتهم المشهورة : ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

وأول هذه الأمور ، أن اللغة كائن حى ، لأنها تحيا على ألسنة المتكلمين بها ، وهم من الأحياء ، وهى لذلك تتطور وتتغير بفعل الزمن ، كما يتطور الكائن الحى ويتغير وهى تخضع لما يخضع له الكائن الحى فى نشأته ونموه وتطوره ، وهى ظاهرة اجتماعية ، تحيا فى أحضان المجتمع ، وتستمد كيانها منه ، ومن عاداته وتقاليده ، وسلوك أفراده ، كما أنها تتطور بتطور هذا المجتمع ، فترقى برقيه وتنحط بانحطاطه .

وليست اللغة من صنع فرد أو أفراد ، وإنما هى نتيجة حتمية للحياة فى مجتمع يجد أفراده أنفسهم مضطرين إلى اتخاذ وسيلة معينة للتفاهم ، والتعبير عما يجول بالنفس ، وتبادل الأفكار . تلك الوسيلة هى اللغة . و « اللغة — شأنها فى ذلك شأن الظواهر الاجتماعية الأخرى — عرضه للتطور المطرد فى مختلف عناصرها : أصواتها وقواعدها ومتنها ودلالاتها ، وتطورها هذا لا يجرى تبعاً للأهواء والمصادفات ، أو وفقا لإرادة الأفراد ، وإنما يخضع فى سيره لقوانين جبرية ثابتة مطردة النتائج ، واضحة المعالم محققة الآثار ، ولايد لأحد على وقف عملها ، أو تغيير ما تؤدى إليه ، فليس فى قدرة الأفراد أن يقفوا تطور لغة ما ، أو يجعلوها تجمد على وضع خاص ، أو يسيروا بها فى سبيل غير السبيل ، التى رسمتها لها سنن التطور الطبيعى ، فمهما أجادوا فى وضع معجماتها ، وتحديد ألفاظها ومدلولاتها ، وضبط أصواتها وقواعدها ،

ومهما أجهدوا أنفسهم فى إتقان تعليمها للأطفال ، قراءة وكتابة ونطقا ، وفى وضع طرق ثابتة سليمة يسير عليها المعلمون بهذا الصدد ، ومهما بذلوا من قوة فى محاربة ما يطرأ عليها ، من لحن وخطأ وتحريف ، فإنها لا تلبث أن تحطم هذه الأغلال ، وتفلت من هذه القيود ، وتسير فى السبيل التى تريدها على السير فيها سنن التطور » (١) .

وفى ذلك يقول ماريوباى : « إن الاتجاه الطبيعى للغة ، وبخاصة فى صورتها الدارجة ، أو المتكلمة ، هو اتجاه يبعدها عن المركز ، فاللغة تميل إلى التغير ، سواء خلال الزمان أو عبر المكان ، إلى الحد الذى لا توقف تياره العوامل الجاذبة نحو المركز .. هذه الخاصية العالمية للغة ، هامة لعالم اللغة التاريخى ، حيث إنها تشكل الأساس فى كل تغيير لغوى » (٢) .

كما يقول أولمان : « اللغة ليست هامدة أو ساكنة ، بحال من الأحوال ، بالرغم من أن تقدمها قد يبدو بطيئا فى بعض الأحايين ، فالأصوات والتراكيب ، والعناصر النحوية ، وصيغ الكلمات ومعانيها ، معرضة كلها للتغير والتطور ، ولكن سرعة الحركة والتغير فقط ، هى التى تختلف ، من فترة زمنية إلى أخرى ، ومن قطاع إلى آخر من قطاعات اللغة ، فلو قمنا بمقارنة كاملة بين فترتين متباعدتين ، لتكشف لنا الأمر ، عن اختلافات عميقة كثيرة ، من شأنها أن تعوق فهم المرحلة السابقة ، وإدراكها إدراكا تاما » (٣) .

واللغة العربية الجاهلية ، ليست بدعا بين اللغات ، فهى حلقة فى

---

(١) اللغة والمجتمع ، للدكتور على عبد الواحد وافى ٧٨

(٢) أسس علم اللغة ٧١

(٣) دور الكلمة فى اللغة ١٥٦

سلسلة حلقات طويلة ، من التطور والتغير ، أى أنها لم تكن كما يتخيل بعض الناس ، بصورتها التى رويت لنا ، منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها .

وإننا لنبتسم لسذاجة من روى لنا شعرا عربيا ، على لسان قحطان ابن هود عليه السلام ، يسلى به بعض ما كان بأبيه هود ، من الكآبة والجزع والغم والحزن ، على قومه عاد ، فقال :

إنى رأيت أبى هوداً يؤرّقه   حُزنٌ دخيل وبلبالٌ وإسهادُ
لا يُحزننّك أن طاحت بداهية   عادُ بن لاوى فعادٌ بئسما عادُ [١]

بل لقد رووا لنا أن آدم عليه السلام ، قال شعرا عربيا فى رثاء ابنه (هابيل) حين قتله (قابيل) ، وقالوا : إن أول من أقوى فى الشعر هو آدم عليه السلام ، وهو يقول فى قصيدته تلك :

تغيّرت البلادُ ومَنْ عليها   فوجهُ الأرض مغبرٌّ قبيحُ
تغيَّر كل ذى حُسن وطيب   وقل بشاشةُ الوجه المليح [٢]

* * *

والحقيقة الثانية أن ما نسميه نحن بالعربية الفصحى ، يشتمل فى الكثير من ظواهره ، على بعض حلقات التطور ، أى أننا نلاحظ فى هذه اللغة أحيانا ، صورتين أو أكثر لظاهرة لغوية واحدة ، وبعض هذه الصور ، يمثل فترة تاريخية أقدم من الصور الأخرى ؛ إذ « تدلنا الملاحظة ، على أنه من المحتمل جداً ، أن يوجد نطقان مختلفان ، أحدهما جديد ، والآخر تقليدى محافظ ، أو أكثر ، يتعايشان سويا لسنوات كثيرة ، قد تصل أحيانا إلى عدة قرون [٣] » .

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ، للأصمعى ٤
(٢) الدرر اللوامع ، للشنقيطى ٢/٢٠٩
(٣) لغات البشر ، لماريوباى ٤٢

وإن من لا يعرف هذه الحقيقة ، يظن هذه الصور كلها ، قد وضعت هكذا وضعا . وما أكثر الأوهام التى ترتبت على الجهل بهذا الأمر فى الدرس اللغوى عند العرب ، كما سنرى فيما بعد ، عند حديثنا عن السين وسوف ، فى العربية الفصحى .

* * *

والقضية الثالثة التى نريد تأكيدها هنا ، أن العربية الفصحى لها ظرف خاص ، لم يتوفر لأية لغة من لغات العالم ، وهذا الظرف يجعلنا نرفض ما ينادى به بعض الغافلين - عن حسن نية أو سوء نية أحيانا - من ترك الحبل على الغارب للعربية الفصحى ، لكى تتفاعل مع العاميات ، تأخذ منها وتعطى ، كما يحدث فى اللغات كلها .

حقا إن اللغة كائن حى ، يتطور على ألسنة المتكلمين بها ، فينشأ من هذا التطور اختلاف بين لغة عصر والعصر الذى سبقه ، وهنا يحدث الصراع بين أنصار الشكل القديم ، وأنصار الشكل الجديد ، وبعد فترة يصبح قديماً ما كان بالأمس جديدا ، فيتصارع مع جديد آخر ، وتضمحل لغة العصر الأسبق أو تندثر ، غير أن كل جديد لا يظهر فجأة ، ولا يقضى على القديم بين يوم وليلة ، بل يظل الصراع بينهما لفترة قد تطول أو تقصر ، غير أن الانتصار يكون فى النهاية للشكل الجديد . تلك سنة الحياة ، وتاريخ اللغات كلها يشهد بهذا ولا نعرف لغة على ظهر الأرض ، جمدت على شكل واحد مئات السنين .

غير أن العربية لها كما قلنا - ظرف لم يتوفر لأية لغة من لغات العالم ذلك أنها ارتبطت بالقرآن ، منذ أربعة عشر قرنا ، ودُوِّن بها التراث العربى الضخم ، الذى كان محوره هو القرآن الكريم فى كثير من مظاهره ، وقد كفل الله الحفظ ، ما دام يحفظ دينه ، فقال عزَّ من قائل : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ . ولولا أن شرفها الله عز وجل ، فأنزل بها كتابه ،

وقيض له من خلقه من يتلوه صباح مساء ، ووعد بحفظه على تعاقب الأزمان - لولا كل هذا لأمست العربية الفصحى لغة أثرية ، تشبه اللاتينية أو السنسكريتية ، ولسادت اللهجات العربية المختلفة ، وازدادت على مر الزمان بعدا عن الأصل ، الذى انسلخت منه .

هذا هو السر الذى يجعلنا لا نقيس العربية الفصحى ، بما يحدث فى اللغات الحية المعاصرة ، فإن أقصى عمر هذه اللغات ، فى شكلها الحاضر ، لا يتعدى قرنين من الزمان ، فهى دائمة التطور والتغير ، وعرضة للتفاعل مع اللغات المجاورة ، تأخذ منها وتعطى ، ولا تجد فى ذلك حرجا ، لأنها لم ترتبط فى فترة من فترات حياتها بكتاب مقدس ، كما هو الحال فى العربية .

وقد صدق الشيخ أحمد رضا العاملى ، حين قال : « وأنا لا أرتاب فى أن اللغة التى حملها الفرنسيس ، أيام الحروب الصليبية ، إلى سوريا ، لم تكن كاللغة التى حملها أحفادُهم إليها فى هذه الأيام ، وأن اللغة التى نظم بها شكسبير قصائده ، لا يفهمها العامى الإنجليزى اليوم ، أكثر مما يفهم العامى العربى قصائد المتنبى ، وأبى العلاء المعرى ، وأن لغة موليير الفرنسية فيما أحسب - بعيدة عن لغة إميل زولا ، ولكن لغة المتنبى لم تتغير عن لغة شوقى ، وبينهما ألف عام ، إلا أن لغة المتنبى تخالف لغة الزاجل فى زجله اليوم ، بل إن لغة الزاجل اليوم ، تخالف لغة الزاجل فى عصر ابن خلدون [١] » .

وارتباط العربية الفصحى بالقرآن الكريم ، هو السر كذلك فى تمسكنا بالعربية الفصحى القديمة ، ودعوتنا إلى دراستها دراسة مستفيضة ، لكى نفهم بها القرآن الكريم ، ومادار حوله من دراسات ، وكذلك الشعر

---

(١) مولد اللغة ، للعاملى ٧٢

العربى القديم ، الذى يلقى أضواء على المعانى القرآنية ، ويفيد فى توضيح القرآن الكريم ، ولقد صدق الصحابى الجليل عبد الله بن عباس ، حين قال : « الشعر ديوان العرب ، فإذا خفى علينا الحرف من القرآن ، الذى أنزله الله بلغة العرب ، رجعنا إلى ديوانها ، فالتمسنا معرفة ذلك منه [١] » .

فهذه العربية الفصحى ، التى استمرت حية ، أربعة عشر قرنا ، والتى ستستمر فى حياتها إلى ما شاء الله تستمد من ارتباطها بالقرآن الكريم عنصر الحياة . وهذه القضية كانت واضحة فى أذهان اللغويين العرب فى الماضى فهذا هو أبو حاتم الرازى (المتوفى سنة ٣٢٢ هـ) يقول : « ولولا ما بالناس من الحاجة إلى معرفة لغة العرب ، والاستعانة بالشعر على العلم بغريب القرآن ، وأحاديث رسول الله ﷺ ، والصحابة والتابعين ، والأئمة الماضين ، لبطل الشعر ، وانقرض ذكر الشعراء ، ولعفَّى الدهر على آثارهم ونسى الناس أيامهم [٢] » .

وقد أطلنا فى إبراز هذه القضية هنا ، حتى لا يظن بعض الناس ، أننا حين نعالج قضايا التطور اللغوى ، نكون من أنصار هذا التطور فى العربية ، فإننا نعالج هذه القضايا هنا ، من الناحية الوصفية التاريخية . وهناك فرق كبير فى مناهج البحث فى اللغة ، بين الوصفية والمعيارية .

كما أن استخدام اللغويين المحدثين لكلمة (التطور) لا يعنى تقييم هذا التطور ، والحكم عليه بالحسن أو بالقبح ، فإنه لا يعنى عندهم أكثر من مرادف لكلمة : (التغيّر) .

* * *

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنبارى ١٠٠ ، والإتقان للسيوطى ١١٩/١

(٢) الزينة فى الكلمات الإسلامية ١١٦/١

مَجَالاتُ التَّطَوُّرِ اللُّغَوِىِّ

تتوزع اللغة مجموعة من الأنظمة ، التى تبدأ بالنظام الصوتى ، بصوامته وصوائته ، وفونيماته ، ومقاطعه ، وما يسود فيه من ظواهر النبر والتنغيم وغيرهما ، وتمر بالكلمات من حيث بناؤها ، ومورفيماتها ، ودلالتها على المعانى المختلفة ، فى أذهان الجماعة اللغوية التى تستخدمها ، وتنتهى ببناء الجملة ، ووظيفة الكلمات فى داخل الجمل ، وعلاقة بعضها ببعض ، وغير ذلك .

وليست عناصر اللغة كلها على سواء ، فى سرعة قبول التطور ؛ إذ هناك فرق فى تطور اللغة بين الصوتيات والصرف والمفردات ، « فالنظام الصوتى يستقر منذ الطفولة ويستمر طول الحياة ، فالإنسان يحتفظ حتى آخر حياته ، بمجموعة الحركات التى تعودت عليها أعضاؤه الصوتية ، منذ طفولته ، اللهم إلا أن يحدث له عارض ناتج من التعليم ، وذلك فى حالة أن يتلقن نطقا أجنبيا ، يحل محل النطق القومى .

والنظام الصرفى ثابت أيضاً ، نعم إن استقراره يتطلب وقتا أطول ، ولكنه بعد أن يستقر لا يعتريه تغيّر يذكر ؛ ذلك لأن الصرف لا يتغير فى أثناء جيل واحد ، بل هو كالصوتيات ، إنما يتغير فى الانتقال من جيل إلى جيل ، فالنظام الصوتى والنظام الصرفى إذا ما اكتسبا مرة بقيا طول العمر ، وهما يدينان باستقرارهما ، إلى استقرار ذهنية المتكلم .

أما المفردات ، فإنها على العكس من ذلك لا تستقر على حال ، لأنها تتبع الظروف فكل متكلم يكوّن مفرداته من أول جياته إلى آخرها ، بمداومته على الاستعارة ممن يحيطون به ، فالإنسان يزيد من مفرداته ، ولكنه ينقص منها أيضاً ، ويغير الكلمات فى حركة دائمة من الدخول والخروج .

ولكن الكلمات الجديدة لاتطرد القديمة دائما فالذهن يروض نفسه على وجود المترادفات والمتماثلات ، ويوزعها على وجه العموم على استعمالات مختلفة ، ذلك لأن الحياة تشجع على تغير المفردات ، لأنها تضاعف الأسباب التى تؤثر فى الكلمات ، فالعلاقات الاجتماعية والصناعات ، والعُدد المتنوعة تعمل على تغير المفردات ، وتقضى على الكلمات القديمة ، أو تحور معناها ، وتتطلب خلق كلمات جديدة [١] » .

غير أننا نجد « النظام الصرفى فى كل لغة حية ، لا يثبت على حال كذلك ، ولسنا نتحدث هنا عن الأخطاء الفردية ، التى تندُّ أحياناً عن أقلام الكتاب ، مهما بلغ حرصهم ، ولكن كل نظام صرفى فيه مواضع نقص ، لا تخلو منها أية لغة ، ولو كانت من أشد اللغات تثقيفاً ، ففى كل قاعدة من قواعدها شواذ لا يبررها منطق ، وقصارى القول أن النظام الصرفى لدى كل متكلم ، يحمل فى نفسه من أسباب التغيير بقدر ما يحمله النظام الصوتى ، والفرق بين المسلكين يظهر فى نتائجهما ، فالتطور الصوتى عام شامل ، لا يترك وراءه بقايا ، إذ إنه يستبدل حالا جديدة ، مكان حال قديمة ، أما التطور الصرفى ، فيندر أن يشمل جميع الحالات التى يؤثر فيها ، فهو يدع إلى جانب الصيغ الجديدة التى يستحدثها ، عددا كبيرا من الصيغ القديمة ، التى تستمر فى الاستعمال . وهكذا تترك كل حلقة من حلقات التطور الصرفى بقايا لها » [٢] ؛ ذلك لأن « التغير لا يكون تاماً إطلاقاً ، فكثيراً ما تبقى الصيغ القديمة ، إلى جانب الصيغ المستحدثة ، حتى لنلاحظ فى النظام العام للغات التى لها تاريخ طويل ، والتى عانت

---

(١) اللغة لفندريس ٢٤٦ - ٢٤٧

(٢) اللغة لفندريس ٢٠٣ - ٢٠٤

تطوراً ضخماً ، كالفرنسية أو الإنجليزية ، مزيجاً من النظم التى تضم حالات مختلفة » [١] .

وهذه البقايا الصرفية من النظام القديم ، تبدو فى صورة الشواذ فى داخل النظام الجديد ، ونؤثر أن نسميها « بالركام اللغوى » للظواهر المندثرة فى اللغة [٢] .

وتزداد سرعة التطور اللغوى ، بازدياد انتشار اللغة بين غير أهليها ، وبازدياد عدد الذين يتكلمونها وتنوعهم ؛ « إذ إن انتشارها فى أقاليم تحتك فيها بلغات أخرى ، يعرضها لأن تفقد خصائصها الموغلة فى الذاتية . والتأثير الذى يقع عليها من الخارج يؤدى بها إلى التغير السريع ، فإذا ما قارنا لهجة موطن أصلى بلهجة مستعمراته ، تبين لنا أن هذه الأخيرة ، قد فقدت بعض القواعد النحوية الخفية الدقيقة ، ذلك لأن التقاليد قد أبقت عليها فى مهبط رأسها ، ثم تلاشت بهجرتها بعيداً عن موطنها . من ذلك أن الاختلاف بين : I shall و I will لم يعد له وجود فى الإنجليزية المتكلمة فى أمريكا ، فلا يقال الآن إلا : I will » [٣] .

كما يؤثر المسكن كذلك على تطور اللغات ، فإذا كان السكان مخلخلين متفرقين ، فإن هذا التبدد يساعد على الانقسام إلى لهجات ، وإذا كان السكان يعيشون متجمعين فى محلات ومدن ، فإن هذا النوع من الحياة يساعد على خلق اللغات المشتركة ، ومن ذلك نرى أن التأثير

---

(١) اللغة لڤندريس ٤٢٣

(٢) انظر مقالتنا : الركام اللغوى ، فى المجلة العربية (السنة الثانية / العدد الأول) ص ٥٥ - ٦٠ . وكتابنا : لحن العامة والتطور اللغوى ٣٧٦

(٣) اللغة لڤندريس ٤٢٧

الاجتماعى لا يعوق تطور اللغة ، أو يعجل به فحسب ، بل يعين كذلك اتجاه هذا التطور ومداه [١] .

ويهمنا هنا أن نشير إلى أن « التطور اللغوى » لا يحدث على نحو مشتت غير مطرد ، بل يحدث وفقاً لقواعد ثابتة ، يمكن أن نصوغها فى صورة قوانين دقيقة ، إذا تناولنا لغة ما فى عصرين متتابعين من تاريخ تطورها . وفيما يلى نعرض لطائفة من هذه القوانين بالشرح والتمثيل :

١ — القَوانِينُ الصَّوْتِيَّةُ

جرت العادة فى علم اللغة ، على أن يطلق على التغييرات الصوتية ، التى تطرأ على اللغة اسم : « القوانين الصوتية » ، مثل تلك التى تسمى قوانين « جريم » Grimm المتعلقة بالإبدال المباشر فى الأصوات الصامتة فى الجرمانية (Lautverschiebung) ، وقد نشرها « جريم » فى عام ١٨٢٢ م [٢] .

والقوانين الصوتية تعبر عن « علاقة بين حالتين متتابعتين للغة واحدة ، فى وسط اجتماعى معين » [٣] ، فهى ليست قوانين عامة شبيهة بقوانين علم الطبيعة أو الكيمياء ولهذا السبب نجد تطوراً صوتياً فى إحدى اللهجات ، ولا نجد له أثراً فى لهجة أخرى .

« فمن المعروف مثلا أن القوانين فى العلوم الطبيعية ، تصدق دائما ، بقطع النظر عن المكان والزمان ، فالتيار الكهربائى ، إذا وقع تحت ظروف معينة ، سوف يحلل الماء إلى أوكسجين وهيدروجين ، فى أى مكان وفى أى زمان ،

---

(١) انظر : اللغة لفندريس ٤٢٨

(٢) اللغة لفندريس ٧١ . وانظر : اللغة بين المعيارية والوصفية ٩٥

(٣) علم اللسان ، لأنطوان ميبه ٤٦٧

وسوف يكون فى استطاعتنا أيضا ، أن نتنبأ ببعض النتائج الأخرى إلى حد معين ، أما قوانين الأصوات فليست لها هذه الخواص ، إنها تنبىء فقط عن قدر معين من الاطراد فى التطورات السابقة ، فى حدود معينة ، من حيث الزمان والمكان ، أى أنها تشير إلى أن صوتا معينا قد تطور إلى صوت آخر بذاته ، فى فترة كذا وفى لغة كذا ، تحت ظروف معينة ومحددة تحديدا دقيقا [١] » .

ومن أجل ذلك كله ، يجب أن يؤخذ مصطلح : « القانون الصوتى » بمعناه الواسع لا بمعناه الدقيق ، كما فى ميادين العلوم الطبيعية ، والكيميائية وما شابهها من العلوم .

« والذى يجمع بين حالتين متتابعتين فى لغة واحدة ، إنما هو رباط تخلقه وليس رباطا طبيعيا ؛ لذلك لا يمكن أن نعرف مقدماً ، كيف يتطور هذا الصوت أو ذاك ، لأنه يوجد دائماً فى تطور الأصوات ، عدد يكثر أو يقل من العوامل غير المنظورة التى تنتج أثرها . ومع ذلك فالقانون الصوتى ، بوصفه تعبيراً عن تغير وقع فى الماضى ، له صفة الإطلاق ، وهذه الصفة نتيجة لانسجام النظام الصوتى واطراد التغييرات ... ويمكننا بواسطة القوانين الصوتية ، أن نصوغ فى بضع عبارات ، تاريخ الأصوات فى لغة من اللغات ، أو أن نكشف عن سر التغييرات التى أصابتها ... فإذا كان هناك لهجتان صادرتان عن لغة واحدة ، تبعا لقوانين خاصة ، فإن مظهرهما الصوتى يستبين بمعرفة هذه القوانين ، فإذا عرف أن الألمانية قد أبدلت ال z (تْسْ) من ال t (ت) القديمة الواقعة فى أول الكلمة ، والتى احتفظت الإنجليزية بها ، فهمنا المقابلة التى بين : ten و Zehn (عشرة) ، وبين : Zwingen

---

(١) دور الكلمة فى اللغة ١٨٧ - ١٨٨

(يقسر) و twinge (يضغط) وبين : tongue و Zunge (لسان) إلخ . فالواحدة من هذه الكلمات تنبىء عن الأخرى » [١] .

وقد لاحظ العلماء ، أن التطور الصوتى يتصف بعدة خصائص ، أهمها :

١ — أنه غير شعورى ، بمعنى أنه تلقائى غير متعمد ، ولا دخل فيه للإرادة الإنسانية « فالطفل يعتقد أنه يقوم بنفس الحركات الصوتية ، التى يقوم بها أبواه ، مع أنه يخالفهما ، فعدم شعورية التغيير ، هو الذى يفسر لنا استمراره ، لأن الطفل قد يسعى إلى تصحيح خطئه ، لو أنه شعر به » [٢] .

٢ — أنه غير فردى ، وهذا عكس الاعتقاد القديم بأن « جميع الظواهر الاجتماعية فردية المنشأ وتصبح اجتماعية عن طريق التقليد » [٣] . وقد « ساد شطراً طويلا من الزمن ، الاعتقاد بأن كل تغير صوتى ، إنما يصدر عن الفرد ، وأنه لم يكن إلا تغييرا فردياً ثم عُمّم ، وهذا إدراك غير صحيح ، فليس فى وسع أى فرد أن يفرض على جيرانه نطقاً تنبو عنه فطرتهم ، وليس هناك من قسر جدير بتعميم تغير صوتى ، فلأجل أن يصير تغيّر ما ، قاعدة لمجموعة اجتماعية ، يجب أن يكون لدى كل أفراد هذه المجموعة ، ميل طبيعى لتحقيقه من تلقاء أنفسهم ، بل إن سلطان المحاكاة نفسه ، لا يقدر هنا على شىء ، فإن النطق الشاذ لا يجلب أتباعاً لصاحبه ، بل لا يجلب له بوجه عام إلا السخرية منه » [٤] .

---

(١) اللغة لفندريس ٧٢

(٢) اللغة لفندريس ٦٥ وعلم اللغة لعلى عبد الواحد وافى ٢٦٠ واللغة بين المعيارية والوصفية ٩٢

(٣) علم اللغة ، لعلى عبد الواحد وافى ٥٣

(٤) اللغة لفندريس ٦٩

٣ - أنه يسير ببطء وتدرّج ، فتطور الأصوات لا يحدث فجأة بين يوم وليلة ، وإنما يظهر أثره بعد أجيال ؛ لأن « اختلاف الأصوات فى جيل ، عما كانت عليه فى الجيل السابق له مباشرة ، لايكاد يتبينه إلا الراسخون فى ملاحظة هذه الشئون ، ولكنه يظهر فى صورة جلية ، إذا وازنا بين حالتيهما فى جيلين ، تفصلهما مئات السنين »[1] ؛ ولذلك فإن « النظام الصوتى بعيد كل البعد من أن يكون ثابتاً ، طوال تطور لغة من اللغات »[2] .

٤ - أنه محدود بمكان معين ؛ « فمعظم ظواهر التطور الصوتى يقتصر أثرها على بيئة معينة ، ولا نكاد نعثر على تطور صوتى ، لحق جميع اللغات الإنسانية فى صورة واحدة ، فتحول صوت القاف مثلاً إلى همزة ، لم يظهر إلا فى بعض المناطق التى تتكلم العربية »[3] .

وبهذا يمكننا أن نفسر اختلاف اللهجات العربية القديمة ، فى الظاهرة اللغوية الواحدة ؛ وفى ذلك يقول أبو الطيب اللغوى : « ليس المراد بالإبدال أن العرب تتعمد تعويض حرف من حرف ، وإنما هى لغات مختلفة لمعان متفقة ، تتقارب اللفظتان فى لغتين لمعنى واحد ، حتى لا يختلفا إلا فى حرف واحد . قال : والدليل على ذلك أن قبيلة واحدة لا تتكلم بكلمة طورا مهموزة ، وطورا غير مهموزة ، ولا بالصاد مرة وبالسين أخرى ، وكذلك إبدال لام التعريف ميما ، والهمزة المصدّرة عينا ؛ كقولهم فى نحو أَنَّ : عَنَّ . لا تشترك العرب فى شيء من ذلك ،

---

(١) علم اللغة ، لعلى عبد الواحد وافى ٢٦٠

(٢) اللغة لفندريس ٦٤

(٣) علم اللغة ، لعلى عبد الواحد وافى ٢٦١

وإنما يقول هذا قوم وذاك آخرون [١] » .

٥ — أنه محدود بزمان معين ؛ وهذا يعنى أنه قد ينتهى أثره بعد فترة من الزمن ، « فما دام التغير قد أصاب جميع الكلمات ، التى تقع تحت طائلته ، يصبح القانون الذى يفسره وكأنه قد نسخ ، ويمكن للغة أن تخلق مركبات صوتية جديدة مشابهة كل الشبه ، للمركبات التى كان التغير يعمل فيها سابقا ، فهذه المركبات تبقى دون تغير فيقال إنها لم تعد واقعة تحت سلطة القانون ، وهكذا يوجد فى كل اللغات مزدوجات ، تمثل كلمات من منبع واحد ، دخلت اللغة فى حقب مختلفة » [٢] . فقد لوحظ مثلاً أن العربية كانت تنطق الشين فى الكلمات المستعارة من الآرامية سينا ، فى فترة من فترات ، فتقول مثلا : « سارية » بدلا من : šārīṯā (ܫܪܝܬܐ) . غير أن هذا القانون فقد أثره بعد مدة ، فأبقت العربية على الشين ، فى الكلمات التى استعارتها من الآرامية ، فى هذه الحقبة الجديدة من الزمن ، مثل : « شرقراق » وهو طائر النقار الأخضر [٣] .

٦ — أنه مطرد ، فالتطور الذى يصيب صوتا من الأصوات يسرى على هذا الصوت فى جميع أحواله ، ويظهر أثره فى جميع الكلمات المشتملة على هذا الصوت ، وعند جميع الأفراد الذين يوجدون فى هذه البيئة ؛ لأنه « لما كان التغير لا ينحصر فى كلمة منعزلة ، بل فى آلة النطق نفسها ؛ فإن جميع الكلمات ، التى تتبع آلية واحدة فى النطق ، تتغيّر بنفس

---

(١) المزهر ٤٦٠/١ وليس فى المطبوع من كتاب : « الإبدال » لأبى الطيب اللغوى !

(٢) اللغة لفندريس ٧٤

(٣) انظر : فقه اللغات السامية ، لبروكلمان ٤٩ — ٥٠

الصورة [١] ؛ فإنه « إذا حدث لأى تغير صوتى أن صار فعالا ، فى منطقة معينة ، وزمن معين ، فإنه يتوقع له أن يكون تأثيره عاما ، إلا إذا تدخلت عوامل أخرى أجنبية ... مثل التأثيرات التعليمية ، أو الاقتراض الأجنبى ، أو اللهجى ، أو القياس [٢] » .

* * *

التَّغَيُّراتُ التَّارِيخِيَّةُ وَالتَّرْكِيبِيَّةُ لِلأَصْوَاتِ

أولاً : التغيرات التاريخية :

وتنقسم التغييرات الصوتية عموما ، إلى قسمين كبيرين ، أولهما : التغييرات التاريخية ، والثانى التركيبية . ونعنى بالتغييرات التاريخية ، تلك التغييرات التى تحدث من التحول فى النظام الصوتى للغة ، بحيث يصير الصوت اللغوى ، فى جميع سياقاته صوتاً آخر ، أما التغييرات التركيبية ، فهى التى تصيب الأصوات ، من جهة الصلات التى تربط هذه الأصوات ، بعضها ببعض فى كلمة واحدة .

ومن أمثلة التغييرات التاريخية فى الأصوات : تطور الباء المهموسة (P) فى اللغة السامية الأم ، إلى « فاء » فى اللغات السامية الجنوبية ، وهى العربية والحبشية ، وقد بقى الأصل كما هو ، فى اللغات السامية الشمالية ، وهى : العبرية والآرامية والأكادية ، مثال ذلك كلمة : pōl (פּוֹל) فى العبرية [1] ، التى صارت فى العربية : « فول » ، وفى الحبشية : fāl (ፋል) .

ومثال ذلك أيضا : Pē (פֶּה) فى العبرية = Pūmā (ܦܘܡܐ) فى الآرامية = pū فى الأكادية = « فو » فى العربية [إلى جوار : « فَمٌ » بالتميم ، الذى نسى أصله ، فعدّ أصلاً من أصول الكلمة ، وألحق به التنوين الذى يقابل التميم ، وفتحت الفاء قياساً على بعض أسماء الأعضاء فى الجسم ، مثل : يد ، وخد ، وعين ، ورأس ، وغير ذلك] = af (አፍ) فى الحبشية .

ومثال ذلك أيضا : pālaġ (פָּלַג) فى العبرية = plaġ (ܦܠܓ)

---

(١) انظر : سفر صمويل الثانى ١٧/٢٨ وسفر عزرا ٤/٩

فى الآرامية ، بمعنى (شق) فيهما = Palgu فى الأكادية بمعنى (قناة) = falag (ፈለግ) فى الحبشية بمعنى « جدول » = « فِلْجٌ » و « فَلَجَ » فى العربية بمعنى « شَقَّ » .

وتطور هذه الباء (P) المهموسة فى العبرية والآرامية إلى « فاء » ، مسألة خاصة بالسياق الصوتى فيهما ، فإن هذا الصوت مع خمسة أخرى ، يطلق عليها أصوات (بجد كپت) الأصل فيها أن تكون انفجارية ، إلا إذا جاءت بعد حركة ، فإنها فى هذه الحالة تتحول إلى أصوات احتكاكية ، دون أن يتأثر المعنى بذلك ، فمثلا : كلمة « فتح » فى العربية ، تقابل فى العبرية pāṯaḥ (פָּתַח) ، كما تقابل فى الآرامية : ptah (ܦܬܚ) غير أن المضارع من هذا الفعل فى العبرية هو : yiftaḥ (יִפְתַּח) وفى الآرامية (ܢܦܬܚ) ، فلم تنطق « الباء » فيهما « فاء » ، إلا لوقوعها هنا بعد حركة .

ويعد صوت الجيم فى العربية ، مثالًا طيباً للتغييرات التاريخية فى الأصوات ؛ فإن مقارنة اللغات السامية كلها ، تشير إلى أن النطق الأصلىّ لهذا الصوت ، كان بغير تعطيش ، كالجيم القاهرية تماماً ؛ فكلمة : « جمل » مثلا ، هى فى اللغة العبرية : gāmāl (גָּמָל) وفى الآرامية : gamlā (ܓܡܠܐ) وفى الحبشية : gamal (ገመል) أما العربية الفصحى ، فقد تحوّل فيها نطق هذا الصوت ، من الطبق إلى الغار ، أى من أقصى الحنك إلى أوسطه كما تحول من صوت بسيط إلى صوت مزدوج يبدأ بدال من الغار ، ثم ينتهى بشين مجهورة .

ومن التغييرات التاريخية لهذا الصوت ، انحلاله إلى أحد عنصريه المكوِّنين له فى اللهجات العربية الحديثة ؛ إذ ينطق كالدال فى صعيد مصر ، فترى أهالى مدينة « جرجا » مثلا ، يسمون مدينتهم : « دردا » كما يقولون : « دَمَل » و « داموسة » فى : « جمل » و « جاموسة » وغير ذلك .

والمكون الثانى للجيم ، وهو الشين المجهورة نسمعه جيدا فى نطق الشوام لهذا الصوت ، وهو ما نسميه « بالجيم الشامية » .

ويبدو أن انحلال الجيم العربية الفصيحة ، إلى العنصر الأول من عنصريها ، قد حدث منذ وقت مبكر فى اللهجات العربية ، فقد ذكر ابن مكى الصقلى (المتوفى سنة ٥٠١ هـ) فى كتابه : « تثقيف اللسان وتلقيح الجنان » أن الناس فى عصره ، كانوا يقولون « دشيش » فى : « جشيش » [١] . ومثل ذلك رواه أبو بكر الزبيدى (المتوفى سنة ٣٧٩ هـ) عن عوام الأندلس ، فى كتابه : « لحن العوام » [٢] ، كما ذكر ابن هشام اللخمى (المتوفى سنة ٥٧٧ هـ) إلى جانب هذه الكلمة كذلك : « تَدَشّيت » فى : « تجشأت » [٣] .

وأقدم من هذا انحلالها إلى العنصر الثانى ، وهو الشين المجهورة ، وقد ضاع منها الجهر ، فصارت شيناً مهموسة ، كالشين الأصلية فى العربية ، فقد روى عن قبيلة تميم أنهم كانوا يقولون فى المثل : « شَرٌّ ما أشاءك إلى مُخّةِ عُرقوب » [٤] ، بدلا من : « أجاءك » أى ألجأك ، وقال زهير بن ذؤيب العدوى :

فيالَ تميم صابروا قد أُشئتمُ　　　إليه وكونوا كالمحربة البُسْلِ [٥]

---

(١) انظر لحن العامة والتطور اللغوى ٢٠٦
(٢) لحن العوام للزبيدى ٢٠
(٣) انظر لحن العامة والتطور اللغوى ٢٤١ وتصحيح التصحيف ١٨٢
(٤) انظر : معانى القرآن للفراء ١٦٤/٢ والصحاح (شيأ) ٥٩/١
(٥) الصحاح للجوهرى (شيأ) ٥٩/١

كما قال الراجز :

إذ ذاك إذ حبلُ الوصال مُدْمش [١]

أى : (قد أُجئتم) بمعنى : « أُلجئتم » ، و « مدمج » .

كما يروى لنا أبو عمرو الشيبانى شيئا من هذا ، فيقول : الإشاءة : الاضطرار . وأهل الحجاز يقولون : الإجاءة ، تقول : ما أجاءك إلى كذا وكذا ؟ أى ما اضطرك إليه قال الله عز وجل : فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، وقال الأخطل :

[ستقذف وائل حولى جميعا] وأطعن إن أُشِئْت إلى الطعان

وفى الأمثال : قد أُشئْتَ عقيلُ إلى عقلك ، أى قد اضطررت إلى عقلك » [٢] .

ويروى لنا أصحاب كتب لحن العامة ، بعض أمثلة هذه الظاهرة ، عبر عصور العربية ، وفى أصقاعها المختلفة ؛ فقد رووا لنا مثلًا : « اشترت الدابة » فى : « اجترت » و « فلان مشتهد » فى : « مجتهد » و « اشترأ على فلان » فى : « اجترأ عليه » و « شخّ الصبى » فى : « جخّ » و « فشرَ » فى : « فَجَرَ » و « وشّ » فى : « وجه » [٣] وغير ذلك .

وهناك تغيير تاريخى ثالث للجيم فى اللهجات العربية ، وهو تحولها إلى « ياء » ، وقد حدث هذا فى لهجة تميم كذلك ؛ فقد رُوى أن بنى تميم يقولون فى : « الصهريج » وفى جمعه : « الصهاريج » وهو الذى يجتمع فيه الماء : « الصهرىّ والصهارىّ » ، كما روى أبو زيد أن بعض بنى تميم قال :

---

(١) سر صناعة الإعراب ٢١٥/١ وألف باء للبلوى ٤٣٢/٢

(٢) الجيم لأبى عمرو الشيبانى ٧٠/١ والبيت فى ديوان الأخطل ١٩٢ والتكملة منه .

(٣) انظر : لحن العامة والتطور اللغوى ٢٠٦ ؛ ٢٤١ ؛ ٣١٥ ؛ ٣٣٥ وتصحيح التصحيف ١٨٥

« شيرة » للشجرة ، وعلى ذلك أنشدت أم الهيثم :

إذا لم يكن فيكنّ ظلّ ولا جنى فأبعد كنّ الله من شيرات

تريد : « شجرات » .

وهذه الظاهرة تشيع فى عصرنا الحاضر ، فى بعض قرى جنوبى العراق ، وبعض بلدان الخليج العربى ، إذ يقولون فى « مسجد » مثلا : « مسيد » ، وفى « دجاج » : « دياى » وغير ذلك [١] .

وصوت « القاف » كذلك من الأصوات التى عانت كثيرا من التغييرات التاريخية فى العربية ؛ فإن مقارنة اللغات السامية تدل على أنه صوت شديد مهموس ، ينطق برفع مؤخرة اللسان ، والتصاقها باللهاة لكى ينحبس الهواء عند نقطة هذا الالتصاق ، ثم يزول هذا السدّ فجأة ، مع عدم حدوث اهتزازات فى الأوتار الصوتية ؛ ففى العبرية مثلا Kōl (קוֹל) بمعنى « صوت » ، وفى الآرامية : Kdām (ܩܕܳܡ) بمعنى « قدّام » ، وفى الحبشية kōma (ቆመ) بمعنى « قام » ، وفى الأكادية : pakad بمعنى « بَحَثَ » وهذا النطق المهموس ، هو الذى نسمعه الآن من أفواه مجيدى القراءات القرآنية فى مصر .

وقد عدّ قدماء اللغويين العرب : « القاف » من الأصوات المجهورة ، فإن صدق وصفُهم هذا ، كان ذلك النطق من التغييرات التاريخية فى العربية القديمة ، وقد بقى هذا النطق المجهور ، فى أغلب البوادى العربية فى الوقت الحاضر .

غير أن هناك تغييرات تاريخية أخرى كثيرة ، طرأت على هذا الصوت

---

(١) انظر فى كل ذلك : فصول فى فقه العربية ١٣٢ - ١٣٣

فى البلاد العربية ، فهو فى كلام كثير من أهل مصر والشام : « همزة » ، وقد روى لنا فى القديم مثل هذا النطق فى كلمة : « القَفْز » و « الأفز » [١] ، كما ينطق فى السوادن وجنوبى العراق « غينا » ، فنسمعهم يتحدثون عن « الاستغلال » ، وهم يقصدون بذلك : الاستقلال ، وفى لهجة مصر كلمتان من هذه الظاهرة هما : « يِغْدَر » ومشتقاتها ، بدلا من « يَقْدِرُ » ، و « زغزغ » بمعنى : حرك يده فى خاصرة الصبى ليضحكه ، ولها صلة « بالزقزقة » المروية لنا عن العرب بمعنى ترقيص الطفل [٢] . كما ينطق صوت القاف صوتاً مزدوجاً كالجيم الفصيحة ، فى بعض بلدان الخليج كالبحرين ؛ إذ يقولون مثلا : « الجبْلة » بدلًا من : « القِبلة » ، كما نسمعها فى مدينة الرياض ، صوتا مزدوجا كذلك غير أنه مكوّن من الدال والزاى (dz) ، فى مثل : « دْزبِلة » فى : « قِبلة » ، و « المدْزيبرة » فى : « المقيبرة » و « دْزِليب » فى : « قليب » بمعنى : « البئر » وغير ذلك . وهناك أخيراً تطور للقاف ، لدى كثير من الفلسطينيين ، بنطقها كالكاف ، فهم يقولون مثلًا : « كال » فى : « قال » ، و « كتَلهُ » فى : « قتله » وغير ذلك .

ثانياً : التغيرات التركيبية :

عرفنا من قبل أن التغييرات التركيبية ، هى تلك التغييرات ، التى تصيب الأصوات ، من جهة الصلات التى تربط هذه الأصوات بعضها ببعض فى كلمة واحدة ، فهى لذلك مشروطة بتجمع صوتى معين ، وليست عامة فى الصوت فى كل ظروفه وسياقاته اللغوية .

---

(١) انظر : الإبدال لأبى الطيب ٥٦٢/٢

(٢) انظر : اللهجة العامية المصرية فى القرن الحادى عشر ١١٥

وأهم قوانين التغييرات التركيبية للأصوات ، قانونان هما : قانون المماثلة ، وقانون المخالفة ، أما الأول فيدعو صوتين مختلفين إلى التماثل أو التقارب ، فى حين يدعو الثانى صوتين متماثلين إلى التخالف والتباعد . ونفصل فيما يلى القول فى هذين القانونين :

(أ) قَانونُ المُماثَلَةِ (Assimilation)

تتأثر الأصوات اللغوية ، بعضها ببعض ، عند النطق بها فى الكلمات والجمل ، فتتغير مخارج بعض الأصوات أو صفاتها ، لكتى تتفق فى المخرج أو فى الصفة ، مع الأصوات الأخرى المحيطة بها فى الكلام ، فيحدث عن ذلك نوع من التوافق والانسجام ، بين الأصوات المتنافرة فى المخارج أو فى الصفات ، ذلك أن أصوات اللغة تختلف فيما بينها — كما نعرف — فى المخارج ، والشدة والرخاوة ، والجهر والهمس ، والتفخيم والترقيق ، وما إلى ذلك ، فإذا التقى فى الكلام صوتان من مخرج واحد ، أو من مخرجين متقاربين ، وكان أحدهما مجهوراً والآخر مهموساً مثلًا ، حدث بينهما شدّ وجذب ، كل واحد منهما يحاول أن يجذب الآخر ناحيته ، ويجعله يتماثل معه فى صفاته كلها ، أو فى بعضها .

ويعرف « دانيال جونز » D.Gones المماثلة بأنها « عملية استبدال صوت بصوت آخر ، تحت تأثير صوت ثالث قريب منه ، فى الكلمة أو فى الجملة [١] » .

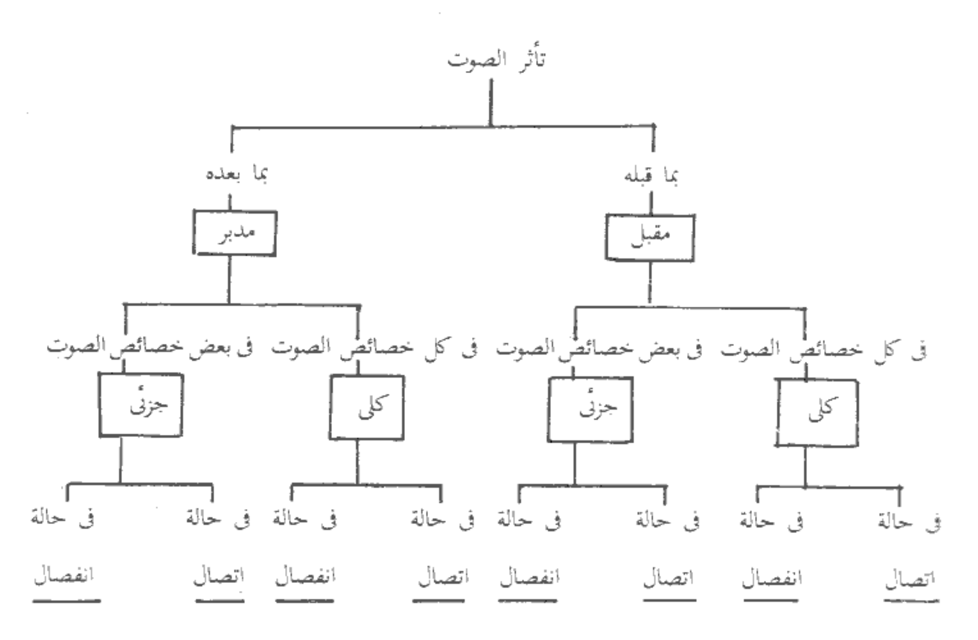
وهذا التوافق كما يحدث بين الأصوات الصامتة ، يحدث كذلك بين الحركات ، كما يحدث أيضا بين الأصوات الصامتة والحركات .

---

(١) D.Jones, An Outline, 217 .

وهناك اصطلاحات لعلماء الأصوات ، فى أنواع التأثر الناتجة عن قانون المماثلة ، فإن أثر الصوت الأول فى الثانى ، فالتأثر (مُقْبِل) ، وإن حدث العكس فالتأثر (مُدْبِر) ، وإن حدثت مماثلة تامة بين الصوتين ، فالتأثر (كلى) ، وإن كانت المماثلة فى بعض خصائص الصوت ، فالتأثر (جزئى) . وفى كل حالة من هذه الحالات ، قد يكون الصوتان متصلين تماماً ، بحيث لا يفصل بينهما فاصل ، من الأصوات الصامتة أو الحركات ، وقد يكون الصوتان منفصلين بعضهما عن بعض بفاصل من الأصوات الصامتة أو الحركات .

ويمكن تلخيص بيان أشكال التأثر الصوتى ، على النحو التالى :



وقبل أن نضرب الأمثلة المختلفة على ذلك ، نحب أن نشير هنا إلى أن الصوت لا يمكن أن ينقلب إلى صوت آخر ، بعيد عنه فى المخرج جدا ، فلا ينقلب صوت من أصوات الشفة أو الأسنان مثلًا ، إلى صوت آخر من أصوات الحلق ، وكذلك العكس .

وقد فطن إلى هذه الحقيقة ، العلامة ابن جنى ؛ فقال : « فأما قول من قال فى قول تأبط شرًّا :

كأنما حثحثوا حُصًّا قوادمُه أو أُمَّ خشف بذى شَثٍّ وطُبّاق

إنه أراد : حثّثوا ، فأبدل من الثاء الوسطى حاء ، فمردود عندنا ، وإنما ذهب إليه البغداديون وأبو بكر [بن السراج] معهم . وسألت أبا على عن فساده ، فقال : العلة فى فساده أن أصل القلب فى الحروف ، إنما هو فيما تقارب منها ، وذلك : الدال والطاء والتاء ، والذال والظاء والثاء ، والهمزة والهاء ، والميم والنون ، وغير ذلك مما تدانت مخارجه . فأما الحاء فبعيدة عن الثاء وبينهما تفاوت يمنع من قلب إحداهما إلى أختها . قال : وإنما (حثحث) أصل رباعى ، و (حثّث) أصل ثلاثى ، وليس واحد منهما من لفظ صاحبه ، إلا أن (حثحث) من مضاعف الأربعة ، و (حثّث) من مضاعف الثلاثة » [1] .

كما يقول ابن سيدة الأندلسى : « ما لم يتقارب مخرجاه ألبتة ، فقيل على حرفين غير متقاربين ، فلا يسمى بدلا ؛ وذلك كإبدال حرف من حروف الفم ، من حرف من حروف الحلق » [2] .

ويقول الفراء : « إذا تقارب الحرفان فى المخرج ، تعاقبا فى اللغات ؛ كما يقال : جَدَف ، وجَدَث [3] » .

---

(١) سر صناعة الإعراب ١٩٧/١ ورأى البغداديين وابن السراج نقله صاحب اللسان (خبب) ٣٣٣/١ فى قوله : « وخبخبوا عنكم من الظهيرة : أبردوا . وأصله : خبّبوا ، بثلاث باءات ، أبدلوا من الباء الوسطى خاء ، للفرق بين فعلل وفعّل . وإنما زادوا الخاء من سائر الحروف ؛ لأن فى الكلمة خاء . وهذه علة جميع ما يشبهه من الكلمات » .

(٢) المخصص ٢٧٤/١٣

(٣) معانى القرآن ٢٤١/٣

وفيما يلى نضرب الأمثلة لكل نوع من أنواع التأثير السابقة :

١ – **التأثر المقبل الكلى فى حالة الاتصال** : من أمثلته ما يلى :

أ – تتأثر تاء الافتعال دائما بالدال أو بالطاء قبلها ، فتقلب دالا أو طاء مثل : ادترك ، ادّرك ؛ ادتهن ، ادّهن ؛ اطتلب ، اطّلب ؛ اطتلع ، اطّلع ؛ اطترد ، اطّرد .

ب – تتأثر تاء الافتعال غالباً بالذال أو بالصاد أو بالضاد قبلها فتقلب ذالا أو ضاداً ؛ مثل : اذتكر ، اذّكر ؛ اضتجع ، اضجّع ؛ اصتبر ، اصبّر .

جـ – تتأثر تاء الفاعل بلام الفعل ، إذا كانت طاء ، فتقلب طاء فى بعض اللهجات القديمة ؛ وعلى هذه اللغة ، جاء قول علقمة ابن عبدة التميمى :

وفى كل حى قد خبطٌ بنعمة   فحُقَّ لشأس من نداك ذَنُوب

ويقول سيبويه : « وأعرب اللغتين وأجودهما أن لا تقلبها طاء ، لأن هذه التاء علامة الإضمار ، وإنما تجىء لمعنى ، وليست تلزم هذه التاء الفعل ، ألا ترى أنك إذا أضمرت غائباً قلت (فَعَل) فلم تكن فيه تاء » [١] .

د – تتأثر الواو الساكنة بالكسرة القصيرة قبلها ، فتتحول إلى كسرة مماثلة ، وتتحد مع الحركة المؤثرة فى كسرة طويلة ؛ مثل مِوْزان ، ميزان ؛ مِوْعاد ، ميعاد [٢] .

---

(١) كتاب سيبويه ٢/٤٢٣

(٢) انظر : المنصف ٢/٣٢٠ والمقتضب ١/٩٢ ؛ ١/٢١١

ومثل ذلك تتأثر الياء الساكنة بالضمة القصيرة قبلها ، فتتحول إلى ضمة مماثلة ، وتتحد مع الحركة المؤثرة فى ضمة طويلة ؛ مثل : مُيْقن » موقن ؛ مُيْسر » موسر [1] .

٢ – **التأثر المقبل الكلى فى حالة الانفصال** : ومن أمثلته ما يلى :

أ – تتأثر حركة الضم فى ضمير النصب والجر الغائب المفرد المذكر (ـــهُ) والجمع المذكر (ـــهُم) الجمع المؤنث (ـــهُنَّ) والمثنى (ـــهُما) – بما قبلها من كسرة طويلة أو قصيرة أو ياء ، فتقلب الضمة كسرة ، مثل : برجلِهُ › برجلهِ ؛ فيهُ › فيهِ ؛ عليهُ › عليهِ ؛ ضربتِهُ › ضربتِهِ ؛ بصاحبِهُم › بصاحبِهِم ؛ قاضيهُم › قاضيهِم ؛ بهُنَّ › بهِنّ ؛ بِهُما › بِهِما . وفى قراءة حفص عن عاصم : « وما أنسانيهُ إلا الشيطان » (الكهف ١٨/٦٣) على الأصل فى حركة هذا الضمير ، وفيها كذلك : « ومن أوْفَى بما عاهد عَلَيْهُ الله » (الفتح ٤٨/١٠) . وقد حافظت القبائل الحجازية على هذا الأصل فى نطقها ، قال سيبويه : « فالهاء تكسر إذا كانت قبلها ياء أو كسرة ... وذلك قولك : مررت بهى قبلُ ، ولديهى مال ، ومررت بدارهى قبلُ ، وأهل الحجاز يقولون : مررت بهُو قبلُ ، ولديهو مال ، ويقرءون « فخسفنا بهُو وبدارهُو الأرض » [2] . كما يقول المبرد : « فأما أهل الحجاز خاصة ، فعلى الأمر الأول فيها ، يقرءون : فخسفنا بهُو وبدارهُو الأرض ... ومن لزم اللغة الحجازية ، قال : عليْهُ مالٌ [3] » .

---

(١) انظر : المقتضب ١/٩٢ ؛ ١/٢١١

(٢) كتاب سيبويه ٢/٢٩٤

(٣) المقتضب للمبرد ١/٣٧

وفى التسهيل لابن مالك : « وهاء مضمومة للغائب ، وإن وليت ياء ساكنة أو كسرة ، كسرها غير الحجازيين » [١] . وفى شرحه يقول ابن مالك : « ولغة الحجازيين فى هاء الغائب الضم مطلقا ، وهو الأصل فيقولون : ضربتِهُ ، ومررت بِهُ ، ونظرت إليهُ . ولغة غيرهم الكسر بعد الكسرة ، أو الياء الساكنة إتباعا . وبلغة غيرهم قرأ القراء إلا حفصا فى : وما أنسانيهُ إلا الشيطان ، وبما عاهد عليهُ الله ، وحمزة فى : لأهلهُ امكثوا فى الموضعين ، فإنهما قرءا بالضم ، على لغة الحجازيين [٢] » .

ب — روى أبو بكر الزبيدى أن عوام الأندلس فى القرن الرابع الهجرى ، كانوا يقولون : خيْزَرَان وسيْكَرَان ، وهو نبت تدوم خضرته فى القيظ [٣] بدلا من : خيْزُران وسيْكُرَان .

٣ — **التأثر المقبل الجزئى فى حالة الاتصال** : من أمثلته ما يلى :

أ — تتأثر تاء الافتعال بالصاد أو بالضاد أو بالزاى قبلها فتقلب طاء فى الحالتين الأوليين ، ودالا فى الحالة الثانية ، مثل : اصتبغ › اصطبغ ؛ اضتجع › اضطجع ؛ ازتجر › ازدجر . ويقول الزجاج فى قوله تعالى : ﴿ إن الله اصْطَفَاهُ عليكم [٤] ﴾ إن اصطفاه « افتعل من الصفوة . الأصل : اصتفاه ، فالتاء إذا وقعت بعد الصاد أبدلت طاء ؛ لأن التاء من مخرج الطاء ،

---

(١) التسهيل لابن مالك ٢٤

(٢) شرح التسهيل لابن مالك ١٤٤/١ . وانظر فى أصالة هاء الضمير : معانى القرآن للفراء ٥/١

(٣) لحن العوام للزبيدى ٥٤ ؛ ١٢٤

(٤) البقرة ٢٤٧/٢

والطاء مطبقة ، كما أن الصاد مطبقة ، فأبدلوا الطاء من التاء ؛ ليسهل النطق بما بعد الصاد [١] » .

ب - تتأثر تاء الافتعال بالجيم ، إذا كانت فاء للفعل ، فتقلب دالاً في بعض اللهجات القديمة ، مثل : اجتمع ، اجدمع ؛ اجتزّ ، اجدزّ .

ويقول ابن جنى : « وقد قلبت تاء افتعل دالا مع الجيم فى بعض اللغات . قالوا : اجدمعوا ، فى : اجتمعوا ، واجدزّ ، فى : اجْتزّ ، وأنشدوا :

فقلت لصاحبى لا تحبسانى بنزع أصوله واجدزَّ شيحا

ولا يقاس ذلك إلا أن يسمع ، لا تقول فى اجترأ : اجدرأ ، ولا فى اجترح اجدرح » [٢] !

جـ - تتأثر الثاء بالأصوات المجهورة قبلها ، فتقلب ذالا فى بعض اللهجات القديمة ، مثل : يجثو ، يجذو ؛ تلعثم ، تلعذم ، وإن كان ابن جنى ينكر أن يكون ذلك قلبا ويدعى أنهما لغتان ؛ فيقول : « وأما قولهم : جذوت وجثوت ، إذا قمت على أطراف أصابعك . وقرأت على أبى على :

إذا شئت غنتنى دهاقين قرية وصنّاجة تجذو على كل منْسم

فليس أحد الحرفين بدلا من صاحبه ، بل هما لغتان ، وكذلك قولهم أيضا : قرأ فما تلعثم ، وما تلعذم » [٣] !

---

(١) معانى القرآن وإعرابه ٣٢٤/١

(٢) سر صناعة الإعراب ٢٠١/١

(٣) سر صناعة الإعراب ٢٠١/١

د - تتأثر تاء الفاعل بلام الفاعل ، إذا كانت صوتا مفخماً ، فتقلب التاء طاء فى بعض اللهجات القديمة ، وهى تلك التى يقول أصحابها : فَحَصْطُ برجلى ، بدلا من فحصت [١] .

هـ - روى أبو الطيب [٢] أنه يقال فى « نَشْز » : « نَشْس » ، كما يقال فى : « رجل جبس » للرجل الدنىء : « رجل جِبْز » ؛ ففى المثال الأول تأثرت الزاى المجهورة بالشين المهموسة قبلها ، فقلبت إلى نظيرها المهموس وهو السين ، وفى المثال الثانى تأثرت السين المهموسة بالباء المجهورة قبلها فقلبت إلى نظيرها المجهور وهو الزاى .

٤ - **التأثر المقبل الجزئى فى حالة الانفصال** : من أمثلته ما يلى :

أ - تتأثر السين المهموسة بالراء المجهورة قبلها ، فتقلب إلى نظيرها المجهور وهو الزاى فى كلمة : مِهراس ، التى صارت : مهراز ، فى لهجة الأندلس العربية ، فى القرن السادس الهجرى ، كما روى لنا ذلك ابن هشام اللخمى [٣] .

ب - تتأثر الذال بالقاف قبلها ، فتنقلب إلى نظيرها المفخم وهو الظاء ، فى بعض اللهجات القديمة ، يقال للشاة التى تضرب بخشبة حتى تموت : وقيذ ووقيظ . ويقول ابن جنى : « يقال : تركته وقيذا ووقيظا . والوجه عندى والقياس أن تكون الظاء بدلا من الذال ، لقوله عز اسمه : والموقوذة ، بالذال . ولقولهم : وقذة يقذة ،

---

(١) انظر كتاب سيبويه ٤٢٣/٢ وسر صناعة الإعراب ٢٢٥/٢

(٢) الإبدال لأبى الطيب اللغوى ١١٨/٢

(٣) المدخل إلى تقويم اللسان ٣٤

ولم أسمع : وقظة ولا موقوظة ؛ فالذال أعم تصرفا فلذلك قضينا بأنها الأصل »[1] .

جـ - تتأثر الدال بالراء قبلها ، فى لهجة الأندلس العربية فى القرن الرابع الهجرى فتنقلب إلى نظيرها المفخم ، وهو الضاد لأن الراء صوت ذو قيمة تفخيمية مثل : معربد » معربض[2] .

وهذه إحدى خصائص صوت الراء فى العربية ، إذ يميل هذا الصوت إلى تفخيم بعض الأصوات المجاورة له ، مثل قولنا : « صور » فى « سور » و « أخرص » فى « أخرس » و « رفص » فى « رفس »[3] ، وفى كراسة الامتحان كتب بعض الطلاب كلمة : « أضران » بدلا من : « أدران » ؛ وقد روى مثل ذلك كثيرا فى العربية الفصحى ؛ إذ فيها : « الخرّاس » و « الخرّاص » بمعنى صاحب الدنان ، و « رسخ الشىء » و « رصخ » بمعنى : ثبت و « رجل أرسح » و « أرصح » بمعنى : خفيف لحم الوركين ، و « السراط » و « الصراط » بمعنى : الطريق : وغير ذلك[4] .

٥ - **التأثر المدبر الكلى فى حالة الاتصال** : من أمثلته ما يلى :

أ - فى مضارع صيغتى : تفعّل وتفاعل ، تتأثر التاء بعد تسكينها للتخفيف ، بفاء الفعل إذا كانت صوتا من أصوات الصفير أو

---

(١) سر صناعة الإعراب ٢٣٣/١

(٢) لحن العوام للزبيدى ٢٩٦

(٣) انظر كتابنا : لحن العامة والتطور اللغوى ٣٣٥ وفصول فى فقه العربية ٢٠٠

(٤) انظر فى هذا وغيره : كتاب الإبدال لأبى الطيب اللغوى ١٧٨/٢ وما بعدها ، وكتاب القلب والإبدال لابن السكيت ٤٢ - ٤٣

الأسنان ، ثم قيست على ذلك صيغة : الفعل الماضى ؛ مثل :

يَتذَكّر ، يَتْذَكّر ، يَذّكّر ← اذّكّر (فى الماضى)
يَتَطَهّر ، يَتْطهّر ، يَطّهّر ← اطّهّر (فى الماضى)
يَتَدَارأ ، يَتْدَارأ ، يدّارأ ← ادّارأ (فى الماضى)
يَتَثَاقل ، يَتْثَاقل ، يَثّاقل ← اثّاقل (فى الماضى)

وقد حدث هذا فى اللغة العربية القديمة ، وجاء ذلك فى القرآن الكريم جنبا إلى جنب مع الصيغة الأخرى ، التى لم يحدث فيها تطور ، كقوله تعالى : ﴿ اثّاقلتم إلى الأرض ﴾ [التوبة ٣٨/٩] ﴿ وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها ﴾ [البقرة ٧٢/٢] ﴿ بل ادّارك علمهم فى الآخرة ﴾ [النمل ٦٦/٢٧] ﴿ وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ [البقرة ٢٦٩/٢] ﴿ وما يدريك لعله يزكى أو يذّكّر فتنفعه الذكرى ﴾ [عبس ٣/٨٠ - ٤] ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّيّنت ﴾ [يونس ٢٤/١٠]

ولعل هذه الظاهرة كانت فى سبيل التطور فى العربية الفصحى ، عندما جاء الإسلام ، ولذلك نجد أمثلتها فى القرآن الكريم - كما قلنا - جنبا إلى جنب مع الصيغة القديمة التى لم يحدث فيها تغير للأصوات ، كقوله تعالى : ﴿ لولا أن تداركه نعمة من ربه ﴾ [القلم ٤٩/٦٨] ﴿ وما يتذكر إلا من ينيب ﴾ [غافر ١٣/٤٠] ﴿ قالوا إنا تطيرنا بكم ﴾ [يس ١٨/٣٦] وهو يقول فى آية أخرى : ﴿ قالوا اطيرنا بك وبمن معك ﴾ [النمل ٤٧/٢٧] . بل إن الآية الواحدة لتحتوى فى بعض الأحيان على الصورتين معاً ، كقوله تعالى ﴿ ليدّبّروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ [ص ٢٩/٣٨] .

وقد ظل هذا التطور سائرا فى طريقه فى لهجات الخطاب ، حتى ساد وحده وقضى على الظاهرة القديمة ؛ ففى اللهجة العامية المصرية نقول مثلا : فلان اصّدعت دماغه ، واسّرع فى كلامه ،

واشّهى الأكل ، واصّوّر ، واطّوّع فى الجيش ، ولا أثر للصيغة القديمة فى لهجات الخطاب ؛ إذ لا يقال فيها مثلا : فلان تصدعت دماغه ، وتسرع فى كلامه ، وتشهى الأكل ، وتصور ، وتطوع فى الجيش .

وكذلك الحال فى صيغة (تفاعل) إذ ماتت هى الأخرى ، وحلت محلها صيغة (اتفاعل) ، التى شاهدنا مولدها فى عصر نزول القرآن الكريم ؛ إذ نقول الآن فى لهجات الخطاب : فلان اطّاول على فلان ، واشّاتم هوّ وهوّ ، واسّاهل معاه ، واصّالحوا سوا ، بدلا من : تطاول عليه : وتشاتم ، وتساهل ، وتصالح .

بل لقد سادت صيغتا : اتفعّل واتفاعل ، فى اللهجة العامية المصرية حتى ولو لم يكن فى الأصل صوت من أصوات الصفير أو الأصوات الأسنانية ؛ كقولنا مثلا : « اتفرج » و « اتبهدل » و « اترازل عليه » وغير ذلك .

وهذه الظاهرة خير مثال على ما سبق أن قلناه ، من أن التطور اللغوى فى أية ظاهرة لغوية ، لا يحدث فجأة فيقضى بين يوم وليلة على كل أثر للقديم .

ب — تتأثر النون فى : إنْ وأنْ ومنْ وعَن ، بالميم واللام التى تليها ، فتقلب ميما أو لاماً ، مثل : إماّ وأماّ وألّا وممّا وعمّا ، وما إلى ذلك .

جـ — فى العربية القديمة ، تتأثر لام التعريف بما بعدها ، من أصوات الصفير والأسنان والأصوات المائعة (الراء واللام والنون) ، وهى ما تسمى عند اللغوين العرب بالحروف الشمسية ، فتدغم فيها ،

وقد جمعها بعض الشعراء فى أوائل كلمات البيت التالى :

طب ثم صل رحما تفز ضف ذا نعم   دع سوء ظن زر شريفا للكرم

كما ضبطها أبو العلاء المعرى بقوله : « والحروف التى تدغم فيها لام التعريف تنقسم فى ترتيب حروف المعجم ثلاثة أقسام ، فالقسم الأول : حرفان متواليان ، وهما الثالث من حروف المعجم والرابع ، وذلك : التاء والثاء ، والثانى : عشرة أحرف متواليات ، أولها الدال على ترتيب حروف المعجم ، وآخرها الظاء . والثالث : حرف فارد تدغم فيه اللام ، وهو النون [١] » .

د — روى لنا اللغويون فى (وَتِد) : (ودّ) وقالوا : « الأصل : وَتِد وهى اللغة الحجازية الجيدة ، ولكن بنى تميم يسكنون التاء ويدغمونها فى الدال » [٢] .

وتسكين الوسط للتخفيف ، روى لنا فى العربية كثيرا ، وقالوا عنه إنه « لغة بنى بكر بن وائل ، وأناس كثير من تميم [٣] » ، كما يروى عن قبيلة ربيعة كذلك [٤] .

هـ — تتأثر اللام فى كلمة : (بل) بالراء فى أول الكلمة التى تأتى بعدها ، فتقلب راء ؛ كقول الشاعر :

عافت الماء فى الشتاء فقلنا   بل رديه تصادفيه سخينا

---

(١) الصاهل والشاحج ٤٨٥

(٢) الجمل للزجاجى ٢٨٠ وتصحيح الفصيح ٢٠٢/١

(٣) انظر : شرح شواهد الشافية ١٥/٤

(٤) انظر : الصاهل والشاحج ٤٤٠ ، ٤٨٦ ، ٦٦٦

فإنها تنطق : « برديه » وكان ذلك هو السبب الذى أوقع قطرباً النحوى المشهور ، فى الخطأ ، حين زعم أن « بردّ » من كلمات الأضداد ، تأتى بمعنى : بَرّد وسخّن ، اعتماداً على هذا البيت ، ولم يدر أن الراء منقلبة عن اللام فى (بل) . وقد عابه بذلك أبو الطيب اللغوى ، فى كتابه الأضداد (٨٦/١) ، ومن أمثلة ذلك أيضا قوله تعالى : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ﴾ [المطففين ١٤/٨٣] ، وهذا هو السر فى أن بعض القراء يسكت بعد اللام سكتة لطيفة ، حتى يوجد فاصلا بين اللام والراء بعدها ، فلا تتأثر بها .

و – تتأثر الراء فى بعض قراءات القرآن ، باللام بعدها ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ يغفر لكم ﴾ فتقلب لاما ، وإن كان ابن جنى ينكر ذلك ويقول : « اعلم أن الراء لما فيها من التكرير ، لا يجوز إدغامها فيما يليها من الحروف ، لأن إدغامها فى غيرها يسلبها ما فيها من الوفور بالتكرير ، فأما قراءة أبى عمرو : يغفر لكم ، بإدغام الراء فى اللام ، فمدفوع عندنا ، وغير معروف عند أصحابنا ، إنما هو شىء رواه القراء ، ولا قوة له فى القياس »[1] .

ز – أورد سيبويه شواهد على تأثر لام (هل) و (بل) بالشين والثاء والتاء بعدها مثل قول طريف العنبرى :

تقول إذا استهلكتُ مالاً بلذة فكيهةُ هشَّىءٌ بكفَّيْكَ لائق

يريد : هل شىء ... وقرأ أبو عمرو : هَثُّوب الكفار ، يريد : هل ثوب الكفار ... وقد قرىء : بتُّؤثرون الحياة الدنيا ، يريد : بل تؤثرون . وقال مزاحم العقيلى :

فدع ذا ولكن هتُّعِين متيَّماً على ضوء برق آخر الليل ناصب

---

(١) سر صناعة الإعراب ٢٠٦/١

يريد : هل تعين [١] .

٦ — **التأثر المدبر الكلى فى حالة الانفصال** : من أمثلته ما يلى :

أ — كلمة : ʼemza (እምዘ) فى الحبشية ، تقابل كلمة : « مُنْذُ » العربية ، وهى فى الحبشية مركبة من : ʼem بمعنى : « مِنْ » ، و za بمعنى اسم الموصول « ذو » الطائية ، وقد « حكى عن بنى سليم : ما رأيته مِنْذُ ست بكسر الميم » [٢] . وهذا كله يدل على أن أصل (مُنْذُ) العربية : (مِنْ + ذُو) فقلبت كسرة الميم ضمة ، تأثراً بضمة الذال بعدها [٣] . ويخطىء من يرى أن الذال فى مُنْذُ « ضمت إتباعاً لحركة الميم ، ولم يعتد بالنون حاجزاً » [٤] .

ب — تطورت كسرة الميم إلى فتحة فى صيغتى اسم الآلة : مِفْعَل ومِفْعَلة ، وذلك مطرد تمام الاطراد فى لهجة الأندلس العربية فى القرن الرابع الهجرى [٥] ، إذ تتأثر حركة الميم بحركة العين ، وذلك من نوع التأثر المدبر الكلى فى حالة الانفصال ، مثل : مَقْود ، ومَسَنّ ، ومَقْنَع للثوب الذى يغطى به الرأس ، ومَطْرد للرمح الصغير ، ومَخَدّة ومَزْدغة للوسادة . وقد استمر ذلك فى القرون

---

(١) انظر : كتاب سيبويه ٤١٧/٢

(٢) انظر : لسان العرب (منذ) ٤٧/٥

(٣) إلى مثل هذا يذهب الفراء ، انظر : شرح ابن يعيش ٤٥/٨ والإنصاف فى المسألة السادسة والخمسين ، وشرح الملوكى ٤٢٥ وانظر كذلك : التطور النحوى لبرجشتراسر ٦٢

(٤) الأشباه والنظائر ٧/١ وسيبويه ٤٥/٢ وحكاه أبو حيان فى تذكرة النحاة ١٠ عن اللحيانى فى نوادره

(٥) انظر : لحن العامة والتطور اللغوى ١٩٠ — ١٩١

التالية ، فقد روى لنا ابن هشام اللخمى (المتوفى سنة ٥٧٧ هـ) أن الأندلسيين كانوا يقولون : مَصيدة ، ومَطرقة ، ومَغرفة ، ومَرود ، ومَشرط ، ومَنجل ، ومَنبر ، ومَكنسة ، ومَروحة ، ومَلعقة [١] .

وهذا هو الاتجاه العام فى تطور هاتين الصيغتين فى اللهجات العربية الحديثة ؛ ففيهما يسود التأثر المدبر كما فى الأمثلة السابقة . أما التأثر المقبل فيهما ، فلم أعثر له على مثال ، إلا فيما رواه ابن الجوزى (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) من قول العامة فى عصره : مِكْنِسة بدلًا من مَكْنَسة [٢] .

جـ — صيغة (فَعِيل) تتحول فى نطق بنى تميم باطراد ، إلى (فِعِيل) ، وإن كان اللغويون يشترطون لذلك أن يكون الحرف الثانى من حروف الحلق ؛ مثل : « لِئيم » و « نِهيق » و « بِعير » و « نِحيف » و « رِغيف » و « بِخيل » .

قال ابن جنى : « ومن ذلك تقريب الصوت من الصوت مع حروف الحلق ؛ نحو : شِعِير وبِعير ورِغيف . وسمعت الشجرىَّ غير مرة يقول : زِئير الأسد ، يريد : الزَّئير . وحكى أبو زيد عنهم : الجَنَّة لمن خاف وِعِيدَ الله [٣] » .

وقال ابن سيدة : « وفى فَعِيل لغتان : فَعِيل وفِعِيل ، إذا كان الثانى من الحروف الستة ... كسرت الفاء فى لغة تميم ؛ وذلك قولك : لِئيم ونِحيف ورِغيف وبِخيل [٤] » .

---

(١) انظر : لحن العامة والتطور اللغوى ٢٣٧ — ٢٣٨

(٢) تقويم اللسان لابن الجوزى ٤٤

(٣) الخصائص ١٤٣/٢ وانظر كذلك : المحتسب ٤١/٢ والمنصف ١٩/١

(٤) المخصص ٢١٣/١٤

لكن أبا جعفر النحاس لم يشترط هذا الشرط ، وإن كانت أمثلته لا تخرج عما ثانيه حرف حلق ، حين قال : « الرَّحِيم : هذه لغة أهل الحجاز وبنى أسد وقيس وربيعة . وبنو تميم يقولون : رِحيم ورِغيف وبِعير [١] » .

وهذه الظاهرة ممتدة فى اللهجات العامية فى العصر الحاضر ، وإن خلت بعض أمثلتها من حروف الحلق ؛ مثل : كِبير وفِطير وكِتير وشِريك . إلى جانب : بِهيم وبِعيد وشِخير وغيرها .

د — ومن الأمثلة كذلك : نطق السودانيين لكلمة : « مَنْبَر » : « بَنْبَر » [٢] .

٧ — **التأثر المدبر الجزئى فى حالة الاتصال** : من أمثلته ما يلى :

أ — فى اللهجات العربية القديمة ، تتحول الصادقبل الدال إلى زاى ، مثل : « يَزْدُق » فى : « يصْدُق » واتصال الصاد بالدال هنا ، شرط لتحقق التأثر السابق ؛ قال ابن السكيت : « والعرب تقول : ازْدُق بمعنى : اصدق ، ولا يقولون زَدَق » [٣] . ولم يعين اللغويون القبيلة التى ينتمى إليها هذا الإبدال ، وأغلب الظن أن الزاى هنا كانت مفخمة ، غير أنهم كتبوها بالزاى المرققة ، لعدم وجود رمز للزاى المفخمة فى الكتابة العربية .

وقد روى لنا هذا الإبدال كذلك فى المثل العربى : « لم يُحرم من فُزْدَ له [٤] » . ويقول ابن جنى عن هذا المثل : « أصله : فُصِدَ له ،

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١١٧/١

(٢) انظر : العربية فى السودان ، للأمين الضرير ١٠

(٣) انظر : القلب والإبدال لابن السكيت ٤٥

(٤) انظر : لحن العوام للزبيدى ١٩٤ وانظر شرحه هناك أيضاً .

ثم أُسكنت العين ... فصار تقديره : فُصْدَ له ، فلما سكنت الصاد فضَعُفَتْ به ، وجاورت الصاد وهى مهموسة ، الدال وهى مجهورة ، قُرِّبت منها بأن أُشِمَّت شيئا من لفظ الزاى المقاربة للدال بالجهر [١] » .

وقد زعم أبو الطيب اللغوى أن طيئا تقلب كل صاد ساكنة زايا ، ولم يقيدها بوقوعها قبل الدال ، فقال : « ويقال : هى المِزدغة والمِصدغة للمِخَدة ، وطيىء تقلب كل صاد ساكنة زاياً . قال الأصمعى : كان حاتم الطائى أسيراً فى عنزة ، فجاءته النساء بناقة ومِفْصَد ، وقلن له : افصد هذه الناقة ، فأخذ المفصد فلَتَم فى سبلتها ، أى نحرها وقال : هكذا فَزْدى أَنَهْ ، أى : فصدى أنا ، ثم قال :

لا أفصد الناقة من أنفها لكننى أوجرها العاليهْ

وقد قرىء : حتى يَصْدُر الرعاء ، ويَزْدُر الرعاء ، ويقال : هو كثير القَزْد لك والقَصْد لك » [٢] .

وكل هذه الأمثلة ، وقعت فيها الصاد قبل الدال مباشرة ، وهى السبب فى هذه المماثلة ، فلا يصح أن يقال كما فى هذا النص : « وطيىء تقلب كل صاد ساكنة زاياً » بل تزاد عبارة : « قبل دال » ، ولعلها ساقطة من أصل الكتاب .

ب - تتأثر النون الساكنة بالباء التالية لها ، فتقلب إلى صوت من

---

(١) الخصائص ٢/١٤٤

(٢) الإبدال ، لأبى الطيب ٢/١٢٦ - ١٢٨

مخرج الباء وهو صوت الميم ، إذ هو شفوى كالباء ، وهذا هو ما سماه علماء القراءات العرب بالإقلاب ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ من بعد ما جاءهم ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ عليم بذات الصدور ﴾ وقوله : ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ . ومثل ذلك قول عامة الناس اليوم : « مَمْبَر » فى : « مِنْبر » إلى جانب التأثر المدبر الكلى فى حركة الميم ، كما سبق أن عرفنا .

جـ - تقول العامة فى عصرنا الحاضر : « يسحف » بدلا من : « يَزْحف » [١] فقد تأثرت الزاى فى هذا المثال ، وهى صوت مجهور ، بالحاء التالية لها ، وهى صوت مهموس ، فقلبت الزاى إلى نظيرها المهموس وهو السين .

٨ - **التأثر المدبر الجزئى فى حالة الانفصال** : من أمثلته ما يلى :

أ - الصاد قبل الراء تقلب زاياً فى بعض قراءات القرآن الكريم ، مثل : « زراط » فى : « صراط » ، أو لعلها كانت تنطق مثل الظاء العامية ، إذ يقول صاحب مقدمتان فى علوم القرآن (١٤٧) : « غير أن الذى يُشم بالصاد زاياً ، يحافظ على بقاء الإطباق فى الصاد » . وهذا هو ما سبق أن ذكرناه من ترجيح أن تكون الزاى مفخمة فى مثل هذه الكلمات .

ب - روى ابن هشام اللخمى أن الناس كانوا فى الأندلس والمغرب ، فى القرن السادس الهجرى ، يقولون فى : سِرْداب ، زِرْداب [٢] .

---

(١) انظر تذكرة الكاتب لأسعد داغر ٨٥

(٢) المدخل إلى تقويم اللسان ٤٣

جـ - الناس فى مصر وبعض البلاد العربية ، يطلقون على : السَعْتْر ، زَعْتر [١] .

د - بنو أسد يقولون فى : الدِّفتْر : تِفتْر [٢] .

هـ - تميل الراء إلى تفخيم الأصوات المجاورة لها ، ومن هذا الأثر قولنا فى مصر : « طُور » فى : « تُور » المنقلبة عن : « ثَوْر » ، كما نطلق كلمة : « الضرب » على : « الدَّرب » بمعنى الطريق المسدود .

و - السين قبل الطاء تقلب صادا فى بعض قراءات القرآن ، فقد روى « عن ورش عن نافع : أم هم المصيطرون ، و : لست عليهم بمصيطر ، بإخلاص الصاد ، وروى محمد بن الجهم عن الفراء ، قال : الكتاب وخط المصحف بالصاد فى : مصيطر ، والمصيطرون ، والقراءة بالسين » [٣] .

* * *

---

(١) انظر : تهذيب الألفاظ العامية للشيخ الدسوقى ٦٦

(٢) انظر : الإبدال لأبى الطيب اللغوى ١/١٠٩

(٣) انظر : مقدمتان فى علوم القرآن ١٤٨

التَّأْثِيرُ المُتَبَادَلُ :

وهناك نوع آخر من المماثلة الصوتية ، يتم فيها التماثل على مراحل ، ويتراوح بين التأثير المقبل الجزئى ، والمدبر الكلى فى حالة الاتصال . ومن أمثلة ذلك :

(أ) تؤثر الذال من : « ذخر » فى تاء الافتعال من هذا الفعل : « اذتخر » ، فتقلبها دالا : « اذدخر » ، وهذا من نوع التأثير المقبل الجزئى فى حال الاتصال . ثم تؤثر الدال فى الذال ، فتقلبها دالا : « ادّخر » ، وهذا من نوع التأثير المدبر الكلى فى حال الاتصال . وجاء ذلك فى مثل قوله تعالى : ﴿ وأنبئكم بما تأكلون وما تَدَّخِرُون فى بيوتكم [1] ﴾ .

وقد فطن الزجاج إلى هذا ، فقال : « وإنما قيل : تَدَّخِرون ، وأصله : تذتخرون ، أى تفتعلون من الذُّخْر ؛ لأن الدال حرف مجهور ... والتاء مهموسة ، فأبدل من مخرج التاء حرف مجهور يشبه الذال فى جهرها ، وهو الدال ، فصار : تذدخرون ، ثم أدغمت الذال فى الدال ، وهذا أصل الإدغام ، أن تدغم الأول فى الثانى [2] » .

(ب) تؤثر الذال من : « ذكر » فى تاء الافتعال من هذا الفعل : « اذتكر » فتقلبها دالا : « اذدكر » ، وهذا من نوع التأثير المقبل الجزئى فى حال اتصال . ثم تؤثر الدال فى الذال ، فتقبلها دالا : « ادّكر » ، وهذا من نوع التأثير المدبر الكلى فى حال الاتصال . وجاء ذلك فى مثل قوله تعالى : ﴿ وقال الذى نَجَا منهما وادَّكَرَ بعد أُمَّة [3] ﴾ .

---

(١) آل عمران ٤٩/٣

(٢) معانى القرآن وإعرابه ٤١٩/١ وانظر : لسان العرب (ذخر) ٣٨٩/٥

(٣) يوسف ٤٥/١٢

وقد فطن إلى هذا الزجاج كذلك ، فقال : « وادَّكَرَ ، أصله : واذتكر ، ولكن التاء أبدل منها الدال ، وأدغمت الذال فى الدال [١] » .

ومن ذلك أيضا العدد : « سِتّ » فى العربية ، الأصل فيه : « سِدْس » [٢] ، بدليل العدد الترتيبى : « السادس » ، والكسر : « سُدْس » .

وقد مرت الكلمة بالتطورات التالية : تأثرت الدال المجهورة بالسين المهموسة ، فقلبت إلى النظير المهموس وهو التاء ، فصارت الكلمة : « سِتْس » ، ثم أثّرت التاء فى السين فقلبت تاء ، فصارت الكلمة : « سِتّ » . أى أن الكلمة مرت فى تطورها بالتأثير المدبر الجزئى فى حال الاتصال ، ثم بالتأثير المقبل الكلى فى حال الاتصال .

واللغة الآرامية حدث فيها ما حدث فى العربية تماما ؛ فالكلمة فيها (ܫܬ) šet . وقد تحول الأصل فى العربية الجنوبية إلى : sidt ، بالتأثير المقبل الجزئى فى حال الاتصال .

ولم يبق الأصل القديم إلا فى الحبشية ، فى صيغة العدد المؤنث : (ስድስቱ) sedsetū . أما صيغة المذكر فهى : (ስሱ) sessū التى حدثت بالمماثلة من نوع التأثير المدبر الكلى فى حال الاتصال . ومثل ذلك حدث فى الأكادية : šiššu وفى العبرية : (שֵׁשׁ) šeš .

* * *

---

(١) معانى القرآن وإعرابه ١١٣/٣

(٢) على العكس مما يراه برجشتراسر ، من أن أصلها : « سدث » . انظر : التطور النحوى ٣٢ — ٣٣ وقد ذهب اللغويون العرب إلى مثل ما ذهبنا إليه . انظر : الفاضل للمبرد ١٩ والجمل فى النحو للزجاجى ٤١٧ والخصائص لابن جنى ٤٧٢/٢

تبادل التأثير بين الحركات والصوامت

كل الأمثلة التى عرضناها من قبل ، لم نذكر فيها إلا تأثير الصامت على الصامت ، أو تأثير الحركة على الحركة . وهناك أنواع أخرى من المماثلة الصوتية ، تؤثر فيها الحركات على الصوامت ، أو تؤثر الصوامت على الحركات . وفيما يلى عرض لبعض أمثلة هذين النوعين من المماثلة :

(أ) المماثلة بتأثير الحركة على الصامت :

١ - من أمثلة هذا النوع أثر الحركات الأمامية ، كالكسرة الخالصة ، والكسرة الممالة ونحوهما ، على أصوات أقصى الحنك ، كالقاف ، والجيم ، والكاف ، ونحوها ؛ إذ يؤدى هذا التأثير إلى نوع من التوافق والانسجام بين هذه الصوامت الخلفية والحركات الأمامية ، بأن تقلب هذه الصوامت الخلفية إلى صوامت من مقدمة الفم . ويغلب على هذه الأصوات الجديدة أن تكون من الأصوات المزدوجة ، أى التى تجمع بين الشدة والرخاوة ، وهى التى تسمى باللاتينية : Affricata .

وقد اكتشف العلماء قانونا لذلك ، سموه بقانون : « الأصوات الحنكية » . وسوف نفرد له فصلا خاصا فيما بعد ، غير أننا نشير هنا إلى أمثلة هذا النوع من المماثلة بين الصوامت والحركات .

فالقاف مثلا ، تتأثر فى نطق أهل مدينة « الرياض » القدامى ، بالكسرة التالية لها ، فتقلب صوتا مزدوجا من مقدمة الفم ، مكونا من الدال والزاى (dz) ، فى مثل : « دْزِبْلة » فى « قِبْلة » ، وكذلك : « دْزِليب » فى « قِلِيب » بمعنى : « البئر » [1] .

---

(١) انظر : بحوث ومقالات فى اللغة ١٠

والجيم العربية القديمة ، كانت صوتا طبقيا شديدا مجهورا ، كما فى بقية اللغات السامية : العبرية ، والآرامية ، والحبشية ، والأكادية ، وكامتدادها فى النطق المعروف اليوم بالجيم القاهرية .

غير أن وقوع الكسرة بعدها ، أثر فيها فى مرحلة قديمة من مراحل تطور العربية القديمة ، فتحولت هذه الجيم إلى صوت مزدوج من مقدمة الفم ، ليتوافق مع الكسرة ، وهى تبدأ بدال من الغار ، وتنتهى بشين مجهورة . وقد عمم القياس اللغوى فى مرحلة تالية هذا النطق الجديد ، فى كل جيم ، طرداً للباب على وتيرة واحدة [١] .

ومثل ذلك حدث للكاف ، فى بعض اللهجات القديمة ، فى الظاهرتين المعروفتين عند القدماء بالكشكشة والكسكسة ؛ إذ تتأثر الكاف فى لغات ربيعة ومضر وبكر القديمة ، بالكسرة التى تأتى بعدها ، فتتحول إلى صوت مزدوج من مقدمة الفم ، ليتوافق مع الكسرة ؛ وهو صوت : (تْشْ) فى الكشكشة عند ربيعة ومضر ، فى مثل : « تْشِيف حالك ؟ » ، وصوت : (تْسْ) فى الكسكسة عند بكر ، فى مثل : « تْسِيف حالك ؟ » . وقد عمم القياس اللغوى هذا التطور فى اللهجات العربية الحديثة ، مع كل كاف ولو كانت مفتوحة أو مضمومة [٢] .

٢ — ومن أمثلة هذا النوع كذلك : أثر الحركات على الأصوات المعروفة فى العبرية والآرامية بأصوات : (بجد كپت) ؛ إذ تتأثر هذه الأصوات بأية حركة تتقدم عليها مباشرة ، وتقع معها فى مقطع واحد ، فتتحول

---

(١) انظر : فصول فى فقه العربية ١٤٦ — ١٤٧ والمدخل إلى علم اللغة ٥١ ؛ ٢٢١

(٢) انظر : فصول فى فقه العربية ١٤٦

لذلك من صفة الشدة إلى صفة الرخاوة ، أى أن هذه الأصوات الشديدة : (ب ج د ك پ ت) تتحول إلى مقابلاتها الرخوة ، بعد أية حركة ؛ فتصير : (ڤ غ ذ خ ف ث) . مثال ذلك فى العبرية : (כָּתַב) kāṯaḇ (كاثڤ) بمعنى : « كتب » ، ومضارعها(יִכְתֹּב) yiḵtoḇ (يِخْتُڤ) . وفى الآرامية : (ܬܰܪܒܺܝܬ݂ܳܐ) tarbīṯā (تَرْبِيثا) بمعنى : « نمو » أو « تربية » [1] .

(ب) المماثلة بتأثير الصامت على الحركة :

المعروف فى اشتقاق المضارع من الماضى ، أن تختلف حركة عين الفعل فى المضارع عنها فى الماضى ، تبعا لما يسمى عند علماء اللغة بقانون : « المغايرة » (Polarity) ؛ ولذلك يقال فى العربية مثلا : « ضَرَبَ يَضْرِب » و « نَصَر يَنْصُر » .

غير أن أصوات الحلق ، إذا وقعت فى مقطع واحد مع حركة العين ، فإننا نرى أثر هذه الأصوات الحلقية واضحا ، فى اللغات السامية ، فى تغيير حركة العين إلى فتحة ، بدلا من الضمة والكسرة . وسبب هذا التحول أن « اللسان فى نطق الحروف الحلقية ، يجذب إلى وراء ، مع بسط وتسطيح له . وهذا هو وضعه فى نطق الفتحة [2] » ؛ ومن أمثلة ذلك فى العربية : « فتح يفتح » و « ذبح يذبح » و « دمغ يدمغ » و « شدخ يشدخ » و « سأل يسأل » و « ظهر يظهر » و « زرع يزرع » و « سعل يسعل » ونحو ذلك .

---

(١) انظر : فى قواعد الساميات ١٧ ؛ ١٨٦ وقد أهمل اليهود الشرقيون تغيير نطق (ج د ت) فى العبرية الحديثة !

(٢) التطور النحوى لبرجشتراسر ٦٣

وقد حدث ذلك أول ما حدث فى المضارع المجزوم ، وفيه تقع الحركة مع حرف الحلق فى نفس المقطع . أما المضارع المرفوع والمنصوب ، فقد قيس على المجزوم ، طردا للباب على وتيرة واحدة ، كما سيأتى ذلك فى باب القياس .

قال ابن السكيت : « وما كان ماضيه على فَعَل ، مفتوح العين ، فإن مستقبله يأتى بالضم أو بالكسر ، نحو : ضرب يضرب ، وقتل يقتل . ولا يأتى مستقبله بالفتح إلا أن تكون لام الفعل أو عين الفعل أحد الحروف الستة ، وهى حروف الحلق : الخاء ، والغين ، والعين ، والحاء ، والهاء ، والهمزة [١] » .

وقال ابن جنى : « فَعَل يَفْعَل ، مما عينه أو لامه حرف حلقى ، نحو : سأل يسأل ، وقرأ يقرأ ... وذلك أنهم ضارعوا بفتحة العين فى المضارع جنس حرف الحلق ؛ لما كان موضعاً منه مخرجُ الألف التى منها الفتحة [٢] » .

* * *

ونختم عرضنا لموضوع « المماثلة » بالحديث عن موقف اللغويين العرب ، من استخدام الأصل القديم ، الذى تغير بفعل هذا القانون . وقد أدت قراءتنا للتراث العربى ، واستقراء أقوال اللغويين العرب ، إلى تصنيف هذا الأصل على ثلاثة أقسام :

١ — الأصل أجود من الصورة التى نتجت بفعل قانون المماثلة ؛ وذلك كقلب الصاد سينا ، بسبب المماثلة بينها وبين الحروف المستعلية . وقد ضرب ابن سيدة لذلك بعض الأمثلة ؛ نحو : « صقت » و « صبقت » و « صاطع » فى : « سُقْت » و « سَبَقْت » و « ساطع » [٣] .

---

(١) إصلاح النطق ٢١٧

(٢) الخصائص ١٤٣/٢

(٣) المخصص ٢٧٢/١٣ — ٢٧٣

ويرى المبرد أنها تُقلب صاداً وجوبا فى حال الاتصال ، أما فى حال الانفصال ، فيجوز القلب وتركه أجود ؛ يقول : « هذا باب ما تقلب فيه السين صاداً ، وتركها على لفظها أجود ، وذلك لأنها الأصل ، وإنما تقلب للتقريب مما بعدها ؛ فإذا لقيها حرف من الحروف المستعلية ، قلبت معه ليكون تناولهما من وجه واحد . والحروف المستعلية : الصاد والضاد والطاء والظاء والخاء والغين والقاف ... فإن كانت السين مع حرف من هذه الحروف فى كلمة جاز قلبها صادا ، وكلما قرب منها كان أوجب . ويجوز القلب على التراخى بينهما ، وكلما تراخى فترك القلب أجود ، وذلك قولك : سطر وصطر ، وسَقَر وصقر [١] » .

٢ – الأصل مستعمل على ما فيه من عنت ومشقة ؛ وذلك كإبدال النون ميما قبل الباء ، فى مثل : عَنْبر ، وشَنْباء ، ومِنْبَر ، التى تتحول بالمماثلة إلى : عمبر ، وشمباء ، وممبر . ويرى السيرافى أن الأصل إذا استخدم كانت فيه مشقة ، فيقول : « ولو تكلف المتكلم إخراجها من الفم ، وبعدها الباء ، لأمكن على مشقة وبعلاج [٢] » .

وإن كان ابن الحاجب يرى أن المماثلة هنا لازمة ، وشرح ذلك الرضى فقال : « قوله : ومن النون لازم . ضابطه كل نون ساكنة قبل الباء ، فى كلمة كعنبر ، أو كلمتين نحو : سميعٌ بصير . وذلك أنه يتعسر التصريح بالنون الساكنة قبل الباء [٣] » .

---

(١) المقتضب ٢٢٥/١

(٢) شرح كتاب سيبويه ٤٤٤/٦

(٣) شرح الشافية ٢١٦/٣

٣ - الأصل لم يتكلم به عربى البتة ، وذلك كإبدال تاء الافتعال طاء ، إذا كانت الفاء صاداً أو ضاداً أو طاء أو ظاء ؛ إذ يرى اللغويون العرب أن الأصل الذى فيه التاء ، لم يستعمل فى هذه الحالة مطلقا ؛ يقول المازنى : « هذا باب ما تقلب فيه تاء افتعل عن أصلها ، ولا يتكلم بها على الأصل البتة ... وذلك أنك إذا قلت : افتعل ، وما تصرف منه ، وكانت الفاء صادا أو ضادا أو طاء أو ظاء ، فالتاء فيه مبدلة ، وذلك قولك : اصطبر [١] » .

ويشرح ذلك ابن جنى ، فيقول : « قال أبو الفتح : يقول : لا يقال فى اصطبر : اصتبر ، ولا فى اضطرب : اضترب ، ونحو ذلك ، وإن كان هذا هو الأصل ... وفى كلامهم من الأصول المرفوضة الاستعمال ما لا يحصى كثرة [٢] » .

كما يقول ابن جنى أيضا : « ومما لا يراجع من الأصول : باب افتعل ، إذا كانت فاؤه صادا أو ضادا أو طاء أو ظاء ، فإن تاءه تبدل طاء ؛ نحو : اصطبر ، واضطرب ، واطرد ، واظطلم [٣] » .

* * *

(١) المنصف ٢/٣٢٤

(٢) المنصف ٢/٣٢٤

(٣) الخصائص ٢/٢٤٩

(ب) قانونُ المُخَالَفَةِ (Dissimilation)

هناك قانون صوتى آخر ، يسير فى عكس اتجاه قانون المماثلة ، وهو ما يعرف عند علماء الأصوات باسم : « قانون المخالفة » ؛ فقد عرفنا أن قانون المماثلة ، يحاول التقريب بين أصوات بينها بعض المخالفات ، أما قانون المخالفة ، فإنه يعمد إلى صوتين متماثلين تماماً فى كلمة من الكلمات ، فيغير أحدهما إلى صوت آخر ، يغلب أن يكون من أصوات العلة الطويلة ، أو من الأصوات المتوسطة أو المائعة ، المعروفة فى اللاتينية باسم : Liquida وهى : اللام والميم والنون والراء .

ويقول ڤندريس : « ينحصر التخالف ، وهو المسلك المضاد للتشابه ، فى أن يعمل المتكلم حركة نطقية مرة واحدة ، وكان من حقها أن تعمل مرتين ، فمن الكلمة اللاتينية arborem (أَرْبُورِم) بمعنى : شجرة ، نشأت الكلمتان : الأسبانية arbol (أربُل) والبروفنسية albre (ألبْرْ) ، فالذى حدث فى كلتا الحالتين ، مع اختلاف الترتيب — هو أن المتكلم اقتصر على القيام بحركة واحدة فقط من الحركات ، التى يتطلبها إنتاج الراء (r) بدلا من أن يقوم بحركتين ، واستعاض عن الأخرى ، بحركة من الحركات التى تنتج اللام المائعة » [١] .

ومثال المخالفة بين السامية والعربية ، كلمة : « شمس » فهى فى السامية الأولى : « شمش » كما فى الأكادية والعبرية والآرامية ، والمعروف لدى علماء الساميات أن الشين فى السامية الأم ، قلبت فى العربية « سيناً » ، وهذا من التغييرات التاريخية التى سبق أن تحدثنا عنها من قبل ، ومقتضى

---

(١) اللغة لڤندريس ٩٤

ذلك أن تصير الكلمة فى العربية : « سمس » ، غير أن المخالفة بين السينين ، أدت إلى قلب الأولى شيناً .

وكذلك كلمتا : « سنبلة » و « قنفذ » حدثتا فى العربية ، بطريق المخالفة الصوتية من كلمتين كانت الباء فيهما مشددة ، « فسنبلة يوافقها فى العبرية : šibbōlet (שִׁבֹּלֶת) وقنفذ يوافقه فى العبرية : kippōd (קִפּוֹד) »[١] .

وكذلك كلمة : « أنبا » فى كلام المسيحيين ؛ بمعنى : الأب الروحى أو المرشد ، نتجت بالمخالفة الصوتية من الكلمة السريانية : (ܐܰܒܳܐ) abbā[٢] . وكذلك كلمة : (ሰንበት) sanbat فى الحبشية ، بمعنى : يوم « السبت » جاء بالمخالفة الصوتية من الكلمة السامية القديمة (שַׁבָּת) šabbāt .

ومثال ذلك فى العربية : « قيراط » و « دينار » بدلا من « قرّاط » و « دنّار » بدليل الجمع : « قراريط » و « دنانير » ، و « أملل » و « أملى[٣] » (وفى القرآن الكريم : وليملل الذى عليه الحق — البقرة ٢٨٢/٢) . ومثاله كذلك كلمة : « العُنقود » ، التى يبدو أن أصلها : « العُقُّود » ، بتشديد القاف ؛ ففى « العُنقود » نوع من التعقد ، كما ترى !

وكان الناس فى القرن الثانى الهجرى فى العراق يقولون فى : « إجّاص » للكمثرى : « إنجاص » ، وفى : « أُترجّ » : « أترنج » ، وفى : « إجانة » : « إنجانة » ؛ فقد ذكر الكسائى (المتوفى سنة ١٨٩ هـ) أن الناس كانوا فى

---

(١) دروس فى علم أصوات العربية لكانتينو ٤٦ وانظر فى الآرامية كذلك (ܥܠܥܐ ، ܐܠܥܐ) = ضلع .

(٢) انظر : غرائب اللغة العربية ١٧٣ ــــ

(٣) ومثله : « ديماس » و « أيما » بدلا من : أمّا . انظر : المحتسب ٢٨٣/١ — ٢٨٤

عصره يزيدون النون فى هذه الكلمات فقال : « ويقال : أترجّ وإجّانة وإجّاص . هذه الأحرف بإسقاط النون » [١] .

كما كان أهل الأندلس فى القرن الرابع الهجرى يقولون : « كرناسة » فى : « كراسة » ، كما كانوا يطلقون على الأسد كلمة : « عَدَنْبَس » بدلا من الكلمة القديمة : « عَدَبَّس » وكانوا يقولون : « تقعور » بدلا من الفعل : « تقعّر » [٢] .

كما روى أبو منصور الجواليقى (المتوفى سنة ٥٣٩ هـ) عن عوام عصره أنهم كانوا يقولون : « مِنْطر » فى : « مِمْطر » ، كما كانوا يقولون : « خرْمَش » فى : « خَمّش » [٣] .

والكلمة الأخيرة يستعملها بعض العامة اليوم مع القلب المكانى ، فيقولون : « خرشم » . ومثل ذلك فى كلامهم كلمة : « لخبط » ، التى حدث فيها قلب مكانى من : « خلبط » التى نتجت بطريق المخالفة الصوتية من الفعل القديم : « خلّط » .

كما تقول العامة فى عصرنا الحاضر : « قرنبيط » فى « قَنّبيط » ، و « مهردم » فى : « مهدّم [٤] » و« فرتك » [٥] فى « فرّك » و « شرمط » فى : « شرّط » و « نعكش » فى : « نكّش » و « دعبل » فى : « دبّل » و « طربق » فى : « طبّق » مع ملاحظة إبدال القاف همزة فى هذا المثال .

---

(١) انظر : ما تلحن فيه العامة للكسائى ١١٦ وانظر كذلك : إصلاح المنطق ١٧٦

(٢) انظر : لحن العوام للزبيدى ٣٥ ؛ ١٦١ ؛ ٢٦٤

(٣) انظر : تكملة ما تلحن فيه العامة للجواليقى ١٣٤ ؛ ١٣٩

(٤) انظر : أصول الكلمات العامية لحسن توفيق العدل ٣٩

(٥) رواها صاحب القاموس (فرك) ٣/٣١٥ على أنها من الفصيح ، فقال : « فرتكه : قطّعه مثل الذَّرّ » . وانظر : تهذيب الألفاظ العامية ١/١٠٩

وكذلك « ضرفة » الباب ، بدلا من : « دفّة » وقد فخمت الدال بتأثير الراء كما سبق أن ذكرنا ذلك . كما يقولون : « كعبل » بدلا من : « كبّل [1] » . ويقولون كذلك : « سَنْكر » الباب ، بدلا من : « سَكّر » المستعارة من الآرامية : (ܣܟܪ) [2] . وفى العراق يقول العوام : « دَنْبوس » فى « دَبّوس » .

وقد حكى ابن هشام اللخمى (المتوفى سنة ٥٧٧ هـ) بعض الأمثلة ، التى يمكن أن تفسر بقانون المخالفة ، عن طريق إبدال أحد المتماثلين حرف مد ، مثل : « عايرت الموازين » فى : « عيّرت » و « عوش الطائر » فى « عشّ » و « مصافُهم » فى : « مصفُّهم » و « ضارة المرأة » فى : « ضَرّة » و « مُوخ » فى : « مخّ » [3] . ومثل ذلك ما حكاه ابن السكيت عن العرب أنهم يقولون : « الذمّ » و « الذام » للعيب [4] .

ولعلنا بقانون المخالفة ، نستطيع أن نفسر ذلك الإبدال الظاهرى فى كلمتى : « زُحْلُوفة » و « زُحْلُوقة » ، فى قول الأصمعى : « الزحاليف والزحاليق : آثار تزلّج الصبيان من فوق طين أو رمل أو صفاً ، فأهل العالية يقولون : زحلوفة وزحاليف ، وبنو تميم ومن يليهم من هوازن ، يقولون : زحلوقة وزحاليق » [5] . فالظاهر أن الكلمة الأولى : « زحلوفة » مأخوذة من الفعل : « زحلف » ، الناتج بطريق المخالفة الصوتية ، من « زَحّف » ، كما أن الكلمة الثانية : « زُحلوقة » مأخوذة من الفعل : « زحلق » ، الناتج بطريق المخالفة

---

(١) انظر : المحكم فى أصول الكلمات العامية للدكتور أحمد عيسى ٨٣ ؛ ١٨٨

(٢) انظر : فصول فى فقه العربية ٣٣١

(٣) انظر : المدخل إلى تقويم اللسان ٤٢ ؛ ٥٤ ؛ ٦٠ ؛ ٦٢ ؛ ٦٣

(٤) القلب والإبدال لابن السكيت ٢٦

(٥) الإبدال لأبى الطيب ٣٣٧/٢ وانظر : المزهر للسيوطى ٥٥٤/١ ولسان العرب (زحلف) ٣١/١١ والقلب والإبدال لابن السكيت ٦٤

الصوتية كذلك من الفعل : « زلَق » ، فانظر إلى اختلاف الأصول وتشابه الفروع الجديدة !

هذا ، وربما خطر على الذهن ، أن إحدى هاتين الكلمتين ليست إلا تصحيفا للأخرى ، وهو تصور كان من الممكن التوقف أمامه ، لولا ورود الكلمتين فى أشعار قديمة ، وهما فى القافية مع أبيات أخرى تقطع الطريق على أى تصور للتصحيف والتحريف [١] .

فقد أورد ابن منظور الكلمتين ، كل واحدة منهما فى مادتها ، واستدل عليهما بالشواهد التى نجدها فى دواوين الشعراء المنسوبة إليهم ؛ فقال فى مادة (زحْلف) ١١/٣١ : « وقال ابن الأعرابى : الزُّحلوفة : مكان منحدر مملّس ، لأنهم يتزحلفون عليه . وأنشد لأوس بن حجر :

يقلِّب قَيْدُوداً كأنّ سَرَاتَها ... صَفا مُدْهُن قد زحلفته الزَّحالفُ [٢]

وقال مزاحم العقيلى :

بَشَامًا وَنبْعاً ثم مَلْقَى سِبَالِهِ ... ثِمادٌ وأوشالٌ حَمَتْهَا الزَّحالفُ [٣]

ويقال للشمس إذا مالت للمغيب : قد تزحلفت . قال العجاج :

والشمسُ قد كـادت تكونُ دَنَفا
أَدْفَـعُها بالـرَّاحِ كى تَـزَحْلَـفَا

كما قال فى مادة (زحلق) ١٢/٣ : « وتزحلقوا على المكان : تزلَّقُوا عليه بأستاههم . والمزحلق : الأملس . الجوهرى : الزحاليق لغة فى الزحاليف ،

---

(١) انظر كذلك : من أسرار اللغة ٦٧ - ٦٨

(٢) انظر ديوانه ق ٢٨/٣٠ ص ٦٧

(٣) انظر ديوانه ق ١٧/١٥ ص ٣٩

الواحدة زحلوقة . قال عامر بن مالك ملاعب الأسنة :

لما رأيت ضِراراً فى مُلَمْلَمَةٍ كأنما حافَاتها حافَتَا نِيقِ
يَمَّمْتُه الرمحَ شَزْراً ثم قلتُ له هذى المروءةُ لا لِعْبُ الزحاليقِ

والزحلقة كالدحرجة . وقد تزحلق . قال رؤبة :

لما رأيت الشَّرَّ قد تألَّقا
من خَرَّ فى طَخْطاخِهِ تَزَحْلَقا [١]

※

وليس من اللازم فى المخالفة الصوتية أن يكون الصوتان متجاورين ، فكلمة : « عنوان » تنطق فى بعض اللهجات عندنا : « علوان » ، وكلمة : « لعلّ » فيها عشر لغات مشهورة [٢] ، ومن هذه اللغات : « لعنّ » وهى أثر من آثار قانون المخالفة .

وقد فطن قدماء اللغويين العرب لهذه الظاهرة ، وكانوا يعبرون عنها أحيانا « بكراهية التضعيف » أو « كراهية اجتماع حرفين من جنس واحد » أو « اجتماع الأمثال مكروه » [٣] أو « استثقلوا اجتماع المِثْلين » وغير ذلك ، فقد عقد سيبويه لذلك بابا فى كتابه بعنوان : « هذا باب ما شذ فأبدل مكان اللام الياء ، لكراهية التضعيف ، وليس بمطرد » [٤] .

ويسميها الخليل بن أحمد : الاختلاف ، فيما روى عنه الأزهرى فى

---

(١) انظر ديوانه ق ٢٦٨/٤١ ؛ ٢٧١ ص ١١٥
(٢) شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ٢٧١/١
(٣) شرح الملوكى لابن يعيش ٤٥١
(٤) كتاب سيبويه ٤٠١/٢ وانظر كذلك : الزاهر ١٩٧/١ ومعانى القرآن للفراء ٢٦٧/٣ والخصائص ٩٠/٢ ؛ ٢٣١/٢

قوله [١] : « وأما مهما ، فإن النحويين زعموا أن أصل مهما : ماما ، ولكن أبدلوا من الألف الأولى هاء ، ليختلف اللفظ » . وقد اختلفت الرواية عن الخليل فى هذه النقطة عند السيوطى ، الذى يقول : « وقال الخليل : أصل مهما الشرطية : ماما ، قلبوا الأولى هاء ؛ لاستقباح التكرير [٢] » .

وقال أبو عكرمة الضبيى : « أنشدنى أبو العالية لبعض بنى أسد :

إذا برِحَت فنقعٌ مستكفّ　　وإن تُقنى فسلّغْدٌ عذُوم

تقنى : صارت فى قنان من الأرض ، وهى إكام ذات حجارة ، الواحد : قُنّة ، وكان الأصل : تُقْنن ، فأبدل النون الأخيرة ياء ، كراهة لاجتماع حرفين من جنس واحد ، كما قالوا : تظنّيت ، والأصل : تظنّنت ، وكقول العجاج :

تقضِّيَ البازى إذا البازى كسر

أراد : تقضض ، ولهذا أمثال كثيرة » [٣] .

ومن دعاء محارب بن دثار السدوسى : « أنا الصغير الذى ربّيته ، فلك الحمد ، والغائب الذى ردَّيته ، فلك الحمد » [٤] ، بدلا من : رددته !

وجاء فى لسان العرب : « وخبخبوا : أبردوا . وأصله : خَبِّبُوا ، بثلاث باءات ، أبدلوا من الباء الوسطى خاء ، للفرق بين فعَّل وفعلل ، وإنما زادوا الخاء من سائر الحروف ، لأن فى الكلمة خاء . وهذه علة جميع ما يشبهه

---

(١) تهذيب اللغة ٣٨٤/٥ والنص ليس فى أصل « العين » المطبوع (٣٥٨/٣) فزاده المحققان عن تهذيب اللغة

(٢) الأشباه والنظائر ١٨/١

(٣) الأمثال لأبى عكرمة ٨٤ - ٨٥

(٤) خلاصة تذهيب الكمال ٣٣٩

من الكلمات » [١] . وجاء فيه كذلك : « ومن العرب من يقلب أحد الحرفين المدغمين ياء ، فيقول فى مَرّ : مَيْر ، وفى زِرّ : زِير ، وفى رِزّ : ريز » [٢] . وفيه أيضا : « ومن العرب من يقول : حَنْظ ، وليس ذلك بمقصود ، إنما هو غنة تلحقهم فى المشدد ، بدليل أن هؤلاء إذا جمعوا قالوا : حظوظ . قال الأزهرى : وناس من أهل حمص يقولون : حنْظ ، فإذا جمعوا رجعوا إلى الحظوظ وتلك النون عندهم غنة ، ولكنهم يجعلونها أصلية ، وإنما يجىء هذا اللفظ على ألسنتهم فى المشدّد ، نحو الرُّزّ ، يقولون : رُنْز » [٣] .

ومن قواعد الصرفيين فى العربية ، أن الواو تقلب همزة ، إذا تصدرت قبل واو متحركة مطلقا ، أو ساكنة متأصلة الواوية ، نحو : « أواصل » و « أواق » ، فإن الأصل فيها : « وواصل » وكذلك : « وواق » لأنهما جمعان لكلمتى : « واصلة » و « واقية » ، ففاء كل منهما واو ، ويجرى مثل ذلك فى أنثى : « الأول » وجمعها ، فإن الأصل فيهما أن يكونا : « وُولى » و « وُوَل » ولكنهما فى العربية : « أُولى » و « أُوَل » ، وليس ذلك كله إلا أثراً من آثار قانون المخالفة .

والسبب فى المخالفة من الناحية الصوتية ، هو أن الصوتين المتماثلين يحتاجان إلى جهد عضلى ، فى النطق بهما فى كلمة واحدة ، ولتيسير هذا المجهود العضلى ، يقلب أحد الصوتين صوتاً آخر ، من تلك الأصوات التى لا تتطلب مجهوداً عضليا . كاللام والميم والنون .

ويرى « برجشتراسر » أن العلة فى التخالف « نفسية محضة » ، نظيره

---

(١) لسان العرب (خبب) ١/٣٣٣

(٢) لسان العرب (زور) ٥/٤٢٥

(٣) لسان العرب (حظظ) ٩/٣١٩

الخطأ فى النطق ، فإنّا نرى الناس كثيرا ما يخطئون فى النطق ، ويلفظون ، بشيء غير الذى أرادوه ، وأكثر ما يكون هذا إذا تتابعت حروف شبيهة بعضها ببعض ؛ لأن النفس يوجد فيها – قبل النطق بكلمة – تصورات الحركات اللازمة على ترتيبها ، ويصعب عليها إعادة تصور بعينه ، بعد حصوله بمدة قصيرة ، ومن هنا ينشأ الخطأ ، إذا أسرع الإنسان فى نطق جملة محتوية على كلمات ، تتكرر وتتتابع فيها حروف متشابهة »[1] . وذلك مثل الخاءات فى عبارة مثل : « خميس خبز خمس خبزات ، هات من خبيز خميس خبزتين » !! والحاءات والخاءات فى عبارة مثل : « خيط حرير على حيط خليل » . ومثل ذلك أيضا الكافات والشينات فى عبارة : « كريم الكركشندى دبح كبش وعمل على كرش الكبش كشك . ياما احلى كشك كرش كبش كريم الكركشندى » !!

* * *

ومن المخالفة الصوتية المؤثرة فى العربية كذلك : المخالفة بين حركتى الفتح المتتاليتين إذا كانت الأولى منهما طويلة ؛ إذ تتحول الثانية منهما فى هذه الحالة إلى كسرة فالأصل فى نون المثنى هو الفتح ، وفتحها لغة كما يقول ابن مالك فى تسهيل الفوائد (ص ١٢) . وقال فى شرحه (٦٥/١) : « ومثال فتح نون المثنى قول حميد بن ثور :

على أَحْوذِيَّيْنَ استقلت عشيَّةً فما هى إلا لمحةٌ وتغيبُ

أنشده الفراء بالفتح ، وليس موضع ضرورة » .

غير أن نون المثنى ، قد كسرت فى الفصحى ، تبعا لهذا القانون ، بدليل أنها لا تزال مفتوحة فى نظيرتها فى جمع المذكر ، وبدليل بعض الأمثلة

---

(١) التطور النحوى ٣٤

التى بقيت على الأصل القديم ، وهى ما نسميه نحن بالركام اللغوى ، مثل : « شتّان » فى مثل قولهم : « شتّان أخوك وأبوك » ، أى هما متفرقان ، فهو تثنيه « شتّ » ، والشت : المتفرّق (١) .

وهناك أمثلة كثيرة من الركام اللغوى بفتح نون المثنى ، فى أشعار العرب ، منها قول حميد بن ثور السابق ، وقول رجل من ضبة :

أعرف منها الأنف والعينانا
ومنخرانَ أشبها ظبيانا (٢)

ومن لم يقنعه هذا المثال ، فلينظر فى نون التوكيد المشددة ، وهى مفتوحة - كما نعرف - فى : « يضربَنَّ » و « تضربَنّ » وما إلى ذلك ، غير أنها مكسورة فى مثل : « يضربانِّ » بسبب المخالفة المذكورة .

وهذه النون التى تسمى بنون الرفع ، فى الأفعال الخمسة ، هى مفتوحة فى : يفعلونَ وتفعلونَ وتفعلينَ ، ولكنها مكسورة فى : يفعلانِ وتفعلانِ ، بسبب هذا القانون نفسه .

بل إن نصب جمع المؤنث بالكسرة ، ليفسر كذلك بهذا القانون ، أى أن الأصل هو نصب هذا الجمع بالفتحة (٣) ، بدليل ما رواه الكوفيون عن العرب من قولهم : سمعت لُغاتَهم ، وقول الرياشى : سمعت بعض العرب يقول : أخذت إراتَهم (٤) . وفى أمثال العرب : استأصل الله عِرْقاتَهم (٥) .

---

(١) لسان العرب (شتت) ٣٥٥/٢

(٢) النوادر فى اللغة لأبى زيد ١٥

(٣) انظر كذلك : العربية الفصحى لهنرى فليش ٤٨

(٤) منهج السالك لأبى حيان ١١ وانظر كذلك : الخصائص ٣٨٤/١ ؛ ٣٠٤/٣ وشرح الملوكى ١٩٠

(٥) مجمع الأمثال للميدانى ٤١/١ والعين للخليل ١٧٤/١ والمحيط للصاحب بن عباد ١٦١/١ ، وانظر : تهذيب اللغة ٢٢٧/١

وروى الخليل بن أحمد قولهم : رأيت بناتَكَ ، بالفتح لخفته على اللسان [١] . كل ذلك مروى عن العرب ، غير أن أثر هذا القانون ، هو الذى أدى إلى تخالف الفتحة إلى كسرة ، فيما نعتقد .

ومن المخالفة الصوتية كذلك ، ما يسمى بالمخالفة الكمية بين المقاطع الصوتية ومن أمثلة ذلك ما يحدث لحركة ضمير المفرد الغائب ، فى العربية الفصحى ، فالأصل فى هذه الحركة ، هو الضمة الطويلة ، وتحدث له المماثلة الصوتية مع الكسرات قبله ، كما عرفنا من قبل ، وتحتفظ العربية الفصحى بالطول فى حركته ، بعد المقاطع القصيرة [٢] ، مثل : له = لهو ؛ وبه = بهى .. وغير ذلك . كما تقصر حركته فى العربية ، بعد المقاطع الطويلة ، عن طريق المخالفة الكمية بين المقاطع ، فيقال مثلا : « فيه » بدلا من : « فيهى » ؛ و« منه » بدلا من : « منهو » وغير ذلك [٣] .

ويمكن عن طريق « قانون المخالفة » تفسير ورود كلمتين فى العربية الفصحى بمعنى واحد ، وأصواتهما متفقة فيما عدا الصوت الأول منهما ؛ مثل « أمغرت الشاة وأنغرت [٤] » إذا احمر لبنها ، ومثل : « مأر » و « نأر [٥] » بمعنى : (أفسد) ، و « مذع » و « نذع [٦] » بمعنى (سال) .

وقد شرح الدكتور أحمد هريدى طريق المخالفة هنا بقوله : « التخالف بالإبدال لا يكون فى الصوت الأول من الكلمة مطلقا . وإذا ما وجدنا بعض

---

(١) العين للخليل بن أحمد ١/١٧٤

(٢) انظر : التطور النحوى للغة العربية ٦٧

(٣) شذ على هذا قراءة ابن كثير وحفص فى قوله تعالى : ﴿ ويَخْلُد فيه مهانا ﴾ [الفرقان ٢٥/٦٩] إذ قرأ الاثنان : « فيهى مهانا » بصلة الهاء بياء هنا خاصة . انظر : التيسير للدانى ١٦٤

(٤) انظر : الصحاح (مغر) ٢/٨١٩ (نغر) ٢/٨٣٣

(٥) انظر : الصحاح (مأر) ٢/٨١١ والقاموس (نأر) ٢/١٣٧

(٦) انظر : القاموس (مذع) ٣/٨٤ (نذع) ٣/٨٧

الكلمات التى اتفقت فى أصواتها ، عدا الصوت الأول ، واحتفظت بمعنى مشترك ، فإننا لابد أن نفترض أن التغير حدث فى إحدى الصيغ المشتقة ، أعنى أن صوتا كان موجودا ، فى حالة من الحالات سابقا ، فى صورة مورفيم صرفى ، وأنه بسبب هذا المورفيم الصرفى ، حدث التخالف ، حيث اجتمع صوتان مثلان ، ثم بعد ذلك تم الاشتقاق من الكلمة الجديدة ، على توهم الأصالة فى أصواتها ، ثم اطرد القياس [1] » .

وهذه فكرة جيدة جدا ، تفسر لنا ما سبق أن قلناه ، من اتفاق كلمتين فى أصواتهما ، ما عدا الصوت الأول منهما ؛ إذ نجده فى واحدة منهما مثلا : (ميما) ، وفى الأخرى : (نونا) ، على فرض أن الكلمة التى فى أول أصولها ميم ، جاءت على وزن اسم المفعول من الثلاثى أو الرباعى ، أو اسم الفاعل من الرباعى ، فتوالى ميمان ، وحينئذ تحدث المخالفة ، بإبدال الميم الثانية نونا . ففى المثال الذى ذكرناه من قبل ، يقال مثلا : « أمغرت الشاة : إذا أحمر لبنها ، فهى ممغر » ، ثم تخالف الميم الثانية إلى نون ، فتنتج فى اللغة كلمة : « منغر » ثم يشتق منها ماض جديد ، وهو : « أنغرت الشاة » . ويقال فى اللغة : شاة مِنْغار ، مثل : مِمْغار .

* * *

وليست المخالفة هى الطريق الوحيد فى اللغات ، للفرار من ثقل اجتماع الأصوات المتماثلة أو المتقاربة فى الكلمة ؛ فقد تنشئ اللغة فاصلا بين الصوتين ، يخفف من ثقل اجتماعهما ، كما هو الحال فى زيادة الألف بعد همزة الاستفهام والهمزة التالية لها ، فيما روى لنا عن بعض العرب ، فى مثل : « أأنت » التى ينطقها هؤلاء العرب : « آأنت » . وقد عزا سيبويه

---

(١) ظاهرة المخالفة الصوتية ودورها فى نمو المعجم العربى ص ٤٣

هذه الظاهرة إلى تميم ، قال : « ومن العرب ناس يدخلون بين ألف الاستفهام وبين الهمزة ألفا إذا التقتا ؛ وذلك أنهم كرهوا التقاء همزين ففصلوا ، كما قالوا : اخشينانِّ ، ففصلوا بالألف ؛ كراهية التقاء هذه الحروف المضاعفة . قال ذو الرمة :

فياظبيةَ الوَعْساءِ بين جُلاجِل وبين النَّقا آأنت أمْ أمُّ سالِمِ

هؤلاء أهل التحقيق . وأما أهل الحجاز فمنهم من يقول : آإنك ، وآأنت ، وهى التى يختار أبو عمرو ؛ وذلك أنهم يخففون الهمزة ، كما يحقق بنو تميم فى اجتماع الهمزتين ، فكرهوا التقاء الهمزة والذى هو بين بين ، فأدخلوا الألف ، كما أدخلته بنو تميم فى التحقيق . ومنهم مَنْ يقول إن بنى تميم الذين يدخلون بين الهمزة وألف الاستفهام ألفا . وأما الذين لا يخففون الهمزة ، فيحققونهما جميعا ، ولا يدخلون بينهما ألفا [1] » .

وقد شرح ابن يعيش هذا الكلام ولخصه فقال : « ثم بعد دخول ألف الفصل : منهم من يحقق الهمزتين ، وهم بنو تميم ، ومنهم من يخفف الثانية ، وهم أهل الحجاز . وهو اختيار أبى عمرو ؛ فمن حقق فإنما المراد الفرار من التقاء الهمزتين ، وقد حصل ذلك بالألف . ومن خفف فلأن الثانية بين بين ، وهى فى نية الهمزة ؛ فكرهوا ألّا يدخلوا الألف بينهما ، لأن همزة بين بين همزة فى النية [2] » .

وعلى هذا النحو من الفصل بين الهمزتين ، قرأ « هشام بن عمار [3] »

---

(١) الكتاب ١٦٨/٢

(٢) شرح المفصل لابن يعيش ١٢٠/٩

(٣) هو هشام بن عمار بن نصير بن ميسرة أبو الوليد السلمى الدمشقى . توفى سنة ٢٤٥ هـ . انظر ترجمته فى غاية النهاية ٣٥٤/٢ - ٣٥٦

وبعض القراء ، فى معظم المواضع التى يلتقى فيها همزتان متحركتان ، على هذا النحو فى القرآن الكريم ؛ مثل : أاَنذرتهم ، أاَنتم ، أاَسلمتم ، أاَقررتم ، أاَنت ، أاَرباب ، أاَسجد ، أاَشكر ، أاَتخذ ، أاَشفقتم ، أاَلد ، أاَمنتم ، أإنكم ، أإن لنا ، أإله ، أإنا ، أإنك ، أإفكا ، أإذا ، أأُنبئكم ، أأُنزل ، أأُلقى [١] .

وهذا النوع من الفاصل بين المتماثلين مجتلب ، وهو فى الحقيقة عبارة عن تطويل حركة الهمزة الأولى ، لتحصل المخالفة الكمية فى حركات المقاطع المتجاورة .

وهناك نوع آخر من الفاصل غير مجتلب ، وإنما هو قديم فى بناء الكلمة ، ولكن التطور اللغوى لأبنية العربية ، تسبب فى اختفائه من هذه الأبنية ، ثم نراه يعود للظهور مرة أخرى ليفصل بين المتماثلين .

ومن ذلك المثال : « اخشينانِّ » الذى ذكره سيبويه فى النص السابق ؛ إذ يذكر النحاة العرب أنه عند توكيد الفعل المسند إلى نون النسوة ، تزيد اللغة العربية فيه ألف مدٍّ بين نون النسوة ونون التوكيد ، وهذه الألف يسميها الصرفيون : « الألف الفارقة » . ولم أعثر لهذه الظاهرة على شاهد إلا قول أبى المهدى الأعرابى ، يخاطب الجنيات ، وكان به عارض : «اخسأنان عنى » [٢] .

---

(١) انظر : إعراب القرآن للنحاس ١٨٥/١ والبحر المحيط ٤٧/١ والنشر ٤٨٢/١ والبيان فى غريب إعراب القرآن ٥١/١ والسبعة لابن مجاهد ٣٥٧ والإيضاح لأبى على الفارسى ٣٢٣ والمقتصد للجرجانى ١١٣٣/٢ والمقتضب للمبرد ١٦٣/١ ؛ ٢٣/٣ وشرح شواهد الشافية ٣٤٧/٤ وشرح ابن يعيش للمفصل ١٢٠/٩

(٢) انظر : طبقات النحويين واللغويين ٣٨ ومجالس العلماء للزجاجى ٤ وإنباه الرواة ٤ /١٧٧ والمحتسب ٢٩٧/١

والحقيقة أن هذه الألف ، أو لنقل الفتحة الطويلة بعد نون النسوة ، قديمة فى أصل اللغات السامية ، وقد بقيت فى العبرية فى مثل : (תִּקְטֹלְנָה) tiķṭolnā « تقتلن » ، كما تعود للظهور فى السريانية ، قبل الاتصال بضمائر النصب ، مثل : (ܬܩܛܠܝܢܢܝ) tekṭlīnān « تقتلننى » ، وفى العربية عند الاتصال بنون التوكيد ؛ « فتفصل بين نون التوكيد ونون الضمير بالألف ، ليزول اجتماع الأمثال ، ويخف بعض ما فيه من الثقل وفرط الكلفة على اللسان [1] » .

ومن أمثلة عودة الفاصل بين المتماثلين : ظهور (أَنْ) وجوبا بعد لام التعليل ، إذا دخلت على (لا) ؛ مثل : « لئلا تحدث كارثة » ، ولا يقال : « للا تحدث كارثة » ، حتى لا تتوالى الأمثال . ومثله عودة الواو أو الياء للظهور ، فى صيغتى : فَعُولة وفَعِيلة ، عند النسب إليهما ، إذا تماثلت العين واللام فيهما ؛ فيقال مثلا : « ضرورى » و « جليلى » ، ولا يقال : ضَرَرِىّ ولا جَلَلِىّ ، حتى لا تتوالى الأمثال .

وقد عبر السيوطى عن هذه الحالة من حالات الفصل بين المتماثلين بقوله : « وجوب إظهار (أَنْ) بعد لام كى ، إذا دخلت على (لا) نحو : لئلا يعلم ؛ حذرا من توالى مثلين ، لو قيل : للا يعلم ، ووجوب إبقاء الياء والواو فى النسب إلى نحو : شديدة وضرورة ؛ فيقال : شديدى وضرورى ؛ إذ لو حذفت ، كما هو قاعدة : فعيلة وفعولة ، وقيل : شَدَدِىّ وضَرَرِىّ ، لاجتمع مثلان [2] » .

وهكذا رأينا طريقين من طرق التخلص من توالى الأمثال فى أبنية

---

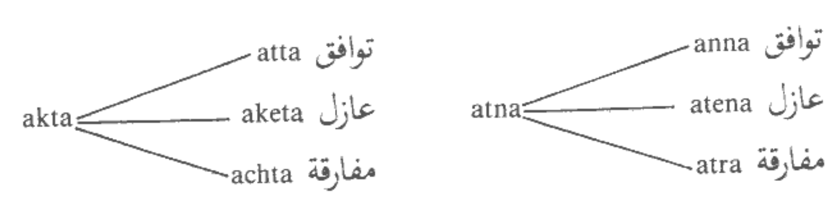
(١) المقتصد لعبد القاهر الجرجانى ٢/١١٣٣

(٢) الأشباه والنظائر ١/٢٠

اللغة (١) ، وهما طريق المخالفة بإبدال أحد الصوتين المتماثلين صوتا آخر ، وطريق إقامة فاصل بين الصوتين ليخفف من ثقل اجتماعهما .

ويقول ڤندريس : « هناك مسلك ثالث ، وذلك بأن لا يتجه الصوتان المتماسان إلى التوافق بين عناصرهما ، بزيادة المشابهة التى بينهما ، تلك المشابهة التى تصل أحيانا إلى التماثل التام ، ولا أن يتحصن كل منهما ضد الآخر ، بوضع نوع من العازل ، يكون عقبة فى سبيل التأثير المتبادل بينهما ، بل على العكس من ذلك ، بأن يستغلا ما بينهما من فروق ، فيعمقاها إلى حد ألا يبقى بينهما شىء مشترك ، ثم يزيلا كل نقطة للتشابه ، وتلك هى عملية المفارقة » (٢) .

ويقصد ڤندريس بالتوافق ، ما سبق أن سميناه : « المماثلة » ، كما يقصد بالمفارقة ما سميناه : « المخالفة » . أما « العازل » الذى يتحدث عنه ، فهو الذى سبق أن مثلنا له ببعض الأمثلة ، وقد مثل (ڤندريس) لهذه الاتجاهات التطورية الثلاثة ، بمعاملة بعض اللغات للمجموعتين الصوتيتين : akta و atna على النحو التالى :



وتميل العربية إلى التخلص من توالى الأمثال فى أبنيتها ، عن طريق آخر ، إلى جانب طريق المخالفة الصوتية ، ووضع العازل بين الأصوات ، وذلك هو طريق الحذف ومن أمثلة ذلك فيها : صيغ « تفعّل » و « تفاعل »

---

(١) انظر فى طرق التخلص من توالى الأمثال : الأشباه والنظائر للسيوطى ١٨/١

(٢) اللغة لڤندريس ٩١

و « تفعلل » مع تاء المضارعة ، مثل « تتقدّم » و « تتقاتل » و « تتبختر » ، فالكثير فى العربية الاكتفاء بتاء واحدة ، وفى القرآن أمثلة كثيرة لذلك ، ففيه مثلا : ﴿ تذكّرون ﴾ ١٧ مرة بالحذف ، فى مقابل : ﴿ تتذكّرون ﴾ ٣ مرات بلا حذف ، كما يقابلنا فيه مثلا : ﴿ تكاد تميّز من الغيظ ﴾ بدلا من : « تتميز » ، و ﴿ فأنت عنه تلهّى ﴾ بدلا من : « تتلهّى » ، و ﴿ ناراً تلظّى ﴾ بدلًا من : « تتلظى » ، وغير ذلك .

ومن أمثلة ذلك أيضا : نون الأفعال الخمسة مع نون الوقاية ، قبل ياء المتكلم ، أو مع ضمير المتكلمين المنصوب ، وكذلك الفعل المسند إلى نون النسوة ، قبل هاتين الحالتين كقول الأعشى :

أبالموت الذى لابدّ أنىّ ملاق لا أباك تخوّفينى [(١)]

أى « تخوّفيننى » . وكقول عمرو بن معديكرب :

تراه كالثغام يُعَلّ مسكاً يسوء الفاليات إذا فَلَيْنى [(٢)]

أى « فلينني ».وكقول جميل :

أيا ريح الشمال أما ترينى أهيم وأننى بادى النحول [(٣)]

أى « ترينني » .

وليست ضرورة الشعر هى المتسببة فى هذا الحذف ، كما قد يُتوهّم ؛ إذ ورد فى النثر كذلك ، فقد ورد فى سيرة ابن هشام : « أفلا تعطونى »

---

(١) أمالى ابن الشجرى ٣٦٢/١ والكامل للمبرد ١٤٢/٢ والمنصف لابن جنى ٣٣٧/٢

(٢) كتاب سيبويه ١٥٤/٢ والمنصف لابن جنى ٣٣٧/٢ ومعانى القرآن للزجاج ١٩٧/١

(٣) الأغانى ١٠٩/٨

وفيها كذلك : « ما الذى تهنئونابه » [١] . وفى الأغانى : « فأخبراه أنها لا يعرفانى » [٢] . وفى عيون الأخبار : « لِمَ تزعجونى من جواركم » [٣] . وفى تفسير الطبرى : « كنا نعطيهم فى الجاهلية ستين وسْقاً ، ونقتل منهم ولا يقتلونا » [٤] .

ومن أمثلة الحذف لكراهة توالى الأمثال كذلك : إنَّ وأنّ ولكنّ وكأنّ ، مع نون الوقاية قبل ياء المتكلم ، أو ضمير المتكلمين المنصوب . والحذف مع هذه الأحرف هو الشائع فى القرآن الكريم ؛ ففيه مثلا : « إنى » ١٢٤ مرة ، فى مقابل : « إننى » ٦ مرات ، كما ورد فيه : « وإنّا » ٣٣ مرة ، فى مقابل : « وإننا » مرة واحدة ، وغير ذلك .

ومن الحذف لكراهة توالى الأمثال كذلك قولهم : ظَنْت ، وظَلْت ، فى لغة بنى سليم [٥] . ومنه فى المثل : « أساء سمعا فأساء جابة » [٦] بدلا من أساء إجابة : 'a'i « 'a' .

ولعل المسئول عن منع كلمة : « أشياء » من الصرف ، وقوعها فى القرآن الكريم فى سياق تتوالى فيه الأمثال ، لو صرفت ، فى قوله تعالى : ﴿ لا تسألوا عن أشياءَ إنْ تبد لكم تسؤكم ﴾ [سورة المائدة ١٠١/٥] ؛ إذ لو صرفت

---

(١) سيرة ابن هشام ٥١ ؛ ٤٥٨

(٢) الأغانى للإصفهانى ١٢٦/٥

(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة ٢٩٣/١

(٤) تفسير الطبرى ٥١٠/٨

(٥) انظر : لسان العرب (ظنن) ١٤٢/١٧

(٦) إصلاح المنطق ٢٨٢ وانظر : شرح ما يقع فيه التصحيف ١٧٤ وتصحيح التصحيف ٢٠٥ وفصيح ثعلب ٨٢ ومجمع الأمثال للميدانى ١٠/٢ ودرة الغواص ٤٢

لقيل : « عن أشياءٍ إنْ » ، ولا يخفى ما فيه من تكرار المقطع : (إنْ) [١] .

وليست العربية بدعا فى سلوك طريق الحذف ، للتخلص من توالى الأمثال ؛ ففى الآرامية مثلا : (ܐܰܪܝܳܐ) بمعنى : « ليث » أصلها الاشتقاق : 'aryāyā . وفى الألمانية مثلا كلمة : der Beamte بمعنى : « الموظف » ، هذه الكلمة أصلها الاشتقاق : der Beamtete وغير ذلك من الكلمات [٢] .

* * *

٢ — قانونُ السُّهولَةِ وَالتَّيْسِيرِ

تميل اللغة فى تطورها ، نحو السهولة والتيسير ، فتحاول التخلص من الأصوات العسيرة ، وتستبدل بها أصواتا أخرى ، لا تتطلب مجهودا عضلياً كبيراً ، كما أنها تحاول أن تتفادى تلك التفريعات المعقدة ، والأنظمة المختلفة للظاهرة الواحدة .

وإلى هذا يذهب كثير من علماء اللغة ، من أمثال « هويتنى » Whiteney الذى يرى أن كل ما نكتشفه من تطور فى اللغة ، ليس إلا أمثلة ، لنزعة اللغات إلى توفير المجهود ، الذى يبذل فى النطق ، وأن هناك استعداداً للاستغناء عن أجزاء الكلمات ، التى لا يضر الاستغناء عنها بدلالتها [٣] .

---

(١) انظر لأثر منع كلمة أشياء من الصرف على كلمات من نفس الوزن ؛ مثل : أنباء وأكفاء وأصداء وأرزاء وأنداء وأعداء ، وكذلك مثل : أقوال وأهوال وأصحاب وأخيار وأشرار ، فى إذاعة طنجة والرباط : مجلة المنهل المغربية (العدد ٢٨ ديسمبر ١٩٨٣) ص ٤٢ — ٤٣

(٢) انظر فى تفصيل ذلك : مقالتنا كراهة توالى الأمثال ، فى مجلة المجمع العلمى العراق ١٨/١٩٦٩ . وبحوث ومقالات فى اللغة ٢٧ — ٥٦

(٣) انظر : Whiteney, Life and Growth of Language, P. 48 وانظر كذلك اللغة والتطور للدكتور عبد الرحمن أيوب ٣٢

« وليس معنى هذا أن قانون السهولة والتيسير ، ينطبق على كل الحالات ، وإنما يمكن تطبيقه على كثير من التطورات الصوتية فى اللغة ، فإذا وجد الباحث أن التطور الصوتى كان عكسياً ، أى من السهل إلى الصعب - كما وجد فعلًا فى بعض الحالات - فعليه أن يبحث عن أسباب أخرى خاصة تبرر هذا التطور ، وهو لاشك سيجدها فى ظروف خاصة باللغة ، التى قد يحدث فيها هذا النوع من التطور ، فليس ينقض هذا القانون أن نجد أحيانا أصواتاً سهلة ، تطورت إلى أصعب منها ، فى بعض الحالات »[(١)] .

ومما ينطبق عليه هذا القانون : ظاهرة « الهمز » فى اللغة العربية ، ومحاولة بعض القبائل العربية القديمة التخلص منها ، وعلى الأخص قبائل الحجاز ، كما تخلصت منها معظم اللهجات العربية الحديثة . وصوت الهمز عسير النطق ؛ لأنه يتم بانحباس الهواء خلف الأوتار الصوتية ، ثم انفراج هذه الأوتار فجأة ، وهذه عملية تحتاج إلى جهد عضلى كبير .

وسقوط الهمز فى غير أول الكلمة ، هو الشائع فى اللهجات العربية الحديثة ، وكان هو المميز للهجة قريش فى الجاهلية ، غير أن هذا التسهيل ، امتد إلى الهمزة فى أول الكلمة كذلك ، فى كثير من الكلمات فى العاميات الحديثة ؛ مثل : « باط » فى : « آباط » ، و « دان » فى : « آذان » ، و « سنان » فى : « أسنان » ، و « سبوع « فى : « أسبوع » ، و « براهيم » و « سماعين » فى : إبراهيم وإسماعيل . كما يقال مثلا : « إيه اللى صابك ؟ » ، و « فلان راح فى غيبوبة وفاق منها » بدلا من : « أصابك » و « أفاق » .

وقد روى لنا اللغويون العرب أمثلة لبعض ذلك فى القديم ، يقول

---

(١) الأصوات اللغوية للدكتور إبراهيم أنيس ١٦٩ وانظر الشبه التى أثارها الدكتور تمام حسان على نظرية السهولة والتيسير ، فى كتابه : اللغة بين المعيارية والوصفية ٤٥ - ٤٧

أبو بكر بن الأنبارى (المتوفى سنة ٣٢٨ هـ) : « العوام تخطئ ، فتقول فى جمع السن : سنان » [١] ، كما يقول كذلك : « والعامة تخطئ فى الإبهام ، فتقول : البهام » [٢] .

وقد روى لنا الجواليقى (المتوفى سنة ٥٣٩ هـ) أن الناس فى عصره ، كانوا يسقطون همزة : « أبو » ؛ فقال : « وهو أبو رياح ، لهذا الذى يلعب به الصبيان ، وتديره الريح ، ولا تقل : بُرْياح ، وكذلك يقولون للقرد : بُوزَنّة ، وإنما هو : أبو زَنّة ، وهى كنيته » [٣] . ولا تزال هذه الظاهرة شائعة فى تونس والجزائر مثلا ، فى قولهم : « بومدين » و « بوتفليقة » و « جميلة بو حريد » ، وكان لنا زميل تونسى بجامعة ميونخ اسمه « عثمان بوغانمى » ، كما تشيع هذه الظاهرة فى بعض الأسماء فى الجزيرة العربية ، مثل : « باحسين » و « باكلّا » و « بابطين » .

وقد يؤدى سقوط الهمز من آخر الأفعال ، إلى التباسها بالأفعال المعتلة الآخر فتعامل معاملتها عند إسنادها إلى الضمائر ، فبعد أن ضاع الهمز من الأفعال : ملأ الإناء ، وسلأ السمن ، وأخطأ فى قراءته ، وأبطأ فى فعله ، وخبأ نقوده ، مثلا ، أصبح يقال عند إسنادها إلى الضمائر : مليت ، وسليت ، وأخطيت ، وأبطيت ، وخبيت ، تماماً كما يقال : رميت وسعيت ، وبنيت ، وغير ذلك .

وقد روى ابن الأنبارى شيئا من هذا فى العربية القديمة ، فقال : « ويقال : أردأت الرجل وأرداته وأرديته ، فمن قال : أرداته ، لين الهمزة ،

---

(١) المذكر والمؤنث لابن الأنبارى ٢٨٨

(٢) المذكر والمؤنث لابن الأنبارى ٣٠٣

(٣) التكملة فيما يلحن فيه العامة للجواليقى ١٣١

ومن قال : أرديته ، انتقل عن الهمزة ، شبه أرديت بأرضيت ، ومثل هذا قول العرب : قرأت بتحقيق الهمز ، وقرات بتليين الهمزة ، وقريت بترك الهمز والانتقال عنه إلى التشبيه بقضيت ورميت ، وكذلك يقال : اقرأ رقعتى بالتحقيق ، واقرا رقعتى بالتليين ، واقر رقعتى بالترك ، وهو أقل الثلاثة » (١) .

كما يؤدى سقوط الهمز أحياناً ، إلى نوع من الاشتقاق الجديد ، فإن سقوط الهمز من الفعل : « يؤاسى » مضارع : « آسى » و « يؤدى » مضارع : « أدّى » ، وتحولهما إلى : « يواسى » و « يودّى » مثلا ، هو المسئول عن اشتقاق الماضى الجديد (٢) : « واسى » و « وَدّى » ، وغير ذلك مما هو شائع فى اللهجات الحديثة ، وكان فى لهجة طيىء القديمة (٣) .

* * *

وانكماش « الأصوات المركبة » المسماه باللاتينية : Diphthong ظاهرة من ظواهر السهولة والتيسير فى اللغة ، فتحول الصوت المركب : (aw) إلى ضمة طويلة ممالة (ō) فى مثل لكلمة : « يُوم » و « نُوم » و « صُوم » بدلًا من : « يَوْم » و « نَوْم » و « صَوْم » . وكذلك تحول الصوت المركب : (ay) إلى كسرة طويلة ممالة (ē) فى مثل نطقنا لكلمة : « بِيت » و « لِيل »

---

(١) الأضداد لابن الأنبارى ٢٠٨ وانظر كذلك : الخصائص ١٥٣/٣ ويجعل ابن مكى الصقلى ذلك من لحن العامة ، فى مثل : أبطيت علىّ ، واستبطيتك ، بدلا من : أبطأت واستبطأتك . انظر : تثقيف اللسان ٨٨ وانظر كذلك : تصحيح التصحيف ٧٥ وإصلاح المنطق ١٤٨ ومثل ذلك جعل الزبيدى : استبريت الأمة ، بدلا من : استبرأت ، من لحن العامة . انظر : لحن العوام ٢٥٦ وتصحيح التصحيف ١٠٤ ؛ ١٨٩

(٢) فى لسان العرب (أخا) ٢٣/١٨ : « ووجه ذلك من جهة القياس ، هو حمل الماضى على المستقبل ؛ إذ كانوا يقولون : يواخى ، بقلب الهمزة واوا على التخفيف » . وانظر : اللسان (أتى) ١٨/١٨

(٣) انظر : تهذيب اللغة ٦٢٣/٧

و « عِين » بدلا من : « بَيْت » و « لَيْل » و « عَيْن » — كل ذلك بسببه إيثار اللغة الانتقال من العسير إلى اليسير من الأصوات .

وقد حدث هذا التطور فى الأصوات المركبة فى عصور العربية الأولى ، على ألسنة العامة ، وهذا هوما يُفهم من كلام ابن السكيت (المتوفى سنة ٢٤٤ هـ) فى كتابه : إصلاح المنطق : « وتقول : الكَوْسج ، ولا تقل : الكُوسج ، وهو الجَوْرب ولا تقل : الجُورب [١] » . وقد تابع المؤلفون فى لحن العامة من بعده التنبيه على هذا التطور ، مثل ما فى كلمتى : « الغَيْرة » و « قَيْح » [٢] عند الزبيدى (المتوفى سنة ٣٧٩ هـ) وكلمة « سَوْسن » [٣] عند الحريرى (المتوفى سنة ٥١٦ هـ) و « لَوْح » و « جَيْب » [٤] عند ابن هشام اللخمى (المتوفى سنة ٥٧٧ هـ) و « فَوْق » و « جَوْف » [٥] عند ابن الإمام (المتوفى بعد سنة ٨٢٧ هـ) و « العَيْش » [٦] عند ابن كمال باشا (المتوفى سنة ٩٤٠ هـ) .

بل لقد حدث ذلك فى عصور الفصاحة أيضا ، ففى إصلاح المنطق عن الأصمعى : « يقال : هو الضَّوْء والضُّوء [٧] » ، وفيه كذلك : « وحَوْبة الرجل أمّه ، وقال بعضهم : حُوبَة » [٩] .

---

(١) إصلاح المنطق ١٦٢ وانظر تقويم اللسان ٩٠ والتكملة للجواليقى ٥٠ وتصحيح التصحيف ٢١٧

(٢) لحن العوام للزبيدى ١٤٤ ؛ ١٨٥

(٣) درة الغواص للحريرى ٧٨ وانظر : تصحيح التصحيف ٣٢٣

(٤) المدخل إلى تقويم اللسان ٦٢ ؛ ٦٦

(٥) الجمانة فى إزالة الرطانة ٥

(٦) التنبيه على غلط الجاهل والنبيه ٢٠

(٧) إصلاح المنطق ٩١

(٨) إصلاح المنطق ١٣

(٩) إصلاح المنطق ١١٤

وقد تتطور هذه الحركة الممالة الناتجة من الصوت المركب ، فتصير فتحة طويلة . فمثلا كلمة : « فأين »[١] تطورت بعد سقوط الهمز منها إلى : « فِين » بدلا من : « فَيْن » وفى بعض اللهجات : « وِين » المتطورة عن « وَيْن » بعد سقوط الهمز من « وأينَ »[٢] ، غير أننا نسمع بعض أهالى صعيد مصر ، ينطقون الكلمة الأولى بالفتح الخالص ، فيقولون : « فان » بدلا من : « فِين » الشائعة فيما عدا ذلك فى مصر ، أى أن التطور فى هذا الصوت المركب ، كان على النحو التالى : ay ، ē ، ā .

ومثله فى كتاب منامات الوهرانى (ص ٣٨) : « وَالَك يا أحمق » ، بدلا من « وَيْلَك » ! وفيه أيضا (ص ١٠١) : « أخاف وَالَكْ أن أُقتلَ باللَّوَالِكْ » !

ونلحظ مثل هذا التطور فى العربية القديمة ، فى قول بعض العرب : « إنّ الرجز لَعَابٌ ، أى لعيب ، والرجز ارتعاد مؤخر البعير »[٣] . وقولهم : « ما كنت أزعم فى خصمى من العاب ، يريد : العيب ... ويقال : بَوْع وباع ، وصَوْع وصاع »[٤] ، كما جاء فى قولهم : « تبت إليك فتقبل تابتى ، وصمت إليك فتقبل صامتى ، أى توبتى وصومتى ، ذكره الواحدى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ إن هذان لساحران ﴾ ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : هى لغة بلحرث ، وهى قبيلة من اليمن »[٥] ، وهى تلك

---

(١) فى مثل قوله تعالى ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ التكوير ١٦/٨١

(٢) مثل ذلك أيضا قولنا : « مِنِين » menén المتطورة عن : « مَنَيْن » menayn بعد سقوط الهمز من : « مِنْ أَيْنَ » ؟

(٣) النوادر لأبى زيد ٣

(٤) النوادر لأبى زيد ٥

(٥) شرح مراح والأرواح ١٢٠

القبيلة التى روى لنا عنها ، أنها كانت تلزم المثنى الألف فى جميع أحواله ، فقد قال أبو زيد الأنصارى فى تفسير قول الراجز :

طارت علاهن فشُل علاها :

« وعلاها ، أراد : عليها . ولغة بلحرث بن كعب قلب الياء الساكنة ، إذا انفتح ما قبلها ألفاً ، يقولون : أخذت الدرهمان ، واشتريت ثوبان ، والسلام علاكم ، وهذه الأبيات على لغتهم » [١] .

وفى تسهيل الفوائد لابن مالك (ص ١٢) : « ولزوم الألف لغة حارثية » ، وقال فى شرحه (٦٦/١) : « ولغة بنى الحارث بن كعب إلزام المثنى وما جرى مجراه ، الألف فى كل حال . وبهذه اللغة ، قرأ نافع وابن عامر والكوفيون إلا حفصا ، قوله تعالى : ﴿ إنّ هذان لساحران ﴾ ، ووافق فى ذلك الحارثيين بنو الهجيم ، وبنو العنبر ، ومنه قال الشاعر :

تزوَّد منا بين أذناه ضربة دعتْه إلى هابى الترابِ عقيم

وقال آخر :

وأطْرَقَ إطراقَ الشجاع ولو رأى مساغا لناباه الشجاعُ لصمما

وأنشد أبو زيد :

طاروا علاهن فشُلْ علاها
واشدُدْ بمثنى حقب حقواها
ناجية وناجيا أباها »

كما يروى عن أهل الحجاز أنهم كانوا يقولون فى : « يَوْجَل » :

---

(١) النوادر لأبى زيد ٥٨ وانظر الصاحبى لابن فارس ٤٩ وشواهد التوضيح ٩٧ — ٩٨

« ياجَلُ » [١] ، كما روى لنا فى اللغة : « ياءَسُ » و « يابَسُ » فى : « ييأس » و « ييبس » [٢] ، ومثل ذلك : « القال » بدلا من : « القول » فى عبارة : « القيل والقال » [٣] . وكل هذه الأمثلة نتيجة لانكماش الصوت المركب ، وتحول الحركة الممالة الناتجة عن هذا الانكماش ، إلى فتحة خالصة فيما نعتقد .

وقد لخص « هانز كفلر » H. Kofler حالات انكماش الصوت المركب عند قبيلة « بلحرث بن كعب » كما فى المصادر العربية ؛ فذكر أن بلحارث بن كعب (من تميم) يقلبون الواو والياء الساكنتين بعد فتحة ،ألفا ، مثل : « علاها » فى « عليها » ، و « ياءس » فى « يَيْأس » ، و « ياتزن » فى « يَوْتزن » و « ياتعد » فى « يَوْتعِد » ، و « ياتسِع » فى « يَوْتسِع » ، و « يالَغ » فى « يَوْلَغ » ، و « إلاك » فى « إليك » .

ثم يقول إن هذه الظاهرة تفسر ورود صيغة (فُعال) للتصغير ، بجانب (فُعَيْل) ، كما تفسر إلزام المثنى الألف ، وهذا يعزى كذلك لقبيلة بلحارث بن كعب .

كما يروى عن ابن جنى أن من يقول : « ياتزِن » ، و « ياءَس » ، يقول كذلك : « ضربت أخواك » . ويذكر أن هذا التطور موجود فى اللهجات الحديثة ، مثل : « بات » فى « بيت » ، و « شاخ » فى « شيخ » ، و « يام » فى « يوم » ، فى لهجة جبل النصيرات ، وبعض نواحى بيروت [٤] .

---

(١) المقتضب ٩٠/١ والمنصف ٢٠٢/١
(٢) المقتضب ٩٢/١ والمنصف ٢٠٣/١
(٣) انظر لسان العرب (قول) ٩١/١٤
(٤) انظر: H.Kofler, Reste altarabischer Dialekte,S. 127 .

ويروى ابن جنى عن أبى زيد أنه قال : « سألت خليلا عن الذين قالوا : مررت بأخواك ، وضربت أخواك ، فقال : هؤلاء قولهم على قياس الذين قالوا فى يَيْأَسُ : ياءَسُ ، أبدلوا الياء لانفتاح ما قبلها . قال (يعنى الخليل) : ومثله قول العرب من أهل الحجاز : ياتَزِن ، وهم ياتَعِدُون ، فروا من : يَوْتَزِن ، ويَوْتَعِدون [١] » .

ونلحظ فى هذه الظاهرة أنها عزيت فى نص ابن جنى إلى أهل الحجاز ، كما عزاها أبو عمرو الشيبانى إلى قيس ، فى قوله : « أهل الحجاز يقولون : وَجِع يَوْجَع . وبنو تميم : يَيْجَع . وقيس : ياجع ، غير مهموز [٢] » .

ولعل هذه الظاهرة لم تقتصر على قبيلة : بلحارث بن كعب ، أو لعل السبب فى تعدد النسبة إنما يرجع إلى اضطراب الرواية عند علماء اللغة .

* * *

وكذلك اندثار الأصوات الأسنانية فى بعض اللهجات العربية الحديثة ، يعد مظهراً آخر من مظاهر السهولة والتيسير فى اللغة . والأصوات الأسنانية فى العربية هى الذال والثاء والظاء ، وهى التى تتطلب إخراج طرف اللسان ، ووضعه بين الأسنان عند النطق بها ، ولاشك أن ذلك جهد عضلى ، تخلصت منه لغة الكلام ، بنقل المخرج إلى ما وراء الأسنان ، أما الذال فقد حل محلها الدال فى مثل : « دَهَب » بدلًا من : « ذَهَبٌ » ، أو الزاى فى مثل : « زِكْر » بدلا من : « ذِكْر » ، و « زُلّ » بدلا من « ذُلّ » . وأما الثاء فقد حل محلها التاء فى مثل كلمة : « تُوب » بدلا من : « ثَوْب » ، أو السين فى مثل : « سابت » بدلا من : « ثابت » . وأما الظاء فقد حل محلها

---

(١) الخصائص ٢/١٤

(٢) الجيم لأبى عمرو ٣/٣٠٥

الضاد فى مثل : « ضِلّ » بدلا من : « ظلّ » ، أو الزاى المفخمة فى مثل : « زْهَرَ » بدلا من : « ظهر » ، وغير ذلك مما هو شائع فى العامية المصرية .

وهكذا نرى أن مخرج هذه الأصوات قد رجع إلى الخلف ، مع احتفاظها بصفة الرخاوة تارة ، أو تحولها إلى صفة الشدة تارة أخرى . ويرى الدكتور إبراهيم أنيس ، أن الذال والثاء والظاء ، أصبحت فى لغة الكلام أصواتا شديدة ، هى الدال والتاء والضاد ، وهذا ما جعله يذهب فى تعليله لضياع هذه الأصوات الثلاثة من الكلام ، إلى أن الأصوات الشديدة ، أسهل من الأصوات الرخوة فى النطق ! « لأنه قد يكون أسهل على المرء ، وهو يجرى بأقصى سرعته أن يصطدم بحائط أمامه ، من أن يحاول الوقوف قبل الحائط بمسافة قصيرة ، وكذلك اللسان قد يسهل عليه الاصطدام بالحنك ، والالتقاء به التقاء محكماً ، ينحبس معه النفس ، وهو ما يكون مع الأصوات الشديدة ، من أن تقف حركته عند مسافة قصيرة من الحنك ، ليكون بينهما مجرى يتسرب منه الهواء ، كما يحدث فى الأصوات الرخوة » [١] .

وقد روى لنا عن العرب القدماء : بدايات لهذا النوع من التطور ؛ فقد ذكر أبو الطيب اللغوى أنهم قالوا : « الحسالة » فى : « الحثالة » و « القنفد » فى : « القنفذ » و « البزور » فى : « البذور » [٢] وغير ذلك .

وقد استمر هذا التطور فى اللهجات العامية العربية ، فى أصقاعها المختلفة ؛ فقد روى لنا ابن مكى الصقلى (المتوفى سنة ٥٠١ هـ) قولهم : « التار » فى « الثأر » و « جدر الشجرة » فى « جذر الشجرة » و « جبد » الحبل ، فى : « جبذ » ، و « جدام » فى : « جذام » [٣] ، كما روى

(١) الأصوات اللغوية ١٧١

(٢) الإبدال لأبى الطيب ١٧٤/١ ؛ ٣٥٧/١ ؛ ٦/٢

(٣) تثقيف اللسان ٥ ؛ ١٠ ؛ ٦٦ ؛ ٦٩

ابن هشام اللخمى (المتوفى سنة ٥٧٧ هـ) قولهم : « جدام » فى « جذام » و « دخيرة » فى « ذخيرة » [١] . وكذلك روى لنا الشيخ يوسف المغربى (المتوفى سنة ١٠١٩ هـ) قولهم : « فلان نَدْل » بدلا من « نَذْل » و « تُوم » بدلا من « ثُوم » و « حنضل » بدلا من « حنظل » [٢] ، ومثل ذلك ما رواه ابن أبى السرور البكرى (المتوفى سنة ١٠٨٧ هـ) من قولهم : « بَدر الحب » بدلا من : « بذر » و « بردعة » بدلا من « برذعة » [٣] وغير ذلك .

ومما يدل على خضوع التطور فى الأصوات الأسنانية ، لقانون السهولة واليسير ما نراه من ميل كثير من اللغات ، إلى التخلص من هذه الأصوات ، وتحويلها إلى أصوات خلف الأسنان .

وأمامنا اللغات السامية المختلفة ، لم يحتفظ منها بهذه الأصوات ، سوى العربية الشمالية والجنوبية (الحميرية) ، وتطورت فى سائر اللغات السامية ، إلى أصوات خلف الأسنان ، فقد تحولت الثاء إلى سين فى الحبشية ، وشين فى العبرية والأكادية ، وتاء فى الآرامية ، كما تحولت الذال إلى زاى فى الحبشية والعبرية والأكادية ، ودال فى الآرامية . وكذلك تحولت الظاء إلى صاد فى الحبشية والعبرية والأكادية ، وطاء فى الآرامية [٤] .

ونظرية السهولة والتيسير ، واختصار الجهد العضلى ، هى التى تفترض أصالة هذه الأصوات الثلاثة ، فى السامية الأم ؛ لأن تعليل تطورها إلى غيرها ، أسهل من تعليل تطورها من غيرها .

---

(١) المدخل إلى تقويم اللسان ٣٦

(٢) دفع الإصر عن كلام أهل مصر ٧١ ؛ ٩٢ ؛ ٩٦

(٣) القول المقتضب ٤٩ ؛ ٩٢

(٤) انظر أمثلة ذلك فى كتابنا : اللغة العبرية ١٢٢ وما بعدها .

وهذا القانون ، كغيره من قوانين التطور اللغوى ، صالح للعمل فى أية لغة من اللغات ، وليس معنى هذا أن كل لغة ، لابد أن تتعرض لجميع آثاره ؛ فالحتمية بمعنى أنه لابد من وقوع كل لغة تحت سيطرة هذا القانون ، والشمول بمعنى عدم إفلات أية لغة من تأثيره والسير على مقتضاه — أمران لم يقل بهما واحد من أنصار التطور اللغوى فى العصر الحديث .

وفى ضوء ذلك كله لا يصح أن يقال فى نقد نظرية السهولة والتيسير هنا : « من ذا الذى يستطيع أن يدعى أن الدال أو الزاى ، أكثر سهولة فى نطقها من الذال ، ثم يتخذ ذلك مبررا لظهور الذال الفصيحة ، زايا أودالا فى اللهجة المصرية الحديثة ؟ ... وليس وضع طرف اللسان بين الأسنان بالأمر المجهد ، ولا وضعه خلفها بالأمر المريح . ولو كان هذا حقيقيا ، لا نقرض صوت الذال من جميع لغات البشر ، استجابة لدعوى من يقول ، بجنوح الإنسان إلى التخلص من الأصوات ، التى يتطلب النطق بها جهدا أو عسرا » [1] .

إن هذا القول المتعجل ، ليفترض فى هذه القوانين الحتمية والشمول ، وهذا ما لم يقل به أحد ، فإن كل قانون صالح للعمل أساسا ، غير أن هناك ظروفا معقدة متشابكة ، فى الحياة اللغوية اليومية تعُوق سير هذه القوانين ، مما يجعلها فى كثير من الأحيان محدودة بأزمنة خاصة ، أو أماكن معينة .

* * *

ومن مظاهر قانون السهولة والتيسير كذلك ، القضاء على التفريعات الكثيرة ، والأنواع المختلفة للظاهرة الواحدة فى داخل اللغة . وقد حدث ذلك فى اللهجات العربية الحديثة بالنسبة لعلامات التأنيث فى العربية [2] ، فنحن

---

(١) اللغة والتطور ، للدكتور أيوب ٣٢

(٢) انظر : التذكير والتأنيث فى اللغة ٥

نعرف أن العربية الفصحى ، تملك ثلاث علامات هى : التاء ، والألف المقصورة ، والألف الممدودة ، كما نلاحظ أن العلامتين الثانية والثالثة ، قد ضاعتا فى اللهجات العربية الحديثة ، وحلت محلهما العلامة الأولى ، وهى التاء ، فنحن نقول فى : حمراء ، وبيضاء ، وصحراء ، وعمياء ، وميناء ، وعرجاء : حمره ، وبيضه ، وصحره ، وعميه ، ومينه ، وعرجه ، كما نقول فى : حبلى ، وسلمى ، وخُبّازى ، وعدوى ، وفتوى : حبله ، وسلمه ، وخبيّزه ، وعدوه ، وفتوه .

ويبدو أن هذا الميل قديم فى العربية الفصحى ، فهذا هو الطرماح بن حكيم يقول :

كأنى إذا باشرتُ سَلْمَةَ خالياً على رَمْلَةٍ مَيْثَاءَ للمُتَبَطِّحِ [1]

ويقول شارح ديوانه : « قوله : سلمة ، أراد : سلمى ، فالهاء والياء عنده بمنزلة واحدة » .

والسر فى زوال هاتين العلامتين ، وحلول العلامة الأولى ، وهى التاء ، محلهما ، هو ميل اللغة إلى أن تسير فى طريق السهولة والتيسير ، فبدلًا من أن يكون فى اللغة الواحدة ثلاث علامات للتأنيث ، تصبح فيها علامة واحدة ، لكل أنواع المؤنث .

ونحن نلحظ هذا الميل إلى السهولة والتيسير فى هذه الظاهرة ، فى لغة الطفل الذى نجده يميل إلى تأنيث المؤنث بالتاء وحدها ؛ لأنها هى العلامة الكثيرة الشيوع فى لغة الكبار من حوله ، فنراه يقول مثلًا : « قلم أحمر وكراسة أحمرة » ، وهو بهذا يعمل عن غير قصد على اطراد القاعدة ، وكل لغة من اللغات ، تحاول فى تطورها أن تسلك هذا الطريق ، وأن تجعل

---

(١) ديوانه (تحقيق كرنكو) ق ١/٥ ص ٦٩

قواعدها بسيطة مطردة ، وذلك بالقضاء على التفريعات الكثيرة . والظواهر الشاذة فيها ، وبذلك يصبح صحيحا فى الاستعمال ، ما كان يعدّ خطأ ، من قبل أن يشيع استعماله .

وهذا السلوك قديم فى العامية العربية ؛ فقد روى الحريرى (المتوفى سنة ٥١٦ هـ) أن الناس فى عصره كانون يلحنون فيقولون : « الأوّلة » بدلا من « الأولى » [١] ، وقد عثرت على نصوص ، يظهر فيهما هذا اللون من التطور فى كلمة : « الأولى » ؛ ففى تاريخ بغداد للخطيب البغدادى : « وقد رجعنا عن الرواية الأوّلة » [٢] ، وفى الواضح المبين فى ذكر من استشهد من المحبين للحافظ مغلطاى : « ثم جعلت الصورة الأولة فى صدر المجلس » [٣] ، وفى الجامع لأخلاق الراوى : « وقد اختلف فى المستحق منهما لأن يضرب عليه : الأوَّلة أم الثانية ؟ » [٤] . وقد رواها ابن فارس لغة للعرب ؛ فقال : « الأول والمؤنثة الأولى . وقد قالت العرب للمؤنثة : أوَّلة ، وجمعوها : أوَّلات . أبو زيد : ناقة أوّلة وجمل أول ، إذا تقدما الإبل [٥] » .

كما وضعها الزمخشرى فى أساس البلاغة ، على أنها من الفصيح ، فقال : « وتقول : جمل أوّل ، وناقة أوّلة ، إذا تقدما الإبل » [٦] .

* * *

والقلب المكانى — وهو عبارة عن تقديم بعض أصوات الكلمة على

---

(١) درة الغواص للحريرى ٧٧

(٢) تاريخ بغداد ١٨/٥

(٣) الواضح المبين ١٩٧

(٤) الجامع لأخلاق الراوى ٢٧٦/١

(٥) مقاييس اللغة ١٥٨/١

(٦) أساس البلاغة ٢٥/١

بعض ، لصعوبة تتابعها الأصلى على الذوق اللغوى – هو ظاهرة يمكن تعليلها بنظرية السهولة والتيسير كذلك . ويرى ڤندريس أن « الانتقال المكانى ، يصدر عن نفس الأصل الذى صدر عنه التشابه ، إذ إن مرد الأمر فى كليهما إلى الخطأ ، ونقص الالتفات ، ولكن النتيجة مختلفة كل الاختلاف ، فبدلا من تكرار الحركة النطقية مرتين ، يقتصر على تغيير مكان حركتين ، وأخيراً يبدو الانتقال المكانى ، كما لو أن جزأين فى كلمة واحدة ، قد تبادلا أحد العناصر ، فبدلا من فِسْتْرا festra ، يقال فى البرتغالية fresta فرستا » [١] .

ولهذه الظاهرة أمثلة لا تحصى كثرة فى العربية الفصحى ، فقد خصص السيوطى فى كتابه : المزهر فى اللغة (١/٤٧٦ – ٤٨١) النوع الثالث والثلاثين ، لمعرفة القلب ، وذكر فيه حوالى مائة كلمة من هذا النوع ، مثل : جذَبَ وجبَذَ ، وسحاب مكفهر ومكرهف ، واضمحلّ وامضحلّ ، ولزج ولجز وفَطَس وطفس ، والأوباش والأوشاب وغير ذلك ، كما ذكر شيئا مما يخص بعض القبائل العربية من هذه المقلوبات ، كقول تميم مثلا : « رعملى » بدلا من : « لعمرى » [٢] . كما تقول تميم كذلك : « صاقعة وصواقع » فى : « صاعقة وصواعق » [٣] ، و « معيق » فى « عميق » [٤] ، و « عَلِه » فى : « هلع » [٥] وغير ذلك .

بل إننا إذا قارنا العربية ، باللغات السامية الأخرى ، عثرنا على أمثلة حصل فيها هذا القلب المكانى فى العربية ، على حين احتفظت اللغات

---

(١) اللغة لڤندريس ٩٤

(٢) المزهر للسيوطى ٢/٢٧٧

(٣) الكامل للمبرد ٢/٢٧٩ ؛ ٣/٣٢٧ ولسان العرب (صقع) ١٠/٦٨

(٤) تهذيب اللغة ١/٢٩٠

(٥) الأفعال للسرقسطى ١/١٧٢

السامية الأخرى بالأصل ، فمثلا كلمة : « ركبة » هى فى العبرية : béreḫ (בֶּרֶךְ) وفى الآرامية : burkā (ܒܘܪܟܐ) وفى الحبشية berk (ብርክ) وفى الأكادية : burku ؛ فأصل الكلمة على هذا : « بُرْكة » ثم قلبت إلى : « ركبة » [١] بدليل بقاء الأصل فى الفعل : « بَرَك » كذلك . ويقول فى ذلك أنستاس الكرملى : « وقالوا : الركبة وكان الحق أن يقال : البُركة ، لأنهم اشتقوا منها : بَرَك ، ولم يقولون : رَكَبَ » [٢] .

وكذلك كلمة : « مع » فى العربية » ، فهى مقلوبة ، وأصلها بتقديم العين على الميم ؛ لأنها فى العبرية [٣] : ʿim(עִם) وفى الآرامية : ʿam (ܥܡ) .

أما كلمة : « ثغر » فى العربية ، بمعنى : « فتحة » أو « ثقب » ، فإنها تقابل فى اللغة العبرية : šaʿar (שַׁעַר) ، وكان المفروض أن يكون مقابلها فى الآرامية taʿrā ؛ لأن الملاحظ فى أصوات اللغات السامية ، أن الثاء العربية ، تقابل شيناً فى العبرية وتاء فى الآرامية ، كما أن الغين فى العربية ، تقابل العين فى اللغتين العبرية والآرامية . ولكن الآرامية حدث فيها قلب مكانى فى هذه الكلمة ، فصارت : tarʿā (ܬܪܥܐ) واستعيرت تلك الكلمة المقلوبة ، من الآرامية إلى العربية ، وهى كلمة : « تُرعة » ، فهى شق أو فتحة فى الأرض — كما نعرف .

وقد روى لنا المؤلفون فى لحن العامة ، بعض كلمات القلب المكانى ؛ مثل : « حطب زَجْل » فى : « جزْل » [٤] و « لَطَس الكتاب » أى محاه ،

---

(١) انظر : التطور النحوى لبرجشتراسر ٣٦

(٢) نشوء اللغة ونموها واكتهالها ١٠٦

(٣) انظر : التطور النحوى لبرجشتراسر ٣٦

(٤) التكملة فما تلحن فيه العامة للجواليقى ١٣٣ وذيل الفصيح ١٤

بدلا من : « طلس » [١] ، و « أعرنى سمعك » فى : « أرعنى » [٢] ، و « رَنْجس » فى « نرجس » ، و « نَوْرق » فى : « رونق » [٣] ، و « دَأب » فى : « أدب » ، و « دناية » فى : « ديانة » ، و « توفيض » فى : « تفويض » [٤] ، و « إححاف » فى : « إجحاف » ، و « مأيوس » فى : « ميئوس » [٥] .

ومن أمثلة القلب المكانى فى اللهجات العامية المعاصرة ، قولنا : « معْلأة » فى « ملْعقة » مع تطورات أخرى فيها ، و « اتلوى » فى : « التوى » ، و « أنارب » فى : « أرانب » ، و « جنزبيل » فى : « زنجبيل » ، و « فَحَر » فى « حفر » ، و « جواز » فى : « زواج » ، و « جُوز » فى : « زوج » ، و « مرسح » فى « مسرح » ، و « أهبل » فى : « أبله » ، و « فعص » فى : « فصع » ، و « فلان بعْل » فى : « عَبْل » بمعنى : ضخم الجثة ، و « سأف » فى : « صفّق » مع تطورات أخرى ، و « لخبط » فى : « خلبط » الناتجة بحسب قانون المخالفة من : « خلّط » ، و « بحلق » المتطورة عن : « محلق » فى : « حملق » ، و « خفس به الأرض » فى : « خسف » ، و « وَرَّى » فى : « رَوَّى » المتطورة عند العراقيين من « رأّى » ، و « عماويد » فى : « عواميد » . وسمعت شخصية كبيرة تتحدث عن : « القماويس » ، وهو يقصد : « القواميس » . ومثل ذلك أيضا : « الزَّعل » فى : « العلز » و « جزاز » فى نطق بعض جهات مصر ، بدلا من :

---

(١) التكملة فيما تلحن فيه العامة للجواليقى ١٤١

(٢) تقويم اللسان لابن الجوزى ٧٣ وتصحيح التصحيف ١١٥ وشرح الفصيح للهروى ١٠٠

(٣) الجمانة فى إزالة الرطانة لابن الإمام ٢٧

(٤) التنبيه على غلط الجاهل والنبيه لابن كمال باشا ٣٣ ؛ ١٣ ؛ ٢١

(٥) نفائس عرائس الكلام لخسرو زاده ١٧

« زجاج » (١) . وكذلك فى : « بَطْرمان » : « بَرْطمان » : من الفارسية « مرتبان » (٢) ، وجَنْزير » من الفارسية : « زِنجير » وهو السلسلة من المعدن (٣) ، وكذلك : « تصنّت » من : « تنصَّت » (٤) ، وعلاقتها بالإنصاف ظاهرة .

وكل الأطفال الصغار يقولون : « جمزة » فى : « جزمة » . وقد سمعت طفلا يقول : « فشارة » فى : « فراشة » ، وطفلة تطلق على « المسمار » كلمة : « ممسار » ، وبائع فوانيس كان يتحدث فى برنامج : « مجلة التليفزيون » بتاريخ ١٩٨٣/٥/٣١ م ، فيقول : « فناويس » ، وتلميذى رجب عثمان ، من أهل (دراو) من أعمال أسوان ، يقول : « كِشْتِينة » فى : « كوتشينة » وهو ورق اللعب ، وعبد التواب زيدان ، أحد عمال كلية الآداب : « سُوتْسة » فى : « سوستة » .

ومن أمثلة ذلك فى البلاد العربية أيضا : « كبزرة » فى : « كزبرة » و « رعبون » فى : « عربون » فى نطق السوريين ، و « عنجة » فى : « نعجة » ، و « داير » فى : « رايد » بمعنى : « مريد » فى نطق السودانيين . و « نول » فى : « لون » و « سدَّاجَ » فى : « سجادة » و « لْغَوْفَ » فى : « الغفوة » فى نطق أهل المغرب . و « زميج » فى : « مزيج » فى نطق بعض عوام العراق .

---

(١) فى لهجة القاهرة : « إزاز » ، على توهم أن الجيم فى : « جزاز » منقلبة عن قاف ، كما حدث مثل ذلك تماما فى « أمَّر العيش » بمعنى : سخن الخبز على النار ، بدلا من : « جَمَّر » . وانظر الفصل الخاص بتعاقب التطور ، فيما يلى .

(٢) الوسيط ٥٠/١

(٣) الوسيط ١٤٠/١

(٤) القلب المكانى فى هذا المثال قديم ، فقد عثرت عليه فى طبقات الشافعية للسبكى (المتوفى سنة ٧٧١ هـ) فى قوله (٣٣١/١) : « فسمعه يغنى فوقف يتصنت » .

ومن الملاحظ أن بعض الكلمات المقلوبة ، بعد أن تشيع على الألسنة ، تأخذ مجراها الطبيعى فى اللغة ، باستعمال باقى المشتقات منها . ولأن اللغويين العرب لم يدركوا ذلك ، حكموا بأصالة بعض المقلوبات ، فها هو أبو جعفر النحاس يقول : « القلب الصحيح عند البصريين ، مثل شاكى السلاح وشائك ، وجرف هار وهائر ، وأمّا ما يسميه الكوفيون القلب ، نحو : جبذ وجذب ، فليس هذا بقلب عند البصريين ، وإنما هما لغتان » ، كما يقول السخاوى : « إذا قلبوا لم يجعلوا للفرع مصدراً ، لئلا يلتبس بالأصل ، بل يقتصر على مصدر الأصل ، ليكون شاهدا للأصالة ، نحو : يئس وأيس مقلوب منه ، ولا مصدر ، فإذا وجد المصدران ، حكم النحاة بأن كل واحد من الفعلين أصل ، وليس بمقلوب عن الآخر ، نحو جبذ وجذب ، وأهل اللغة يقولون : إن ذلك كله مقلوب [١] » .

ويقول الحريرى : « قال شيخنا أبو القاسم الفضل بن محمد النحوى رحمه الله : فأما قولهم : جذب وجبذ ، فليست هاتان اللفظتان عند المحققين من النحويين ، من قبيل المقلوب ، كما ذكر أهل اللغة ، بل هما لغتان ، وكل واحدة منهما أصل فى نفسهما ولهذا اشتق لكل منهما مصدر من لفظه ، فقيل فى مصدر جبَذَ : جَبْذٌ ، كما قيل فى مصدر جَذَبَ : جَذْبٌ » [٢] .

* * *

---

(١) انظر : المزهر للسيوطى ٤٨١/١ وانظر كذلك : الخصائص ٦٩/٢ - ٧٠

(٢) درة الغواص فى أوهام الخواص ١١٦

٣ - أَثَرُ النِّظَامِ المَقْطَعِي

المقطع الصوتى هو : كمية من الأصوات ، تحتوى على حركة واحدة ، ويمكن الابتداء بها والوقوف عليها ، من وجهة نظر اللغة موضوع الدراسة ، ففى اللغة العربية مثلا ، لا يجوز الابتداء بحركة ؛ ولذلك يبدأ كل مقطع فيها بصوت من الأصوات الصامتة .

ويعرفه كانتينو ؛ فيقول : « إن الفترة الفاصلة بين عمليتين ، من عمليات غلق جهاز التصويت ، سواء أكان الغلق كاملا أم جزئيا — هى التى تمثل المقطع » [١] .

غير أن ڤندريس يرى أن « تعريف المقطع أمر عسير » ، فلنأخذ أبسط الحالات ، وهى الحالة التى تحتوى على سلسلة من الصوامت والحركات ، مرتبة ترتيبا تبادلياً ، مثل المجموعة الفرنسية : L'Académie des Beaux-arts منطوقة هكذا : Lekadémidébozar « لا كاديمى ديبوزار » . يمكننا من التحديد الذى حددناه فيما سبق ، للصوامت والحركات ، أن نستخلص قاعدة ، تنظم هذا التقسيم إلى مقاطع ، فالحركات تقتضى فتح الفم ، وهذا الفتح مهما اختلفت سعته ، فهو دائما أكبر من ذلك الذى يصحب الصوامت ، بل إن بعض الصوامت ، وهى الانفجارية ، لا يصحبها فتح قط ، والأخرى التى يصحبها فتح فى التجويف الحلقى ، تتميز بضوضاء احتكاكية ، مما يفترض ضيق فتح الفم نسبيا . تُقدم إذاً مجموعة الأصوات التى افترضناها سلسلة متتابعة من الفتح والتضييق ، الذى يذهب أحياناً إلى حد الإغلاق . فحالات الفتح تقابل الحركات ، وحالات الإغلاق تقابل الصوامت . وهذه

---

(١) دروس فى علم أصوات العربية ١٩١

الحقيقة تتجلى بشكل مقنع فى الصورة التى ترسمها الأسطوانة المسجلة ، فإذا تتبعنا حركة الريشة ، أمكننا قراءة التقسيم إلى مقاطع ؛ فالحركات ترسم منحنيات ، تختلف فيما بينها فى درجة الانحناء ، ويدل مكان النزول منها ، على أوقات الإغلاق التى تكون الصوامت .

« أما موضع الدقة ، فينحصر فى تحديد النقطة ، التى تبدأ وتنتهى عندها المقاطع . يرى الأستاذ : روديه M. Roudet أن التقطيع يظهر فى ثلاثة وجوه ، تبعاً لوجهة النظر التى يُرى منها ؛ فيقول : (يوجد عند الانتقال من مقطع إلى مقطع ، تغير مفاجئ ، يصيب كلا من الجهاز التنفسى ، والحركة النطقية ، والإدراك السمعى معاً) . هذا التغير الثلاثى ، يسمح فى بعض الأحوال ، بتعيين حدود المقاطع ، ويكون التقسيم تحكمياً فى أحوال كثيرة أخرى ؛ لذلك يكون من العبث أن نسعى إلى تحديده ، كما لو أردنا أن نحدد النقطة التى يوجد عندها قاع واد ، يقع بين جبلين » [١] .

وأنواع المقاطع العربية خمسة : الأول مقطع قصير مفتوح ، وهو ما تكون من صوت صامت وحركة قصيرة ، مثل : (كَ) . والثانى مقطع طويل مفتوح ، وهو ما تكون من صوت صامت وحركة طويلة ، مثل : (فى) . والثالث مقطع طويل مغلق حركته قصيرة ، وهو ما تكون من صوتين صامتين بينهما حركة قصيرة ، مثل : « (مِنْ) . والرابع مقطع طويل مغلق حركته طويلة ، مثل : (بابْ) فى الوقف . والخامس مقطع زائد فى الطول ، وهو ما بدأ بصوت صامت وتلاه حركة قصيرة ، ثم صوتان صامتان متواليان ، مثل : (بِنْتْ) فى الوقف .

ومن النظام المقطعى فى العربية : الابتعاد عن توالى أربعة مقاطع من

---

(١) اللغة لفندريس ٨٥ - ٨٦

النوع الأول ، وهذا هو السر فى تغيير نظام المقاطع ، فى الفعل الماضى الثلاثى المتصل بضمير الرفع المتحرك ، إلى مقطعين من النوع الأول ، بينهما مقطع من النوع الثالث ، مثل : « ضَرَبْتُ » ، بدلًا من توالى أربعة مقاطع من النوع الأول فى : « ضَرَبَتُ » .

والمقطع الرابع لا يجوز فى اللغة العربية الفصحى ، إلا فى آخر الكلمة فى حالة الوقف عليها ، أو فى وسطها ، بشرط أن يكون المقطع التالى له ، مبتدئا بصامت يماثل الصامت الذى ختم به المقطع السابق . وهذه الحالة الأخيرة ، هى ما عبر عنها اللغويون العرب القدامى « بالتقاء الساكنين على حدّهما » ، وهو أن يكون الأول حرف لين ، والثانى مدغماً فى مثله [1] نحو « الضالّين » و « شابّة » و « مدهامّتان » .

فإذا نشأ هذا المقطع اشتقاقياً ، فى غير هاتين الحالتين ، حولته اللغة إلى مقطع من النوع الثالث ، مثل : « يقوم » ، التى تصير عند الجزم : « لم يقمْ » ، وكان الأصل فيها : « لم يقومْ » ، غير أن المقطع : « قُومْ » هو من هذا النوع الرابع ، الذى تفر منه العربية ، وقد عمم ذلك فى حالتى الوصل والوقف هنا ، طرداً للباب على وتيرة واحدة ، فيقال : « لم يقم محمد » كما يقال : « محمد لم يقمْ » ، حين الوقف كذلك .

وهذا المقطع الرابع لا يجوز فى الشعر أصلًا ، إلا فى الوقف ، أى أنه لا يجوز فيه مثال : « الضالّين » و « شابّة » و « مدهامّتان » . وإذا كان الشعر العربى لا يقبل مثل هذا النوع من المقاطع ، فإن الشاعر إذا أراد استخدام كلمة تحتوى على هذا المقطع أقحم همزة فى الكلمة ، أو بعبارة أخرى : قسم المقطع إلى مقطعين ، مثل قول كثير :

---

(١) انظر : شرح ابن يعيش للمفصل ١٢٠/٩

وأنت ابن ليلى خير قومك مشهداً ... إذا ما احمأرّت بالعبيط العواملُ [(١)]

وقوله كذلك :

وللأرض أما سُودها فتجلّلت ... بياضاً وأما بيضها فادهأمّتِ [(٢)]

وقول شاعر من بنى أسد :

حشَّ الولائد بالوقود جنوبها ... حتى اسوأدّ من الصّلى صفحاتها[(٣)]

ومن هنا يبدو أن كل صيغة على وزن : « افعألّ » قد جاءت فى العربية ، عن هذا الطريق ، حتى ولو لم يوجد إلى جانبها صيغة « افعالّ » فى الاستعمال ، وذلك مثل : « اشمأزّ » و « احزألّ » و « اطمأن » وغير ذلك [(٤)] .

وهناك طريقة أخرى ، للتخلص من هذا النوع من المقاطع فى الشعر ، وذلك بترك التضعيف ؛ مثل قول عمران بن حطان :

قد كنتُ جارك حولا ما تروِّعُنى ... فيه روائعُ من إنس ومن جانِ [(٥)]

---

(١) انظر : ديوانه ق ٤٦/١٠ ص ٢٩٤ ولسان العرب (جنن) ٢٤٩/١٦ وعبث الوليد ٦٩ وديوان أبى محجن الثقفى ١٠٦ ويروى البيت كذلك : « إذا ما العوالى بالعبيط احمأرت » فى الخصائص ١٢٦/٣ ؛ ١٤٨/٣ وألف باء للبلوى ١٢٣/٢

(٢) انظر : ديوانه ٥٤/٤ ص ٣٢٣ وشرح شواهد الشافية ١٧٠/٤ والفائق للزمخشرى ٤٦٢/١ والممتع لابن عصفور ٣٢٢/١ وسر صناعة الإعراب ٨٤/١ ويروى : « فاسوأدت » فى الخصائص ١٢٧/٣ ؛ ١٤٨/٣

(٣) البيت فى عبث الوليد للمعرى ٦٩

(٤) انظر تفصيل القول فى هذه الظاهرة فى كتاب : فصول فى فقه العربية ١٩٣ - ٢٢٦

(٥) انظر : الكامل للمبرد ٧٠/٣ ولسان العرب (جنن) ٢٤٩/١٦

وقد تكره بعض اللهجات نوعا معيناً من المقاطع ، فتبدل به مقطعاً من نوع آخر ؛ فمثلًا يفهم من الأمثلة الكثيرة ، التى ذكرها ابن كمال باشا ، أن الحركة القصيرة فى المقطع المفتوح ، قبل مقطع مغلق ، كانت غير مستحبة عند العوام فى عصره ؛ ولذلك نجد أن هذا المقطع المفتوح ، يغلق بتشديد الحرف التالى له ، مثل : « البُصّاق » فى : « البُصَاق » ، و « أدويّة » فى : « أدوية » ، « قضّاة » فى « قضَاة » ، و « الكراهيّة » فى : « الكراهية » [١] .

وقد حدثت هذه الظاهرة من قبل فى الآرامية ، فى المقطع المفتوح ذى الحركة القصيرة ، إن أريد لهذه الحركة أن تبقى ، فى مثل leššānā (ܠܫܢܐ) « لسان » ، ومثل : yammīnā (ܝܡܝܢܐ) « يمين » [٢] .

بل لقد شاع عند العوام فى عصرنا الحاضر ، الميل إلى إغلاق المقاطع المفتوحة قصيرة كانت أم طويلة ، مثل قولهم : « حافّة النهر » فى : « حافَة » ، و « خُرّاج » للدمّل الكبير ، فى : « خُراج » ، و « دُخّان » فى : « دُخَان » ، و « لِثّة » فى : « لِثَة » [٣] وغير ذلك .

ومن أمثلة ذلك أيضا قولنا : « بَلُّوعة » فى : « بالُوعة » ، و « تَمُّوز » فى : « تاموز » ، وهى كلمة آرامية : (ܬܡܘܙ) تعنى : شهر « يولية » من شهور السنة .

* * *

---

(١) انظر : التنبيه على غلط الجاهل والنبيه ٧ ؛ ١٣ ؛ ١٤ ؛ ١٥ ؛ ٢١ ؛ ٢٢

(٢) انظر : مقالتنا « أبنية الفعل فى اللغات السامية » ٦٢

(٣) انظر كذلك : عثرات اللسان لعبد القادر المغربى ٨٧ ؛ ٩٠ ؛ ٩١ ؛ ١٠٨

٤ القِيَاسُ (Analogie)

تبدأ مراحل النمو اللغوى عند الطفل ، بأن يسمع من الكبار حوله ، كتلا لغوية أو عبارات كاملة ، فيلتقطها عبارة عبارة ، وكتلة كتلة ، دون تحليل لعناصرها المختلفة ، بل يربط بينها وبين ما يترتب عليها من الأحداث حوله ، وتبدأ عملية التحليل اللغوى عند الطفل ، عندما يتكرر سماعه للكلمات المختلفة فى جمل متعددة ، وعبارات شتى ، فيقوم عندئذ بعملية اختزان للكلمات ، فى مجاميع خاصة بها فى ذاكرته ، ليستخدمها عند الحاجة إليها ، غير أنه يحدث أحياناً أن يفتقد فى ذخيرته اللغوية ، ما يحتاج إليه من الكلمات ، فلا يجده فيها ، بمعنى أنه قد يصادف شيئاً ، لم يسمع كلمة تدل عليه ، فسرعان ما يخترع كلمة من عنده ، بالقياس على ما لديه من كلمات تشبهها ، فيضع مثلا كلمة : مسّاحة (للأستيكة !) أو : وقّافة (للفرملة !) أو : نضّافة (للفرشاة !) وغير ذلك .

وهكذا « يخلق الأطفال فى مرحلة تعلّمهم للغة ، عدداً كبيراً من الصيغ الجديدة ، وذلك باستجابتهم لداعى القياس ، ولكن الجزء الأكبر من هذه المبتكرات يُصلح فيما بعد ؛ لأنها فى غالب الأحيان ، ليست إلا عوارض فردية ، ناتجة عن حسّ غير صائب ، أو عن معرفة ناقصة باللغة ، ولكن بعضها ينطبق مع الحسّ اللغوى العام انطباقاً يجعلها تنتهى بالاستقرار ، وقد يحصل أن يتجه فجاءة جميع الأفراد من جيل واحد ، إلى الوقوع فى غلطة بعينها ، تفرض نفسها عليه ، كأنها قانون ، وتصير قاعدة ، وعندئذ يصبح كل مجهود ، يقوم به المدرس فى المدرسة عبثاً ، وهناك تراكيب بادية الخطأ ، شائعة الاستعمال ، حتى بين المثقفين ، وفى الأقطار التى يطغى فيها أثر النحاة ، لا تستسلم اللغة لفعل القياس

إلا بصعوبة ؛ إذ تخنق المبتكرات القياسية فى مهدها ، ولا تستطيع الحياة »[١] .

وليس كل ما ننطق به قد سمعناه من قبل ، بل للقياس أثره الكبير فى كلامنا . ونحن إذا سمعنا متحدثاً ينطق بصيغة من الصيغ ، فمن الصعب الحكم على ما إذا كانت هذه الصيغة ، قد سمعها ذلك المتحدث من قبل ، أو أنها بنت الساعة ، قد كوّنها هو على قياس ما سمع من قبل ، ومن الصعب أن نحكم بهذا أو بذاك على الأخص ، عندما يكون القياس صحيحاً ، موافقاً لما تتطلبه اللغة وشاع فيها ، أما إذا خالف هذا القياس ما شاع فى اللغة ، فإننا حينئذ نعلم أنه من عمل الفرد ، وليس مما سمعه من قبل . وهذا هو ما يسميه اللغويون المحدثون باسم : « القياس الخاطئ » Falsche Analogie .

وهذا المصطلح « يراد به : الميل العارض – الذى لا يمكن التنبؤ بحدوثه – من كلمة أو صيغة ، إلى الخروج عن مدارها الطبيعى ، فى التطور والدخول فى طبيعة كلمة أو صيغة أخرى ، لوجود مشابهة حقيقية أو متوهمة بينهما »[٢] .

« والقياس يتوقف إلى حد ما ، على قانون الاقتصاد فى المجهود (أى قانون السهولة والتيسير) ، الذى يتجنب إثقال الذاكرة بمتاع غير مفيد ، والصيغ التى يقصيها القياس ، صيغ عليلة ، بمعنى أنها غير مضمونة من الذاكرة ، لندرة استعمالها ، والقياس لا يستطيع التغلب ، إلا عند ضعف الذاكرة ، فالصيغة الشاذة النادرة الاستعمال ، تنسى وتصاغ من جديد ، تبعاً للقاعدة المطردة »[٣] .

---

(١) اللغة لفندريس ٢٠٧

(٢) أسس علم اللغة ، لماريوباى ١٤١

(٣) اللغة لفندريس ٢٠٦

وقد ثبت من تتبع حياة اللغات « أن الاختلاف فى حياة اللسان ، أقدم من الاتفاق فى أكثر الحالات » [١] ، وهنا يأتى القياس اللغوى ، ليلغى هذه الاختلافات ، ويقيس بعض الأمثلة على بعض ، فتتوحد الظاهرة عن هذا الطريق .

مثال ذلك : ثبت من مقارنة اللغات السامية ، أن الأصل فى ضمير المتكلم هو الكاف ، والأصل فى ضمير الخطاب هو التاء ؛ لأن التكلم جنس يختلف عن جنس الخطاب ، ومن الطبيعى أن يوضع لكل جنس ، ضمير يخالف ضمير الجنس الآخر ، أى أن الأصل أن يقال مثلا : « ضَرَبْكُ — ضَرَبْتَ — ضَرَبْتِ » ، غير أن القياس أدى إلى تسوية هذا الاختلاف ، فسادت الكاف وحدها فى الحبشية ؛ ففيها مثلا يقال : « قَتَلْكُو — قَتَلْكَ — قَتَلْكِى » ، وفى العربية والآرامية والعبرية ، سار القياس فى اتجاه آخر ، فسادت التاء ؛ إذ يقال فى العربية مثلا : « قتلتُ — قتلتَ — قتلتِ » [٢] .

وهذا مثال آخر لأثر القياس فى التطور اللغوى : فالأصل فى لام الجر هو الفتح ، والأصل فى باء الجر هو الكسر ، بدليل وجود هذا الأصل فى اللغات السامية الأخرى ، وبدليل الاحتفاظ به فى العربية ، عند الاتصال بالضمائر ، فى مثل : « لَهُ » و « بِه » ، أما كسر اللام فى مثل : « لِلرَّجل » و « لِلناس » فى العربية ، فإن سببه هو القياس على باء الجر .

وما النصب « بما » عند الحجازيين » ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ ما هذا بشراً ﴾ ، إلا أثر من آثار قياس « ما » على « ليس » ؛ إذ المعنى فيهما سواء .

---

(١) التطور النحوى لبرجشتراسر ٧٧

(٢) انظر : Brockelmann, Semitische Sprachwissenschaft صفحة ٢٨

وقد ذكرنا هنا من قبل أن كلمة : « أشياء » هى الوحيدة الممنوعة من الصرف فى العربية الفصحى القديمة ، من بين الكلمات الكثيرة التى تأتى على هذا الوزن ، وذكرنا رأينا فى تفسير هذه الظاهرة فى القديم .

أما فى العصر الحديث : فإننا نرى تأثيرا كبيرا لهذه الكلمة على الكلمات التى من وزنها ، فى الفصحى المعاصرة . وقد بدأ هذا القياس يعمل عمله أولا فى الكلمات المنتهية بالهمزة ؛ فقد استمعت إلى مذيع بإذاعة الرياض فى التاسعة فى صباح ١٩٧٤/١/١٩ م يقول : « واستمعتم فى النشرة إلى أنباءَ أخرى متفرقة » . وفى تليفزيون الرياض فى التاسعة والنصف من مساء السبت ١٩٧٤/١/٢٦ م قال المذيع : « تتكون السحب على أنحاءِ متفرقة فى البلاد » . وفى إذاعة الرياض يوم ١٩٧٥/٣/٤ م قال المذيع : « وقد اعترضت تركيا على أجزاءَ مختلفة من مشروع القرار » . وتحدث الأستاذ محمد عبد الرحمن الشعلان ، فى نشرة أخبار تليفزيون الرياض يوم الأربعاء ١٩٧٧/٣/٢٣ م عمن « خرجته الكلية من ضباط أكفاءَ يخدمون وطنهم » . وفى إذاعة ركن السودان بالقاهرة ، فى صباح يوم ١٩٧٧/١٠/٦ م قال المذيع : « وإنما يعنى هذا رفع أعباءَ وضغوط عن كاهل المواطن » . وفى إذاعة القاهرة صباح أول نوفمبر ١٩٧٨ م قال المذيع : « فى أنحاءَ متفرقة من بلاد العالم » .

ثم زحف هذا القياس رويدا رويدا ، وغطى شيئا من وزن (أفعال) غير المهموز الآخر ؛ ففى مسرحية : « الفتح الأكبر » بتليفزيون القاهرة فى العاشر من رمضان ١٣٩٧ هـ الموافق ١٩٧٧/٨/٢٥ م ، قال أحد الممثلين : « لا تذكّرنى بأقدارَ كتبت علينا » . وفى إذاعة القاهرة فى صباح أول نوفمبر ١٩٧٨ م ، تحدّث المذيع عن « غزو أسواقَ جديدة » . وجاء على

لسان السيد أحمد العماوى فى عيد العمال يوم الأحد ١٩٨٨/٥/١ م ، فى الاحتفال المذاع تليفزيونيا ، عبارة : « وفتحُ أسواقَ جديدة » . وفى مهرجان المربد الشعرى ببغداد فى نوفمبر ١٩٨٨ م ، جاء على لسان أحد أساتذة الجامعة منع صرف كلمتى : « أحداث » و « أشخاص »

وقد امتدت جناية « أشياء » على غيرها ، إلى إذاعتى طنجة والرباط ، فقيس عليها فى المنع من الصرف ، كلمات مهموزة الآخرة ؛ مثل : أنباء وأكفاء وأصداء وأرزاء وأنداء وأعداء ، كما قيس عليها كلمات أخرى غير مهموزة مثل : أقوال وأهوال وأصحاب وأخيار وأشرار (انظر : المنهل المغربية / العدد ٢٨/ديسمبر ١٩٨٣ م . ص ٤٢ – ٤٣) .

* * *

غير أن للقياس أثراً آخر ، فى منع القانون الصوتى أحياناً ، عن أن يؤدِّى وظيفته ؛ فإن صيغ تصريف وزن معين ، توجد فى الذهن فى مجموعات مترابطة ، فلو جاء القانون الصوتى وأراد أن يعمل ، وكان من جراء عمله الإخلال بذلك الترابط ، فإن القياس يلغى القانون الصوتى ؛ بسبب ما يسمى « بطرد الباب على وتيرة واحدة » .

ويقول فى ذلك ڤندريس : « حالات الاستثناء من التغيرات الصوتية ، أمر لا يستطاع تجنبه .. وكثير منها يرجع إلى تلك التأثيرات الداخلية ، التى تتلخص فيما يسمونه القياس . وينحصر القياس فى أن التغيير الذى يفرضه القانون الصوتى ، على كلمة من الكلمات ، قد يتوقف أو يُعدّل ، تحت تأثير كلمات أخرى من اللغة .. فالقياس لا يكف عن أن يصحح أثر القوانين الصوتية ، أو أن يعوقها ، فكثيراً ما يعرقل تطور الأصوات فى سيره المطرد ، مما جعل عالماً اشتقاقيا لامعاً ، محباً للنظام والوضوح ، تعتريه نوبات من الغضب ، من جراء تخريبات القياس ، والواقع أنه لا تكاد تمر عملية

صوتية ، دون أن يصيبها منه بعض الاضطراب ، إن قليلا وإن كثيراً » [١] .

ومن أمثلة نقض القياس ، لما يطلبه القانون الصوتى ، أن هذا الأخير ، يطلب أن ينطق الفعل : « عبد » مثلًا ، عند إسناده إلى تاء الفاعل ، هكذا : « عَبَتُّ » بإدغام الدال فى التاء ، تبعاً لقانون المماثلة ، أو التأثر المدبر الكلى فى حالة الاتصال ، الذى تحدثنا عنه من قبل ، غير أن القياس على باقى صيغ تصريف هذا الفعل ، مثل : « عبدوا » و « عبدا » ، يحتم الإبقاء على الدال ، لكى يطرد الباب على وتيرة واحدة ، وعندئذ نرى العرب ، يفصلون بين صوتى الدال والتاء هنا بحركة مخطوفة ، هى ما سماها اللغويون العرب فيما بعد « بقلقلة » [٢] الدال ، حتى لا تتأثر صوتياً بالتاء ، فيقولون : « عَبَدِتُ » .

* * *

وقد يكمل القياس الطريق الذى بدأه القانون الصوتى ، أى أن القانون الصوتى يؤثر فى بعض أمثلة الظاهرة اللغوية ، ثم يَطْرِد القياس الباب على وتيرة واحدة ، فى الأمثلة الباقية .

فمثلا : مضارع وزن « أَفْعَلَ » المسند إلى ضمير المتكلم ، مثل : « أُكْرِمُ » ، الأصل فيه : « أُؤكرم » فتوالى فيه مقطعان متماثلان ، وقد عرفنا من قبل أن العربية تفرّ من توالى الأمثال ، فتحذف أحد المقطعين المتماثلين ، وبذلك يصبح الفعل : « أُكرم » ثم تقاس باقى صيغ المضارعة على هذه الصيغة ، طردا للباب على وتيرة واحدة .

---

(١) اللغة لفندريس ٧٩ — ٨٠

(٢) يقول حفنى ناصف (حياة اللغة العربية ٢٠) عن القلقلة : « وحروفها : قطب جد ، فإذا وقفت على حرف منها ، يجب قلقلته قليلا من موضعه ، كأنك تحركه تحريكاً خفيفاً » .

وقد فطن إلى هذا ابن جنى ، فقال : « قولهم : أنا أكرم ، حذفوا الهمزة التى كانت فى : (أَأْكْرَمَ) ، لئلا يلتقى همزتان ، لأنه كان يلزم ، أنا أؤكرم ، فحذفوا الثانية ، كراهة اجتماع همزتين ، ثم قالوا : نكرم ، وتكرم ، ويكرم ، فحذفوا الهمزة ، وإن كان لو جاءوا بها ، لما اجتمع همزتان ، ولكنهم أرادوا المماثلة ، وكرهوا أن يختلف المضارع ، فيكون مرة بهمزة ، وأخرى بغير همزة ، محافظة على التجنيس فى كلامهم » [١] .

والدليل كذلك على أن « يُكرم » أصلها : « يؤكرم » ، فعل الأمر منها ، وهو : « أَكْرِمْ » بهمزة القطع .. وكنا فى انتظار همزة الوصل ، بناء على قاعدة أخذ الأمر من المضارع .. ويبدو أن اشتقاق الأمر من المضارع هنا ، قد تم قبل سقوط المقطع المتماثل منه [٢] .

وإذا كان الفعل الناقص المسند إلى الغائبة ، قد تحول من : (رماتْ) مثلًا ، إلى (رَمَتْ) بسبب تجنب المقطع الرابع ، الذى تحدثنا عنه من قبل ، فإن هذا الفعل الناقص نفسه ، إذا أسند إلى الغائبتين ، لا ينشأ فيه هذا المقطع الرابع ، وليس هناك قانون صوتى ، يؤدى إلى تحول : (رماتا) مثلًا ، إلى (رَمَتا) ، وإنما هو أثر القياس على الفعل المسند للغائبة ، وطرد للباب على وتيرة واحدة .

كما أن كراهة توالى أربعة مقاطع من النوع الأول ، هو المسئول عن تطور : « ضَرَبْتُ » مثلًا عن : « ضَرَبَتُ » — كما عرفنا من قبل ، أما مثل : « استخرجت » مثلا فليس فيه توالى هذه المقاطع الأربعة ، وإنما المسئول عن

---

(١) المنصف لابن جنى ١٩٢/١ وانظر مقالتنا : كراهة توالى الأمثال فى أبنية العربية ١٩ — ٢١ وبحوث ومقالات فى اللغة ٢٧ — ٥٦

(٢) انظر كذلك : أبحاث فى اللغة العربية ، للدكتور داود عبده ١٩ — ٢٠

تسكين لام الفعل فيه ، هو القياس على باقى صيغ الأفعال ، وطرد الباب فيه على وتيرة واحدة .

وقد أشار ابن السراج إلى ذلك فى قوله : « وأما لام يَفْعَلْن ، فإنما أسكنت تشبيهاً بلام فَعَلْنَ ، وإن لم يجتمع فيه أربع متحركات ، ولكن من شأنهم إذا أعلوا أحد الفعلين لعلة ، أعلوا الفعل الآخر ، وإن لم تكن فيه تلك العلة » [١] .

ومن أمثلة طرد الباب على وتيرة واحدة كذلك ، ما تفعله قبيلة «كلب» فى هاء الضمير المتصل : « هم » ، إذ يكسرونه فى كلامهم مطلقاً ، فيقولون : « منهِم » و « عنهِم » و « بينَهِم » ، والعربية الفصحى تبقى الحركة الأصلية لهذا الضمير ، وهى الضم ، إلا إذا وقع بعد كسرة قصيرة أو طويلة أو ياء ، بسبب قانون المماثلة ، وهو هنا من التأثر المقبل الكلى فى حالة الانفصال - كما ذكرنا من قبل ، أما بنو كلب ، فإنهم يطردون الباب على وتيرة واحدة ، فى هذا الضمير ، فيكسرون هاءه مطلقاً ، سواء سبق بكسرة أو ياء ، أم لم يسبق بواحدة منهما ، فهم يجرون قانون المماثلة ، فيما سبق بكسرة أو ياء كما فى الفصحى ، ويجرون القياس على ذلك ، فيما لم يستوف هذ الشرط . وهذه الظاهرة هى التى تسمى عند اللغويين العرب بظاهرة : « الوهم » [٢] .

ومن أمثلة ذلك أيضا : فتح عين مضارع (فَعَلَ) قبل حروف الحلق فى العربية واللغات السامية ، فالفعل الماضى : « فَتَحَ » مثلا ، كان المفروض أن يكون مضارعه « يَفْتُح » أو « يَفْتِح » بضم العين أو كسرها ،

---

(١) انظر : الأصول لابن سراج ١/٥٠

(٢) انظر كتابنا : فصول فى فقه العربية ١٥٢ - ١٥٣

تبعا لقانون المغايرة (Polarity) فى اشتقاق المضارع من الماضى [١] ، غير أنها تحولت إلى فتحة ، لوقوعها مع صوت الحلق فى مقطع واحد ، وسبب هذا التحول « أن اللسان فى نطق الحروف الحلقية ، يُجذب إلى وراء مع بسط وتسطيح له ، وهذا عين وضعه فى نطق الفتحة [٢] » .

وقد حدث هذا التطور الصوتى هنا ، أول ما حدث ، فى صيغة المضارع المجزوم بالسكون ، إذ فيه وحده تقع الحركة مع صوت الحلق فى مقطع واحد ، ثم طرد القياس الباب على وتيرة واحدة ، فى المضارع المرفوع والمنصوب ، والذى تحرك فيه حرف الحلق ، بسبب اتصاله بالنهايات ، مثل : يفتحُ ، ويفتحَ ، ويفتحون ... إلخ .

* * *

وقد يودى القياس إلى نشوء كلمات جديدة فى اللغة ، فإن بناء : «اتّبع» من : « تبع » مثلا ، أدى إلى توهم أن « اتخذ » مأخوذة من : « تخذ » مع أنها من : « أخذ » ، وبذلك نشأت كلمة جديدة هى : « تَخِذَ » واستخدمها الشعراء ، كقول الممزق العبدى :

وقد تَخِذتْ رجلى إلى جنب غرْزها نسيفاً كأفحوص القطاة المطرِّق [٣]

وقد فطن إلى هذا الجوهرى فقال : « والاتخاذ افتعال من الأخذ ، إلا أنه أدغم بعد تليين الهمزة ، وإبدال الياء تاء ، ثم لما كثر استعماله على لفظ الافتعال ، توهموا أن التاء أصلية ، فبنوا منه : فَعِل يَفْعَل ، قالوا : تَخِذَ يَتْخَذُ » [٤] .

---

(١) انظر : من أسرار اللغة (ط ٣) صفحة ٣٣

(٢) التطور النحوى ، لبرجشتراسر ٦٣

(٣) الأصمعيات ق ٨/٥٨ ص ١٨٩

(٤) الصحاح للجوهرى (أخذ) ٥٥٩/٢ وانظر على العكس من ذلك رأى ابن جنى فى الخصائص ٢٨٧/٢ وكذلك مجالس العلماء للزجاجى ٣٣٣

أما الأصمعى ، فإنه تردد فى هذه الكلمة ، بين أن تكون بناء مستقلا ، بمعنى : « قَبِل » ، وأن تكون مأخوذة من : « اتخذ » ، قال تلميذه أبو حاتم : « وسألته عن : تَخِذْت ، ما معناه ؟ قال : قبلت ، ولم أسمعه من العرب . قال : وقول الممزق العبدى :

وقد تخِذَتْ رجلى إلى جَنْب غَرْزها نسيفاً كأفحوص القطاة المطرِّق

معناها هاهنا : اتَّخَذَتْ ، وأما الذى قال فى معنى : قَبِلْتَ ، فمثل الذى فى القرآن : ﴿ ولو شئتَ لتَخِذْتَ عليه أجراً ﴾ ، ولم يكن يجيب فى القرآن ، إلا ساهيا أو ناسياً » [١] .

وهذا القياس الخاطئ ، هو المسئول كذلك عن استخدام : « تَقِىَ » بمعنى : « اتَّقى » ، فى قول عمرو بن قميئة :

فلو أننى أُرمى بسهم تَقِيتُه ولكنّنى أُرمى بغير سهام [٢]

ومضارعه على هذا النحو الذى شرحناه ، هو : « يَتْقَى » . وذلك على العكس مما ذهب إليه أبو زيد الأنصارى ، من قوله : « وقد يحذف قوم التاء الأولى فى : (يتَّقِى) ، فقالوا : (يَتَقِى) ، وأنشد وهو ساعدة بن جؤية الهذلى :

يَتَقِى به نَفَيانَ كلِّ عشيّة فالماء فوق سَرَاته يتصبَّبُ [٣] »

---

(١) فعلت وأفعلت ، لأبى حاتم السجستانى ١٤٠ - ١٤١

(٢) تصحيح الفصيح لابن درستويه ٢٩٩/١ وقد روى فى ديوانه ق ١٢/٣ ص ٣٩ برواية أخرى هى :

فلو أنها نبل إذن لاتقيتها ولكننى أرمى بغير سهام

(٣) النوادر فى اللغة ٤

ويبدو أن أبا زيد لم يقف على سر هذه الظاهرة ، فوهم فى روايته لهذا البيت .والصواب : « يَتْقَى » ، مضارع » : « تَقِىَ » على مثال : « تبع يتبع » ، عن طريق القياس . ووزن البيت لا يمنع من هذا الضبط ، الذى نظنه صوابا .

وقد تابع السكرى [١] أبا زيد ، فى ضبط الكلمة ، وقال : إنها لغة لهذيل ، واستشهد ببيت آخر لخفاف بن ندبة ، وهو :

جلاها الصَّيقلون فأخلصوها   خِفافًا كلهًّا يَتَقِى بأثْر [٢]

وهى رواية مغيّرة كذلك ، والصواب أنها بسكون التاء من : « يَتْقى » ، كما فى سمط اللآلى ٧٥٢/٢ والصحاح (وقى) ٢٥٢٧/٦ والمعانى الكبير ١٠٧٨/٢ .

وهذا يعنى أننا أمام مثال واضح من أمثلة القياس الخاطئ . وقد ذكر أبو زيد مثالا صحيحا للظاهرة ، فى قوله : « يقال : تَجِهَ يَتْجهُ تَجَهاً ، على وزن : فزِع يفزَع فَزَعًا ، إذا واجهه [٣] » .

وفيه يتضح القياس الخاطىء للفعل : « اتّجه » على : « اتّبع » وبناء « تَجِهَ يَتْجَهُ » منه ، على نمط : « تَبع يَتْبَع » ، كما ترى !

ولاشك أن هذا هو الطريق ، الذى وصلت إلينا عنه كلمات أخرى ، مثل : « التكلان » من « وكل » ، و « التُّخمَة » من الطعام الوخيم ، و « التقوى » من « وقى » و « التراث » من « ورث » ، و « تُجاه » من « وجه » ، و « التكأة » من « توكأ » ، و « التالد » و « التليد » من

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١١٠٠/٣

(٢) رواية العجز مختلفة فى ديوان خفاف بن ندبة ق ١٨/٥ ص ٥٣

(٣) النوادر فى اللغة ٧

« ولد » ؛ لأن معناه : المال المولود عند أصحابه ، وغير ذلك [١] .

ويسمى « برجشتراسر » ذلك النوع من القياس ببناء الأبنية ، حيث يقول : « ذكر الزمخشرى مثلا أن التاء فى كلمة : « تهمة » أبدلت من الواو ، وهذا هو عين الصواب ، إلا أن التغير ليس من التغيرات الصوتية المحضة ، كما رأى هو ، وإنما أبدلت الواو بالتاء ، بواسطة بناء الأبنية ، وذلك أن الافتعال من : وهم ، هو : اتّهم ، بقلب الواو تاء بالتشابه ، ثم إدغامها فى تاء الافتعال ، واتهم كاتبع فى مظهرها ، فظنوا أنها من : تَهم ، كتبع ، فاشتقوا منها كلمات عديدة ، فاؤها التاء ، منها التهمة » [٢] .

* * *

وللقياس أثر كبير فى تطور الصيغ والدلالة فى بعض الأحيان ، فتشابه كلمة : « سراويل » وهى للمفرد فى اللغة الفارسية ، بصيغة من صيغ الجمع المكسر فى العربية وهى صيغة : « فعاليل » ، جعل العرب يقيسونها على تلك الصيغة من صيغ الجمع ، ويشتقون لها مفرداً ، قياساً على مفردات ذلك الجمع ، فيقولون : « سروال » [٣] .

ومثل ذلك تماماً ، ما حدث فى الكلمة الإغريقية : Paradeisos فإنها مفرد ، غير أن مشابهتها للجمع : « فعاليل » جعل العرب يشتقون منها مفرداً ، هو : « فردوس » . وكذلك كلمة : Khronos فى الإغريقية ،

---

(١) انظر : القلب لابن السكيت ٦٢ — ٦٣ والإبدال لأبى الطيب ١/١٤٩ واللسان (تقى) ١٨/١١٠ (وقى) ٢٠/٢٨٣ وانظر كذلك : معانى القرآن للفراء ٢/٥١

(٢) التطور النحوى للغة العربية ٥١ — ٥٢

(٣) يقول الأزهرى : « جاء السراويل على لفظ الجماعة ، وهى واحدة ، وقد سمعت غير واحد من الأعراب يقول : سروال ، انظر : تهذيب اللغة ١٢/٣٩٠

والكلمة الألمانية : Groschen التى دخلت العربية بطريق التركية - هاتان الكلمتان مفردتان فى لغتيهما ، غير أنهما تشابهتا فى العربية ، مع صيغة الجمع : « فُعول » ، فاشتق منهما مفردان جديدان هما : قرن (من الزمان) ، وقرش (من القروش) .

ومما تطورت دلالته بسبب القياس : كلمة « عتيد » ، فقد شاعت هذه الكلمة بين المثقفين العرب ، بمعنى : « عتيق قديم » أو « جبار قوىّ » . وهذا المعنى لم يكن للكلمة فى الأصل ، إذ إن معناها فى العربية الفصحى : « حاضر » ، فيقال : « هذا شىء عتيد » ، يعنى : مُعدٌّ حاضر ، وفى القرآن الكريم : ﴿ ما يَلْفِظُ من قول إلا لَدَيْه رقيب عتيد ﴾ [سورة ق ١٨/٥٠] أى حافظ حاضر ، يسجل عليه كل شىء ، وفيه كذلك : ﴿ وقال قرينه هذا ما لدى عتيد ﴾ [سورة ق ٢٣/٥٠] ، يعنى : قال الملك الموكل به هذا ما عندى من كتابة عمله معدّ محفوظ حاضر .

ويقول الجوهرى : « العتيد : الشىء الحاضر المهيأ ، وقد عتَّده تعتيدا ، وأعتده إعتادا ، أى أعده ليوم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وأعتدت لهن متكأ ﴾ أى : أعدّت ، وهيأت ، وحضّرت » (١) .

وقد وردت فى كلام لابن جنى بهذا المعنى ؛ فى قوله : « فإن الجواب عن هذا حاضر عتيد ، والخطب فيه أيسر » (٢) . كما وردت بهذا المعنى كذلك فى أشعار القدماء بكثرة ، كما فى قول نفيل بن عبد العزى :

وكيف أخافُ أو أخشى وعيداً ونصرُهم إذا أدعو عَتِيدُ (٣)

---

(١) الصحاح (عتد) ٥٠٢/١

(٢) الخصائص ٢٩٨/١

(٣) حماسة ابن الشجرى ٦/١ والحماسة البصرية ٨١/١

وقول أبى محمد اليزيدى :

سيُفنيك ما أفنى القرونُ التى خَلَتْ فكن مستعداً فالفناءُ عتيدُ [١]

وقول مطيع بن إياس :

إذا عَسُر الخير فى المُجْتَدِينَ كان لديه عتيداً يسيرَا [٢]

والسر فى شيوع هذا الخطأ بين الناس ، أن كلمة : « عتيد » تشترك فى معظم أصواتها ، مع كلمتين أخريين ، هما : « عتيق » و « عنيد » ، فقيست قياساً خاطئا فى معناها عليهما .

وقد كتب لى بعض الطلبة بحثاً ، قرأت فيه : « فى القرآن تقريظ للكفار » وهو يقصد : « تقريع للكفار » ، فقد اشتبه على هذا الطالب : التقريع بالتقريظ ؛ لاشتراكهما فى أكثر الأصوات ، فقاس الواحدة على الأخرى فى المعنى ، قياساً خاطئاً .

كما سمعت خطيباً يقول : « تِبْعاً لكذا » بدلا من : « تَبَعاً لكذا » ؛ يقيسها على : « طِبْقاً لكذا » . وما شيوع : « عَرِفْت » بكسر الراء ، إلا لقياسها على : « عَلِمْتُ » كما يشيع فى السعودية جمع « مدير » على « مُدراء » قياساً على مثل : « كريم » و « كرماء » ، وهى ليست على « فعيل » كما توهموا . وفى تليفزيون الرياض ، وصفت إحدى المذيعات « البخل » بأنه « بخل مُدقع » ، وهذا قياس على : « فقر مدقع » ، أى شديد ملصق بالدقعاء ، وهى التراب .

وماجمع « أبله » على : « بُلهاء » فى الفصحى المعاصرة إلا أثر من

---

(١) نزهة الألباء ٨٤

(٢) شعراء عباسيون ق ١١/٣٩ ص ٥٣ والأغانى ٣٠٣/١٣

آثار القياس الخاطىء على : « بليد » و « بلداء » ، لأن معنى الكلمتين واحد ، على وجه التقريب .

وقد ذكر لى أخى الدكتور على هنداوى ، أن ابنته « رئم » جمعت كلمة : « كلب » ذات يوم ، على : « كَلْبِين » ، قياسا على : « حِلْو » و«حِلْوِين » !

كما قاست إحدى مذيعات التليفزيون المصرى (عصر يوم ١٩٨٥/١١/٢٤ م) الفعل المضارع المسند إلى ألف الاثنين على المثنى ، فقلبت ألفه ياء ، للدلالة على المفعولية ، فى قولها : « ولكن ما الذى جعل الأبوين يتعرَّفَيْن على الصغار » ؟

وفى كتب لحن العامة أمثلة أخرى كثيرة ، لأثر القياس فى تطور الصيغ والدلالات ؛ فمن كتاب الجمانة فى إزالة الرطانة ، نعرف أن الناس فى القرن التاسع الهجرى ، كانوا يشددون ياء التصغير فى مثل : « جُمَيِّل » و « كُلَيِّب » ، وسبب ذلك هو القياس على ما ثالثه حرف مد ، مثل : « غُلَيِّم » فى « غلام » . كما أثر القياس كذلك فى جمع : « وَصِيف » على « وُصْفَان » ، فقد قيس الوصف على الاسم ، مثل : « رغيف » و « رغفان » ؛ لأن الأصل أن يجمع « فَعيل » على « فُعلان » إن كان اسماً ، وعلى « فُعَلاء » إن كان صفة ؛ مثل : كَرِيم وكرماء – ومن أمثلة القياس فى هذا الكتاب أيضاً : تصغيرهم : « يد » على « يُديدة » ، وذلك لأنهم يشددون الدال ، فتقاس على كلمة : « سِنّ » و « سُنينة » ، وقد تنبه لذلك المؤلف فقال : « وإنما بنوا هذا التصغير على قولهم فى المكبّر : يدّ ، بالتشديد ، فيجعلون لامها دالا » [١] .

---

(١) انظر : لحن العامة والتطور اللغوى ٢٨١

كما ذكر اليازجى (المتوفى سنة ١٣٢٤ هـ) أن الناس يقولون : « باع طُولى » والباع مذكر ، وهذا من أثر القياس على عبارة : « له اليد الطولى » . كما حكى عنهم قولهم : « مرت عليه كرور الزمان » على توهم أن « الكرور » جمع ، فأنث له الفعل ؛ لأن « الفُعول » صيغة تأتى للمصدر ، كالسرور والجلوس ، وللجمع كالهموم والنجوم . ومثل ذلك ما رواه عنهم فى قولهم : « ليس زيد ليفعل » فهو قياس منهم على : « لم يكن زيد ليفعل » [١] ، وغير ذلك .

وقد عرف قدماء اللغويين العرب هذه الظاهرة ، ظاهرة القياس الخاطئ ، وسموها : « التوهّم » أو « الحمل » أو « القياس الخاطئ » أيضا ؛ يقول سيبويه مثلا : « فأما قولهم : مصائب ، فإنه غلط منهم ، وذلك أنهم توهموا أن مُصيبة فعيلة ، وإنما هى مُفْعِلَة » [٢] .

ويقول ابن هشام فى تذكرته : « رَضِىَ عَدَّوها بعَلَى ، حملًا على سخط ، قاله الكسائى » [٣] . كما يقول ابن خالويه فى شرح الفصيح : « كان الفراء يجيز كسر النون فى : شتّان ، تشبيهاً بسيّان ، وهو خطأ بالإجماع ، فإن قيل : الفراء ثقة ، ولعله سمعه ! فالجواب : إن كان الفراء قاله قياساً ، فقد أخطأ القياس ، وإن كان سمعه من عربى ، فإن الغلط على ذلك العربى ، لأنه خالف سائر العرب ، وأتى بلغة مرغوب عنها » [٤] .

* * *

---

(١) انظر : لحن العامة والتطور اللغوى ٣٢٥ .

(٢) كتاب سيبويه ٣٦٧/٢ وانظر كذلك : المنصف ٣٠٧/١

(٣) عن الأشباه والنظائر للسيوطى ١٩٦/١ وانظر : الخصائص ٣١١/٢ ؛ ٣٨٩/٢

(٤) عن الأشباه والنظائر للسيوطى ٥٠٤/٢

٥ - الحَذْلَقَةُ أو المُبالَغَةُ فى التَّفَصُّحِ

الحذلقة ، والمبالغة فى التفصح ، والتقعر فى الكلام ، كلها اصطلاحات من وضعنا نحن ، لما يقابل فى اللاتينية كلمة : Hyperurbanismus وفى الإنجليزية كذلك كلمة : Overcorrectness وهو اصطلاح اتخذ لدى علماء اللغة ، للصيغ التى تنتج بسبب الحرص الشديد ، على محاكاة اللغة الأدبية ممن لا يجيدها ، فهو يحاول أن يرد العامية التى يتحدث بها ، إلى نمط اللغة الأدبية ، وهو فى محاولته هذه لا يفرق بين الظواهر الجديدة والقديمة فى العامية ، فإذا رد كلمة جديدة إلى أصلها القديم أصاب ، أما إذا فعل مثل ذلك مع الكلمات ، التى احتفظت بالأصل القديم ، وشابهت مع ذلك الجديد ، فإنه يكون حينذاك متقعراً ومتحذلقاً . وذلك كمن يعرف أن الصوت المركب (aw) مثلا فى العربية الفصحى ، يقابله فى العامية حركة الضم الممالة (ō) ، وذلك مثل : « صُوم » فى « صَوْم » و « عُوم » فى « عَوْم » و « نُوم » فى « نَوْم » و « يُوم » فى « يَوْم » ؛ فهو إذا رد هذه الكلمات إلى أصلها ، كان مصيباً فى كلامه ، غير أن هناك كلمات لها مثل هذه الصورة فى الأصل ، فى اللغة الأدبية نفسها ، مثل : « ثُوم » و « حُوت » و « رُوح » وغير ذلك ، وهنا يحاول هذا المتفصح ، أن يقلب هذه الضمات الأصلية ، إلى الصوت المركب الذى تتميز به اللغة الفصحى ، فيقول : « ثَوْم » و « حَوْت » و « رَوْح » ، قياساً على ما فعله فى تلك الكلمات السابقة ، وعندئذ يأتى بشىء لا هو فى العامية ، ولا هو فى اللغة الأدبية ، وليس ما فعله إلا نوعاً من القياس ، الذى تحدثنا عنه من قبل .

وتتمثل الحذلقة عند بعض المتحدثين ، فى الخروج على المألوف فى الكلام ؛ ومن هذا النمط ما « يحكى أن رجلا من المتأدبين أراد شراء ضحية ،

فقال لبعض البائعين للأضاحى : بكم الكِبْش ؟ بكسر الكاف ، فضحك كل من سمعه ، فلامه بعض أصحابه ، وقال له : لِمَ لَمْ تقل : كَبْش بفتح الكاف ، كما يقول الناس ؟ فقال : كذا كنت أقول ، قبل أن أقرأ الأدب ، فما الذى أفادتنى القراءة إذن ؟! » [١] .

ويسمى ڤندريس هذه الظاهرة : « الإسراف فى المدنيّة » و « المبالغة فى المدنيّة » و « الغلو فى مراعاة الصحة » ، فيقول : « يجب أن نلحق بهذا الباب (يقصد باب القياس فى التغييرات الصوتية) حالات الإسراف فى المدنّية ، والإسراف فى اللهجية . وما يسمى الإسراف فى المدنية ، هو المبالغة التى يؤدى إليها ولع صحة الكلام ، عند من يفخر بجمال العبارة ، كالذى حدث أن فلاحاً إيطالياً ، أراد أن يتكلم لاتينية روما ، وكان يعرف أن حركة (ō) الطويلة فى لهجته ، يقابلها غالباً ال (au) diphtongue فى لغة العاصمة ، فراح يقول : plaustrum (بلوْستروم) بدلا من : plostrum (عربة) و cauda (كَوْدا) بدلا من : coda (ذيل) و Plaudere (بلوْدير) بدلا من : plodere (يضرب) ، ذلك هو الإسراف فى المدنية ؛ فحركة ال (o) هنا ، أقدم من الناحية الاشتقاقية ، ولكن المدنى أيضا كان ميالًا بطبعه إلى المبالغة فى المدنية ، حتى لا يتهم بالكلام على طريقة الفلاحين ، فكان يستعمل عن طيب خاطر ، الكلمات التى ذكرنا ، بالنطق الذى أشرنا إليه ... وإذا تكلم الإنسان لهجة أجنبية تعرّض للأخطاء ، بسبب التردد فى صيغة الكلمات ، فمن الأخطاء الشائعة الغلو فى مراعاة الصحة » [٢] .

وتقابلنا هذه الظاهرة فى القديم ، فيما روى لنا عن قبيلة مازن ،

---

(١) الاقتضاب للبطليوسى ٥٦

(٢) اللغة لڤندريس ٨٠ وانظر كذلك : أسس علم اللغة ، لماريوپاى ١٥٩

من أنها كانت تقلب الميم باء والباء ميماً ، أى أنها كانت تقول فى : « بكر » : « مكر » وفى : « مكر » : « بكر » مثلا . وما روى لنا بهذه الصورة عسير التفسير ؛ لأن هذه القبيلة تستطيع – على حسب هذه الرواية – نطق صوتى الباء والميم ، فما الذى يدعوها إذن لقلب كل واحد منهما إلى صاحبه ؟ الظاهر أن الأمر لم يكن كما رواه لنا اللغويون العرب تماماً ، وأن هذه القبيلة إنما كانت تقلب الباء ميماً فحسب ، أى أنها كانت ترخى الطبق أو سقف الحنك الرخو ، عند النطق بالباء ، فيتسرب الهواء إلى الأنف ، فتبدو الباء كالميم ، غير أن الرجل من مازن ، عندما كان يريد محاكاة اللغة الأدبية ، لغة الشعراء والخطباء فى ذلك الوقت ، كان يحاول إرجاع الميم إلى نطقها الأدبى وهو الباء ، ويبالغ فى ذلك إلى درجة يطغى معها على صوت الميم القديم كذلك ، فيحوله فى نطقه إلى باء ، حذلقة منه ومبالغة فى التفصح ، وهنا يظهر لمن يسمعه فى كلامه اليومى وكلامه الأدبى ، كأنه يقلب الباء ميماً والميم باء .

وليس هذا الذى نتخيله ، فى أمر تلك الظاهرة عند مازن ، أمراً مستبعداً ، إذ نعثر على ما يشابهها تماماً ، عند سكان جنوبى العراق ، فهم يبدلون فى كلامهم صوت القاف غينا ، كما يبدلون الغين قافاً ، فتراهم يقولون : « الغمر » فى : « القمر » مثلا ، كما يعكسون فيقولون : « القُراب » فى : « الغُراب » وغير ذلك . والأصل فى نطق هؤلاء الناس ، هو قلب القاف غيناً ، كما هو الحال عند السودانيين ، وقد بيّنا ذلك من قبل ، غير أن المبالغة فى التفصّح ، هى التى تدعوهم إلى قلب الغين الأصلية قافاً ، على النحو السابق .

وعندنا فى عصور العربية المختلفة ، أمثلة كثيرة لظاهرة الحذلقة فى اللغة ؛ فبعد أن صار الهمز شعار العربية الفصحى ، تسابق العرب فى النطق به ، فأدى ذلك إلى همز ما ليس أصله الهمز ، مبالغة فى التفصح ؛ لأنه إذا

كانت : « فقأت عينه » فصيحة و « فقيت » غير فصيحة ، و « وجأت بطنه » فصيحة ، و « وجيت » غير فصيحة – فإنه لا مانع من تحوّل : « حلّيت السويق » و « لبيت بالحج » و « رثيت زوجى » إلى : حلّأت ولبّأت ورثأت ، عن طريق القياس الخاطئ مبالغة فى التفصح ؛ ولذلك يعقد ابن السكيت فصلا بعنوان : « ما همزته العرب وليس أصله الهمز » فى كتابه : « إصلاح المنطق » ، يقول فيه مثلا : « وقالوا : حلّأت السويق ، وإنما هو من الحلاوة ، وقالوا : لبّأت بالحج ، وأصله : لبيت ... وقالت امرأة : رثأت زوجى ، بإثبات الهمز » [١] .

ومن هذا النوع من الحذلقة : همزة كلمة : « شِئْمة » وأصلها : « شيمة » بمعنى الخلق ؛ وذلك فى مثل قول الشاعر :

وإنّى بِجَذّ الحَبْل ممن يَرِيبنى ... إذا لم يوافقْ شِئْمتى لَحَقِيقُ [٢]

وكذلك همز مثل : « إسادة » فى « وسادة » و « إكاف » فى « وكاف » .

ويشيع فى العربية الفصحى ، همز ما ليس أصله الهمز ؛ بسبب

---

(١) إصلاح المنطق لابن السكيت ١٥٨ وانظر كذلك : إعراب ثلاثين سورة ٤٠ ؛ ٨٥ والمنصف ١/٣١٠ وتهذيب اللغة ١٥/٦٨٣ وقد ذكر اللغويون العرب أمثلة أخرى كثيرة ، للمبالغة فى التفصح فى القديم ، وإن لم يسموا هذه الظاهرة بهذا الاسم ، كما حاولوا أن يعللوا لها بتعليلات واهية ، انظر مثلا : الصحاح (لبأ) ١/٧٠ وإعراب القرآن المنسوب للزجاج ٨٨١ والأشباه النظائر للسيوطى ١/١٥٠ ومغنى اللبيب ٢/٦٨٤ وسر صناعة الإعراب ١/٩٠ ؛ ١/١٠٢ والخصائص ٣/١٤٥ وغير ذلك . وانظر أمثلة رواها يوهان فك (العربية ٨٨) عن معاصرى الجاحظ منها : « قفاء » بدلا من « قفا » .

(٢) النوادر فى اللغة لأبى زيد ١٩٢

عقدة الحجازيين فى صوت الهمزة ، وتوهمهم فى الأمثلة التى يوجد فى مكان منها واو أوياء ، أنهما ناتجتان بسبب الانزلاق بين حركتين (Hiatus) بعد سقوط الهمزة فى نطقهم ؛ ولذلك يزيدون فى هذه الأمثلة ، همزات غير أصلية فيها ، عن طريق الحذلقة والمبالغة فى التفصح .

فإذا كانت الكلمة التى تعنى : « القمر » فى أصل اللغات السامية ، تبدأ بالواو فى الأصل ، كما فى الحبشية (ወርኅ) Warḫ والآشورية القديمة : Warḫu وتتحول هذه الواو - كما تحولت فى غيرها - إلى ياء فى العبرية : (יָרֵחַ) yēraḥ والآرامية (ܝܲܪܚܵܐ) yarḥā فإن الأصل الذى كان فى العربية ، فى مقابل هذه الكلمات كلها هو : « وَرْخ » .

وإذا كانت هذه الكلمة قد ماتت فى العربية ، فإن الفعل منها وهو : « يُورِّخ » موجود فى اللغة ، وقد تحذلق فيه الحجازيون ، فأقحموا عليه الهمزة ، وقالوا : « يؤرخ » ، واشتقوا منه الماضى : « أرّخ » ، والاسم : « تأريخ » ؛ والدليل على عدم أصالة هذه الهمزة فى العربية ، هو عدم وجودها فى الجمع : « تواريخ » إذ لا يقال فيه : « تآريخ » ! .

ومثل ذلك تماما ، ما صنعه الحجازيون فى : « الوصيد » و « الوكاف » و « التوكيد » و « الوقت » ؛ قال الفراء : « والوصيد والأصيد لغتان ، مثل : الإكاف والوكاف ، وكذلك : أرّخت الكتاب وورّخته ، ووكدت الأمر وأكدته » [١] . ويقول الفراء كذلك : ﴿ وإذا الرسل أُقّتت ﴾ ، اجتمع القراء على همزها ، وهى فى قراءة عبد الله : وُقّتت ، بالواو [٢] » .

ومثل ذلك تماما : « وجوه » و « أجوه » ، ولاشك أن الهمزة اجتلبت

---

(١) معانى القرآن ٢/١٣٧

(٢) معانى القرآن ٣/٢٢٢

هنا أولا فى الفعل : « يُوَجّه » و « يُؤَجِّه » ، لا كما يظن علماء اللغة ، وعلى رأسهم « الفراء » الذى يقول : « وإنما همزت ، لأن الواو إذا كانت أول حرف وضمت ، همزت ... وذلك لأن ضمة الواو ثقيلة ، كما كان كسر الياء ثقيلا [١] » .

وقد ظن الشاعر جرير أن « الموقدين » و « موسى » محذوفتى الهمزة ، على لغة قريش ، فهمزهما تفصحا فى قوله :

أَحَبُّ المُؤْقِدَيْنِ إلىَّ مؤسى وجَعْدَةُ إذا أضاءهما الوَقُودُ [٢]

وليس هناك ضرورة من وزن الشعر ، تحتم إقحام الهمزة فى هذين اللفظين . قال ابن جنى : « وإنما يجوز مثل هذا الغلط عندهم ؛ لما يستهويهم من الشَّبه ؛ لأنهم ليست لهم قياسات يستعصمون بها ، وإنما يُخْلِدون إلى طبائعهم [٣] » .

* * *

وإذا كانت لهجات الخطاب ، يشيع فيها انكماش الصوت المركب – كما سبق أن عرفنا – فإننا لانعدم فى هذه اللهجات ، من يتوهم أن واو المد وياءه الأصليتين ، منقلبتان عن الصوت المركب (aw) و (ay) فيعاملهما معاملة هذا الصوت المركب ، فيأتى بشىء لا هو فى الفصحى ولا هو فى العامية ، حذلقة منه ومبالغة فى التفصّح .

ومن أمثلة الحذلقة فى عصر الزبيدى (المتوفى سنة ٣٧٩ هـ) قول

---

(١) معانى القرآن ٢٢٢/٣

(٢) المحتسب ٤٧/١ والخصائص ١٧٥/٢ وشرح شواهد الشافية ٤٢٩/١ وما فى ديوان جرير ١٤٧ بلا همز (= شرح ابن حبيب ٢٨٨/١)

(٣) المنصف ٣١١/١ وانظر : شرح شواهد الشافية ٤٣٠/١ والمخصص ١٠٦/١٦

عوام الأندلس « لَوْبان » فى : « لُوبان » المتطورة عن : « لُبان » بتأثير النبر ، وكذلك قولهم : « مات مَيْتَةَ سوء » بدلا من اسم الهيئة : « مِيتة » ، وقولهم للملاح : « نَوْتى » بدلا من : « نُوتى » [١] . والدليل على تفصحهم فى هذا : انكماش الصوت المركب الأصلى فى نطقهم ، مثل : « الغِيرة » فى : « الغَيْرة » ، و « قِيح » فى « قَيْح » ، و « صَنُوبر » فى : « صَنَوْبر » [٢] ، وغير ذلك .

ومن أمثلة هذه الظاهرة فى عصر ابن مكى الصقلى (المتوفى سنة ٥٠١ هـ) قول العامة مثلا : « أنت عندى كرَوْحى . وخرجت رَوْح زيد » ، بدلا من : « رُوح » ، وقولهم : « دَيْباج » بدلا من : « دِيباج » [٣] ، وغير ذلك .

كما ذكر ابن هشام اللخمى (المتوفى سنة ٥٧٧ هـ) قول عامة عصره : « ثَوْم » فى « ثُوم » و « حَوْت » فى : « حُوت » [٤] ، وغير ذلك .

وكذلك ذكر عبد القادر المغربى (المتوفى سنة ١٣٧٥ هـ) قول العامة فى عصرنا « حُزَيْران » بدلا من : « حَزِيران » وهى كلمة معربة عن الآرامية (ܚܙܝܪܢ) وكذلك قولهم : « أُلقى فى رَوْعى » بدلا من : «رُوعى» [٥] ، وغير ذلك .

---

(١) لحن العوام للزبيدى ٩٣ ؛ ١٩٦ ؛ ٥٧

(٢) لحن العوام للزبيدى ١٤٤ ؛ ١٨٥ ؛ ١٣٢

(٣) تثقيف اللسان ٢٩٥ ؛ ٢٩٩ وتقويم اللسان ١٠٥ وأدب الكاتب ٣٠١ والفصيح لثعلب ٥٠ وتصحيح التصحيف ٢٦٧

(٤) المدخل إلى تقويم اللسان ٤٧ ؛ ٤٨

(٥) عثرات اللسان ١٢ ؛ ٣٢

وقد سمعت بنفسى أحد مذيعى تليفزيون الرياض ، يقول : « مَيْناء » بدلا من : « مِينَاء » ، ويقول : « إليكم مَوْجَز الأنباء » بدلا من : « مُوجَز » حذلقة وتفصحا !

كما سمعت إمام المسجد الأحمدى بطنطا ، فى لقاء تليفزيونى بمجلة التليفزيون ، فى مساء يوم ١٩٨٣/٩/٢٧ م ، يقول عن السيد البدوى رضى الله عنه : « وذاع صَيْتُه » بدلا من : « صِيته » [١] . ومثله ما حدث من بعض علماء الدين ، فى حديث تليفزيونى ، فى صباح الجمعة ١٩٨٤/٢/٣ م ، حين قال : « كل إنسان يحب أن يذيع صَيْتُه بين الناس » !

* * *

وليست هذه الظاهرة منحصرة فى معاملة واو المد الأصلية ، وياء المد الأصلية معاملة الحركة المركبة ، بل إنها تشمل كذلك ، معاملة العوام للدال والسين أحياناً ، معاملة الصوتين المُغَيَّرين فى العامية ، عن الصوتين الأسنانيين : الذال والثاء ، فقد روى ابن مكى الصقلى أن العوام فى عصره ، كانوا يقولون : « شِذق » فى : « شِدق » و « جُذعت أنفُه » فى : « جُدعت » و « ذميم الوجه » فى : « دميم » [٢] . وفى مسالك الأبصار (ص ٩١) : « فما أقاموا إلا ساعة بالخِلَع حتى طفثوا وماتوا » بمعنى : طفسوا .

كما يقول عامة عصرنا : « نَفَذ الشىء » بمعنى : انتهى ، فى :

---

(١) فى الصحاح (صيت) ٢٥٧/١ : « والصِّيت : الذكر الجميل الذى ينتشر بين الناس دون القبيح ؛ يقال : ذهب صِيتُه فى الناس . وأصله من الواو ، وإنما انقلبت ياء لانكسار ما قبلها » .

(٢) تثقيف اللسان ٥٦ - ٥٧

« نَفِدَ » [١] . وقد كتب لى بعض طلبتى فى بحث له : « ولولا القرآن لما قامت اللغة على قدم وثاق » بدلا من : « وساق » . وكتب أحد رجال القلم يقَول : « حتى يتثنى للناس معرفة الخبيث من الطيب [٢] » .

* * *

وإذا كانت اللهجة المصرية ، تقلب القاف همزة ، فإن حرص المتفصحين من أهلها على رد هذه الهمزة إلى أصلها ، يجر فى بعض الأحيان ، إلى قلب الهمزات الأصلية إلى قاف ، بسبب الجرى وراء الحذلقة والتقعر فى الكلام ؛ فالكلمات : « أرم » بمعنى « عضّ » و « عَلأة » وأصلها : « حَلأة » بمعنى الضرب الشديد بالسوط أو العصا ، و « مأروض » بمعنى قصير لاصق بالأرض ، هذه الكلمات كلها ، الهمزة فيها أصلية ، ولكن كتاب القصة والمسرحية فى مصر ، يكتبونها فى أيامنا هذه : « قَرَمَ » و « علقة » و « مقروض » [٣] ، مبالغة فى التفصح .

* * *

(١) أخطاؤنا فى الصحف والدواوين للزعبلاوى ٢٧٢

(٢) من مقالة بعنوان : « الحركة الطلابية بين الأصالة وأزمة الضمير » فى صحيفة : « الأيام » السودانية ، بقلم أحمد المصطفى والى ، فى يوم ١٩٨٠/٢/١٨ م .

(٣) انظر : المحكم فى أصول الكلمات العامية للدكتور أحمد عيسى ٩ ؛ ٦٦ ؛ ١٥٥ ؛ ٢٠٤

٦ — العَـادَاتُ اللُّغَوِيَّةِ لِلشَّعوبِ (Substrata)

لاحظ علماء اللغة أن « الشعب الذى يتخذ لغة جديدة ، يطبق عليها أحيانا عوائد النطق فى اللغة التى تركها » (١) ، ولا يخفى ما يترتب على اختلاف الشعوب فى طريقة النطق من آثار بعيدة المدى فى التطور الصوتى ، فى اللغات الوافدة على المنطقة . وهذا هو ما يسمى بأثر العادات اللغوية للشعب (Substrata) ، ويطلق هذا المصطلح « على الصيغة الكلامية المبكرة ، التى كان يستخدمها السكان الأصليون ، فى منطقة ما ، فحين تتعرض هذه المنطقة للغزو الخارجى ، تختلط لغتها بلغة الغزاة ونتيجة لذلك تأخذ شكلا جديدا » (٢) . فانقلاب الفتحة الطويلة المنبورة ، إلى ضمة طويلة ممالة مثلا ، قد حدث فى كل اللغات ، التى دخلت إلى منطقة سوريا وفلسطين ، فكلمة : « كأس » فى العربية ، هى : « كوس » kōs (כוס) فى اللغة العبرية ، وكذلك كلمة : « مَلْكا » (ܡܰܠܟܳܐ) بمعنى : « الملك » فى السريانية الشرقية (بالعراق) ، هى « مَلْكُو » malko فى السريانية الغربية (٣) بسوريا وفلسطين . ومثل ذلك حدث للفتحة الطويلة ، فى العربية المتكلمة الآن بمنطقة اللاذقية ، والأماكن المجاورة لقرية « معلولا » ، التى ما زالت تتحدث السريانية حتى الآن (٤) ، ومثال ذلك قولهم : « بُوب » فى : « باب » .

ويسمى الجاحظ هذه الظاهرة باللُّكنة ، فيقول : « ويقال : فى لسانه لكنة ، إذا أدخل بعض حروف العجم فى حروف العرب ، وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول » (٥) .

---

(١) اللغة لفندريس ٨٢

(٢) أسس علم اللغة ، لماريوباى ١٣٩

(٣) انظر : بروكلمان Syrische Grammatik ص ٧

(٤) انظر : برجشتراسر Sprachatlas von Syrien und Palastina الفقرة ١٦

(٥) البيان والتبين ١/٣٩ — ٤٠

كما ضرب لنا الجاحظ أمثلة كثيرة ، يظهر فيها أثر العادات اللغوية ، للشعوب التى اعتنقت الإسلام ، على نطقهم العربية ؛ فقال مثلا : « ألا ترى أن السندى إذا جُلب كبيراً ، فإنه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زاياً ، ولو أقام فى عليا تميم ، وفى سفلى قيس ، وبين عجز هوازن ، خمسين عاماً ، وكذلك النبطى القحّ ، خلاف المغلاق الذى نشأ فى بلاد النبط ، لأن النبطى القح ، يجعل الزاى سيناً فإذا أراد أن يقول : زَوْرَق ، قال سورق . ويجعل العين همزة ، فإذا أراد أن يقول : مشمعلّ ، قال : مشمئلّ » [1] .

كما يقول : « أبو حاتم الرازى » فى هذه القضية : « وسائر اللغات نقصت وزادت مثل اللغة الفارسية ، فإنها قصرت عن : العين ، والغين ، والحاء ، والقاف ، والطاء ، والظاء ، والصاد ، والضاد ، والذال ، والثاء ، حتى لا يوجد فى لغتهم الأصلية ، كلام يتكلم به على هذه الحروف .

« فإذا اضطروا إلى أن يتكلموا بكلمة عربية ، أو معربة ، فى بنيتها حرف من هذه الأحرف ، قلبوا ذلك الحرف إلى حرف قريب الحيّز والمدْرج منه ، أو إلى حرف يشمونه ذلك المعنى ، كما قلبوا الحاء إلى الهاء ، فقالوا لمحمد ، مهمد ، وقلبوا العين إلى الألف ممدودة مهموزة ، فأشموها معنى العين ، فقالوا لعلى : آلى ، وقلبوا الغين إلى الواو فقالوا للغلام : ولام ، وقلبوا القاف إلى الكاف ، فقالوا للقمر : كمر ، وقلبوا الطاء إلى التاء ، فقالوا للطاووس : تاووس ، وقلبوا الظاء والضاد إلى الدال ، فقالوا فى معنى : ضربه وظلمه : دربه ودلمه ، وقلبوا الصاد إلى السين ، فقالوا للصنم : سنم ، وقلبوا الذال إلى الدال ، فقالوا للذليل : دليل ، والثاء إلى التاء ، فقالوا للكثير : « كتير » [2] .

* * *

---

(١) البيان والتبين ١/٧٠

(٢) الزينة فى الكلمات الإسلامية العربية ١/٦٥

٧ - انتِقالُ النَّبْرِ

حين يتحدث الإنسان بلغته ، يميل فى العادة إلى الضغط على مقطع خاص من كل كلمة ، ليجعله بارزاً أوضح فى السمع مما عداه من مقاطع الكلمة ، وهذا الضغط هو الذى يسميه المحدثون من اللغويين « بالنبر » Akzent .

ويعرفه الدكتور تمام بأنه « وضوح نسبى لصوت أو مقطع ، إذا قورن ببقية الأصوات والمقاطع فى الكلام » [١] . ويقول الدكتور بشر : « معنى هذا أن المقاطع تتفاوت فيما بينها فى النطق قوة وضعفا ، فالصوت أو المقطع المنبور ، ينطق ببذل طاقة أكثر نسبيا ، ويتطلب من أعضاء النطق مجهوداً أشد ، لاحظ مثلا الفرق فى قوة النطق وضعفه ، بين المقطع الأول فى (ضَرَبَ) والمقطعين الأخيرين (ضَ / رَ / بَ) نجد (ضَ) ينطق بارتكاز أكبر من زميليه فى الكلمة نفسها » [٢] .

وقد اختلفت آراء العلماء حول وجود النبر فى العربية الفصحى ، ومكانه فى الكلمة ؛ فبينما يقول بروكلمان : « فى اللغة العربية القديمة ، يدخل نوع من النبر ، تغلب عليه الموسيقية ، ويتوقف على كمية المقطع ، فإنه يسير من مؤخرة الكلمة نحو مقدمتها ، حتى يقابل مقطعاً طويلا ، فيقف عنده ، فإذا لم يكن فى الكلمة مقطع طويل ، فإن النبر يقع على المقطع الأول منها » [٣] - يرى برجشتراسر « أنه لا نص نستند عليه فى إجابة مسألة ، كيف كان حال العربية الفصيحة فى هذا الشأن ، ومما

---

(١) مناهج البحث فى اللغة ١٦٠

(٢) علم اللغة العام ٢١٠

(٣) انظر : بروكلمان Semitische Sprachwissenschaft صفحة ٦١

يتضح من اللغة نفسها ، ومن وزن شعرها ، أن الضغط لم يوجد فيها ، أو لم يكد يوجد ؛ وذلك أن اللغة الضاغطة ، كثيرا ما يحدث فيها حذف الحركات غير المضغوطة ، وتقصيرها ، وتضعيفها ، ومد الحركات المضغوطة ، وقد رأينا أن كل ذلك نادر فى اللغة العربية . وإذا نظرنا إلى اللهجات العربية الدارجة ، وجدنا فيها كلها — فيما أعرف — الضغط ، وهو فى بعضها قوى ، وفى بعضها متوسط ، غير أنها تتخالف فى موضعه من الكلمة فى كثير من الحالات ، فمن المعلوم أن المصريين يضغطون فى مثل : (مطبعة) المقطع الثانى ، وغيرهم يضغطون الأول ، فلو أن الضغط كان قويا فى الزمان العتيق ، لكانت اللهجات — على أغلب الاحتمال — حافظت على موضعه من الكلمة ، ولم تنقله إلى مقطع آخر » [١] .

هذا هو رأى برجشتراسر ، أما أنه ليس لدينا نص ، نستند إليه فى معرفة حالة النبر فى العربية القديمة ، فهذا صحيح ، وأما أن العربية لم تكن تنبر ، فإننا نشك فى ذلك الذى قاله برجشتراسر ، وهو يغفل فى كلامه التطور اللغوى ، وتأثير الشعوب المختلفة التى غزتها العربية ، بعاداتها القديمة فى النبر ، وأثر ذلك فى اختلاف موضعه من الكلمة ، كما يبدو الآن ، فى تعدد طرق النبر فى مثل كلمة : « مطبعة » .

أما الدكتور إبراهيم أنيس ، فإنه يسلم بأنه « ليس لدينا من دليل يهدينا إلى موضع النبر فى اللغة العربية ، كما كان ينطق بها فى العصور الإسلامية ، إذ لم يتعرض له أحد من المؤلفين القدماء ، أما كما ينطق بها قراء القرآن الآن فى مصر ، فلها قانون تخضع له ، ولا تكاد تشذ عنه » [٢] .

---

(١) التطور النحوى ٧٢ — ٧٣

(٢) الأصوات اللغوية : ١٠٤

وقد لخص الدكتور إبراهيم أنيس ، مواضع النبر فى الكلمة العربية ، فقال [١] : « ينظر أولا إلى المقطع الأخير ، فإن كان من النوعين الرابع والخامس ، كان هو موضع النبر ، وإلا نظر إلى المقطع الذى قبل الأخير ، فإن كان من النوع الثانى أو الثالث ، حكمنا بأنه موضع النبر ، أما إذا كان من النوع الأول ، نظر إلى ما قبله ، فإن كان مثله ، أى من النوع الأول أيضاً ، كان النبر على هذا المقطع الثالث ، حين نعد من آخر الكلمة . ولا يكون النبر على المقطع الرابع حين نعد من الآخر ، إلا فى حالة واحدة وهى أن تكون المقاطع الثلاثة التى قبل الأخيرة ، من النوع الأول » .

فالنبر يقع على المقطع الأخير فى مثل : « نستعينْ » و « ذاكَرْتْ » ، وعلى المقطع قبل الأخير فى مثل : « تعلّمْ » و « يعادى » و « قاتل » و « يكتُب » ، كما يقع على المقطع الثالث من الآخر فى مثل : « كَتَبَ » و « اجْتَمعَ » ، وعلى المقطع الرابع من الآخر فى مثل : « بَلَحَةٌ » و « سَمكَةٌ » .

وتغيير موضع النبر فى الكلام ، أو بعبارة أخرى : « انتقال النبر » يؤثر فى صيغ الكلمات ، وسقوط بعض أصوات الكلمة ، أو طول الحركات ، وما إلى ذلك .

فمثلا من طبيعة العربية الفصحى ، أن تقصر الحركة الطويلة فى المقطع المفتوح ، إذا كان يسبق مقطعاً آخر منبوراً ذا حركة طويلة ، فأصل مصدر « فَاعَل » فى العربية القديمة ، هو : « فِيعال » بنبر المقطع الثانى ، وقد ترتب على خلو المقطع الأول من النبر ، أن قصرت حركته ، فصار المصدر « فِعَال » ، مثل « قاتل قتالا » بدلا من : « قاتل قيتالا » ؛ يقول المبرد :

---

(١) الأصوات اللغوية ١٠٦ وارجع إلى تقسيمنا السابق للمقاطع .

« ويجيء فى فاعل الفِعَالُ ، نحو : قاتلته قتالا ، وراميتُه رماء . وكان الأصل : فيعالًا ، لأن فاعلت على وزن : أَفْعَلْت وفَعْلَلتْ ، فكان المصدر كالزلزال والإكرام ، ولكن الياء محذوفة من فيعال ، استخفافاً ، وإن جاء بها جاءٍ فمصيب » [١] !

وعلى العكس من ذلك ، بقيت تلك الحركة الطويلة ، فى مثل : « دينار » و « ميعاد » فى المقطع الأول ، لوجود نبر ثانوى على هذا المقطع ، وقد زال هذا النبر فى بعض اللهجات الحديثة ، فقصرت الحركة [٢] وأصبحنا نقول : « دِنار » و « مِعاد » . ومن أمثلة ذلك أيضا قول العامة : « فِرَان » فى : « فِيران » ، و « كَنُون » فى : « كانون » ؛ وذلك على العكس من لهجة الأندلس العربية ، فى القرن الرابع الهجرى مثلا ، فإنها كانت تنبر المقطع الأول من « فِعال » فتطول حركته بعد أن كانت قصيرة ، مثل : « طيراز » و « تيلاد » و « ثيمار » و « طيحال » و « إيكاف » فى : « طراز » و « تلاد » و « ثمار » و « طحال » و « إكاف » [٣] .

ويبدو أن أهل الأندلس ، كانون ينبرون المقطع الأول من الكلمة ، فى كثير الأحيان ، فقد روى ابن حزم الأندلسى (المتوفى سنة ٤٥٦ هـ) أنهم كانوا يقولون : « العينب » فى « العنب » [٤] ، كما روى عنهم ابن هشام

---

(١) المقتضب للمبرد ١٠٠/٢ وانظر كذلك : شرحان على مراح الأرواح ١٦

(٢) ويندرج هذا عموما ، تحت قاعدة أن المد الطويل ، يقصر فى كثير من اللهجات الحديثة ، إذا سبق مقطعا منبورا ؛ فيقال مثلا : « عمود » و « سلمات » و « مجنين » و « جران » فى : عامود وسلامات ومجانين وجيران . وانظر : أبحاث فى اللغة العربية ، للدكتور داود عبده (١٤٣) .

(٣) انظر : لحن العوام للزبيدى ٧٦ ؛ ٧٨

(٤) انظر : الإحكام فى أصول الأحكام لابن حزم ٣٠/١

اللخمى (المتوفى سنة ٥٧٧ هـ) قولهم : « سر فى داعة الله » بدلا من : « دعة الله » ، وكذلك : « باعوضة » فى « بعوضة » و « عينب » فى « عنب » ، و « عامود » فى « عمود » [١] . ومثل ذلك ما رواه ابن كمال باشا (المتوفى سنة ٩٤٠ هـ) عن عامة عصره أنهم كانوا يقولون : « الإيباء » فى « الإباء » ، و « الآوان » فى « الأوان » [٢] . ويماثل هذا ما نسمعه الآن من قول العامة : « هل سمعت الآذان ؟ » يريدون : « الأذان » .

ويؤثر وجود النبر أحياناً ، فى سقوط الحركات من المقاطع التالية للنبر ، فقد دلت الملاحظة مثلا ، على أنه إذا توالى فى اللغات السامية ، مقطعان قصيران ، أولهما منبور ، فإن حركة المقطع الثانى تسقط فى الكلام ، ففى العربية مثلا يقال كثيراً : « وَهْوَ » بدلا من : « وَهُوَ » ، و « مَعْهُ » بدلا من : « مَعَهُ » ، و « فَلْيذهب » بدلا من « فَلِيَذهْب » ، و « يذّكّر » الناتجة بحسب قانون المماثلة من « يَتْذَكّر » بدلا من : « يَتذَكّر » .

وسقوط حركة لام الأمر الداخلة على المضارع ، عند اتصالها بالفاء أو الواو – أمر لازم فى قراءة القرآن الكريم ، فلم ترد الصورة الأصلية للظاهرة ، فى أية قراءة قرآنية ، يقول ابن خالويه : « فلو قرأ قارىء ﴿ فَلِيَنْظر الإنسان ﴾ بكسر اللام لكان سائغا فى العربية غير أنه لا يقرأ به ، إذ لم يتقدم له إمام ، والقراءة سنة يأخذها آخر عن أول ، ولا تحمل على قياس العربية » [٣] .

وبهذا القانون يمكن تفسير سقوط الفتحة ، قبل تاء التأنيث فى بعض المؤنثات فى اللغات السامية ، مثل : « أُخْت » و « بِنْت » وأصلهما :

---

(١) انظر : المدخل إلى تقويم اللسان ٣٧ ؛ ٥٣ ؛ ٦٦

(٢) انظر : التنبيه على غلط الجاهل والنبيه ٥ ؛ ٧

(٣) إعراب ثلاثين سورة ٤٢

« أُخت » و « بِنَت » ، ومثل : rest (ርስት) بمعنى : « ميراث » و habt (ሀብት) بمعنى : « هبة » فى الحبشية ، إذ الأصل فيهما : resat ، habat وكذلك : šartu بمعنى : « شعر » ، و bēltu بمعنى : « زوجة » أو « سيدة » (= بعلة) فى الأكادية ، فإن الأصل فيهما هو : šaratu ، bētatu وما أشبه ذلك .

ولا شك أن ما حكاه الكسائى ، من أن « بعض كنانة يقولون : مَعِنْدك ؟ ومَصَنَعْت ؟ » [١] راجع إلى انتقال النبر من (ما) الاستفامية إلى ما بعدها من الكلمات فى لغة هؤلاء القوم من كنانة ، فأثر ذلك فى تفصير حركتها ، على النحو الذى روى لنا .

* * *

---

(١) شواهد التوضيح لابن مالك ٢١٥

٨ – قانونُ الأَصْواتِ الحَنَكِيَّةِ

وصل العلماء فى مقارنتهم اللغة السنسكريتية ، باللغتين اليونانية واللاتينية ، فى أواخر القرن التاسع عشر ، إلى قانون صوتى سموه : « قانون الأصوات الحنكية » [١] . ولاحظوا أن أصوات أقصى الحنك ، كالكاف والجيم الخالية من التعطيش ، كالجيم القاهرية مثلا – تميل بمخرجها إلى نظائرها من الأصوات الأمامية ، حين تليها فى النطق حركة أمامية كالكسرة ؛ لأن هذه الحركة الأمامية فى مثل هذه الحالة ، تجتذب إلى الأمام قليلا أصوات أقصى الحنك ، فتنقلب إلى نظائرها من أصوات وسط الحنك ، ويغلب أن تكون هذه الأصوات الجديدة من النوع المزدوج ، أى الجامع بين الشدة والرخاوة وهو المسمى باللاتينية Affricata .

ومن الأصوات التى خضعت لهذا القانون فى العربية : صوت الجيم ، فإن مقارنة اللغات السامية كلها ، تشير إلى أن النطق الأصلى لهذا الصوت ، كان بغير تعطيش كالجيم القاهرية تماماً . فكلمة : « جمل » مثلا ، هى فى العبرية : gāmāl (גָּמָל) وفى الآرامية : gamlā (ܓܡܠܐ) ، وفى الحبشية : gamal (ገመል) . أما العربية الفصحى ، فقد تحول فيها نطق هذا الصوت من الطبق إلى الغار ، أى من أقصى الحنك إلى أوسطه ، كما تحول من صوت بسيط إلى صوت مزدوج ، يبدأ بدال من الغار . ثم ينتهى بشين مجهورة ، غير أن ذلك لم يحدث فى البداية فى كل جيم ، وإنما كان يقتصر على الجيم المكسورة ، تبعاً لقانون الأصوات الحنكية ، ثم عمم القياس هذا

---

(١) يسميه « ماريوپاى » : التغوير Palatalization ، وقد مثل له بتحول Centum بكاف فى الأول فى اللاتينية ، إلى : Cento بصوت مزدوج فى الأول فى الإيطالية . انظر : أسس علم اللغة ١٤٤

النطق الجديد فى كل جيم ، طرداً للباب على وتيرة واحدة ، وقد حدث ذلك فى العربية القديمة ، فى العصور السابقة لظهور الإسلام ، وصار هو النطق المميز للفصحى ؛ ولذلك جاء به القرآن الكريم ، وبقى النطق البائد فى بعض اللهجات العربية القديمة ، وامتداداتها فى بعض اللهجات الحديثة .

وما حدث لصوت الجيم القديم فى الفصحى ، حدث مثله لصوت الكاف فى بعض اللهجات القديمة ، فى الظاهرتين المعروفتين عند القدماء ، بظاهرتى : « الكسكسة » و « الكشكشة » ، اللتين رويتا لنا عن بعض القبائل القديمة كبكر وهوازن وربيعة وأسد .

وقد وقفت هذه الظاهرة فى القديم ، عند حدود قانون الأصوات الحنكية ، أى أن الكاف لم تقلب إلى : (تْسْ) فى الكسكسة ، ولا إلى : (تْشْ) فى الكشكشة ، إلا إذا كانت مكسورة ، ندرك هذا من تقييد اللغويين القدماء لها بكاف المؤنثة ، وهى مكسورة كما نعلم ، وإن كانت أمثلتهم تحتوى على كافات أخرى مكسورة ، سوى كاف المؤنثة . كقول الراجز :

إن دنوتِ جعلتْ تُنئيشِ
وإن نأيتِ جعلتْ تُدنيش
وإن تكلمتِ حثتْ فى فيش
حتى تنقّى كنقيق الدِّيشِ [(١)]

أى تنئيك ، وتدنيك ، وفيك ، والدّيك .

أما اللهجات العربية الحديثة ، فقد طردت هذا القلب فى كل كاف ،

---

(١) انظر : مجالس ثعلب ١١٦/١ وخزانة الأدب ٥٩٤/٤ وانظر فى تفصيل الظاهرة كتابنا : فصول فى فقه العربية ١٤٠ — ١٥٠

عن طريق القياس ، مكسورة كانت هذه الكاف ، أو غير مكسورة ، ففى بلاد نجد تسمعهم يقولون : « تْسيف حالك ؟ » ، و « على تْسَم ؟ » فى : « كيف حالك ؟ » و « على كَم ؟ » . كما نسمع عند أصحاب الكشكشة ، وهم كثيرون فى جنوبى العراق ، وبلدان الخليج وشمالى أفريقيا : « تْشبير » و « تْشَلَب » فى : « كبير » و « كلب » وما إلى ذلك .

ومن الملاحظ فى التطور اللغوى ، أن الأصوات المزدوجة ، تميل فى تطورها بعد ذلك ، إلى أن تنحل إلى أحد الصوتين المكونين لها ، وقد سبق أن عرفنا ما أصاب صوت الجيم فى اللهجات الحديثة ، وانحلاله أحياناً إلى الدال ، وأحياناً إلى شين مجهورة ، ومثل هذا الانحلال قد أصاب الكاف المكشكشة فى القديم والحديث ، فقد روى لنا اللغويون العرب ، أن هذه الكاف قد تحوّلت إلى شين ، فى نطق أهل اليمن قديما ، فكانوا يقولون فى : « لبيك اللهم لبيك » : « لبيش اللهم لبيش » ، وسموا هذه الظاهرة : « الشنّشنة » [١] . وذلك النطق شائع الآن فى بعض مناطق الجزيرة العربية ، كمنطقة « عسير » ، التى يقول أهلها مثلا : « أبوش » و « أُمّش » ، فى « أبوك » و « أمّك » ، وما إلى ذلك .

* * *

---

(١) انظر : فصول فى فقه العربية ١٢٧

٩ - بلى الألفاظ

من الحقائق المقررة ، عند المحدثين من علماء اللغات ، أن كثرة الاستعمال ، تبلى الألفاظ ، وتجعلها عرضة لقص أطرافها ، تماماً كما تبلى العملات المعدنية والورقية ، التى تتبادلها أيدى البشر ، « والكلمات القصيرة ، كثيراً ما تقاوم الانحرافات ، التى تصيب الكلمات الطويلة باطراد ، أما الكلمات الطويلة ، فعلى العكس من ذلك ، تقدم لنا فى بعض الأحيان انحرافات خاصة ناجمة من طولها ، وهذه بوجه خاص هى الحال بالنسبة لكلمات كثيرة الاستعمال ، ومن ثمّ يمكن فهمها قبل النطق بها ، إلى حد أن المتكلم يستطيع أن يعفى نفسه ، من توضيح النطق بها ، مكتفياً بنطقها فى صورة مختصرة ، فالبلى الصوتى واضح فيها بدرجة خاصة ، وهذه الألفاظ فى عمومها ، إما آلات مساعدة فى اللغة ، وإما عبارات محفوظة متداولة ، وهى لذلك ليست فى حاجة إلى وضوح النطق الذى تقتضيه الرغبة فى الإفهام » [1] .

ومن الألفاظ التى تعانى هذا القص ، وذلك البلى ، هى الأدوات التى تدور كثيراً فى الكلام ، وكذلك كلمات التحية التى يرددها الناس صباح مساء ، وما شابهها ؛ مثل عبارة : « عِمْ صباحاً » المتطورة عن: « أَنْعِم صباحاً » [2] ، و « مُ الله » المأخوذة من « أيمن الله » . ونحن نقول فى مصر مثلا : « سلخير » بدلا من : « مساء الخير » ، كما يقول العراقيون : الله بالخير ! » ، أى صبحّك الله ، أو مسّاك الله بالخير ، وفى الألمانية الفصحى يقولون فى « صباح الخير » : ! guten Morgen وهى مقتطعة من جملة طويلة

---

(١) اللغة لفندريس ٨٩

(٢) انظر : الإنصاف لابن الأنبارى ٢/٣٠٤

فى الأصل ، وهى : Ich wünsche dir einen guten Morgen وقد تطورت على ألسنة العامة ، منذ عشرات السنين إلى : Morgen وحدها ، ثم صارت أخيراً فى أيامنا هذه إلى : ! Mo فحسب .

وهذه كلمة : « للساعة » بمعنى : « للآن » ، أصبحت فى مصر : « لسّه » ، وفى شمالى إفريقيا : « للسّع » ، وفى السودان : « للسّاتى » . وكذلك كلمة : « حتى » أصبحت فى نطق أهل سوريا اليوم : « تا » ، وقد سمعت بعضهم يقول : « طوِّل روحك تا احكيلك » [١] بمعنى « مهلا حتى أحكى لك » . وقد روى لنا هذا التطور فى كلمة : « حتى » فى القديم ، فهذا هو الجواليقى (المتوفى سنة ٥٣٩ هـ) ، يقول عن عوام عصره : « ومن كلامهم المحال الغث : جئت تا ألقاك ، يريدون : حتى ألقاك » [٢] ، بل إننا يمكن أن نعود بهذه الظاهرة إلى عصور الاحتجاج فى العربية ، فى مثل قول أبى وجزة السعدى :

العاطفون تحينَ ما من عاطف والمطعمون زمانَ أين المطعِمُ [٣]

أى : حتى حين لا يوجد من يعطف ، وإن كان نحاة العربية قد اختلط عليهم أمر هذا البيت [٤] .

ومثل ذلك ما أصاب : « إمّالا » التى استخدمها العرب فى مثل عبارة : « افعل هذا إمّالا » ، وهى فى كلامهم مختصرة من : « افعل هذا إن كنت لا تفعل غيره » . وقد أصابها تطور آخر فى القرن الثالث الهجرى ، إذ ضمت

---

(١) انظر فى ذلك أيضا : Brockelmann, Grundiss II 541 .

(٢) التكملة فيما يلحن فيه العامة ١٤٥

(٣) انظر : لسان العرب (حين) ٢٩١/١٦

(٤) انظر مثلا : سر صناعة الإعراب ١٨٠/١ والدرر اللوامع ٩٨/١

الهمزة فيها ، وأميلت الألف الأخيرة نحو الياء . وقد ذكر ذلك أبو حاتم السجستانى (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ) فقال : « والعامة تقول أيضاً : أُمّالى ، فيضمون الألف وهو خطأ أيضاً ، والصواب : إما لا ، غير ممال ، لأن الأدوات لا تمال » [١] ، ثم قصت أطرافها فى اللهجات الحديثة ، وصارت : « أُمال » فى قولنا مثلا : « كُلْ امّال » !

وهذه كلمة : « اخْسَأْ » أصبحت فى كلامنا : « إخص » ، و « يوسف أفندى » وهى الفاكهة المعروفة ، أصبحت فى مصر : « سفندى » ، وفى السعودية : « أفندى » ، وكلمة : « بودّى » صارت فى كلام المصريين : « بدِّى » ، وهذا يذكرنا بكلمة : « أبغى » التى صارت فى كلام أهل نجد : « أبى » ، وعبارة : « مرحبا بك » التى ينطقها السودانيون : « حَبَابَكْ » ، وكذلك عبارة : « سمعا وطاعة » التى ينطقها أهل نجد : « سَمْ » ، وكذلك عبارة : « أى شىء » التى تقابلنا كثيرا فى عبارات القدماء ، فى صورة : « أيْش » [٢] ، وقال عنها ابن عبد القوى الحنبلى : « كما قالوا : أيشٍ تقول ؟

---

(١) انظر : لسان العرب (إمالا) ٣٥٨/٢٠

(٢) انظر مثلا : شرح الشافية للأستراباذى ٧٤/١ وحلية الأولياء ١٤٥/٧ ؛ ١٤٦/٧ ؛ ١٧٠/٨ وما يجوز للشاعر فى الضرورة ٣٥٤ وشفاء الغليل ١٥ والاقتضاب ٣٦٥ والمحتسب ٣٧/١ والأذكياء لابن الجوزى ١١١ ؛ ١١٢ ؛ ١١٧ ؛ ١٤٣ ؛ ١٥٦ ؛ ١٥٧ ؛ ١٥٨ والمسائل البصريات ٤٢٥/١ والخصائص ٢٤٢/١ ومجالس ثعلب ٢٧٥/١ والمزهر ٢٠٨/١ والإنصاف لابن الأنبارى ٣٠٤/٢ والتكملة للجواليقى ٤٧ وتهذيب اللغة ٢٤/١ ومعجم الأدباء ٣٩٣/١ ؛ ١٣١/٣ والصعقة الغضبية ١٣٨ وإنباه الرواة ١٤٠/١ ؛ ٣٢٥/٢ ونهاية الأرب ٢٢٥/١٠ - ٢٢٦ وتصحيح التصحيف ١٤١ ومعانى القرآن للفراء ٢/١ ؛ ٢٨١/١ ؛ ٣٥٣/٢ والصاهل والشاحج ٦٦٩ ومنامات الوهرانى ٨١ ؛ ٨٢ ؛ ٨٤ ؛ ١٦٨ ؛ ١٧٠ ؛ ١٧١ والبديع لابن المعتز ٤٠ وبغية الوعاة ٣١٥/١ وفى تخريج الدلالات السمعية ٤٣ - ٤٤ كلام كثير عن (أيش) وأنها فاشية فى كلام العرب ، فصيحة ، وفيه كذلك ذكر لبعض الأمثلة والأشعار التى وردت فيها الكلمة .

وأصله : أى شيء ؟ » [١] .

ومن ذلك أيضا كلمة : « العِزْزال » ، بمعنى : المتاع القليل ، التى أصبحت على لسان الناس : « العزال » بمعنى : أثاث البيت ومتاعه [٢] .

ومثله قولنا فى الإجابة : « إيوه » ، فهذه مقتطعة من : إى والله ، كما اقتطعت منها : « إلّا » بمعنى : « نعم » فى السعودية ، قال الخفاجى : « إيوه : إى بمعنى نعم ، فى القَسَم خاصة ، قال الزمخشرى فى الكشاف : سمعتهم فى التصديق يقولون : إيوه ، فيصلونه بواو القسم ، ولا ينطقون به وحده انتهى . والناس تزيد عليه هاء السكت » [٣] .

ومن أمثلة ذلك أيضا قولنا فى مصر مثلا : « بيض بِرِشْت » بمعنى : بيض غير ناضج نضجا كاملا على النار . وأصل الكلمة من الفارسية : « نِيمْبِرِشْت » وهو المشوى نصف شىّ ، مكونة من (نيم) = نصف + (برشت) المقتضبة من (برشته) = مشوى [٤] .

وقد روى لى بعض الزملاء ، أن أحد المدرسين فى مراحل التعليم العام ، كانت من لوازمه الكلامية ، فى شرح الدروس ، عبارة : « شَخْبَالك » بدلا من : « مش واخد بالك ؟ » .

وفى كل اللغات أدوات ، وحروف جر ، وحروف وصل ، أصلها فى غالب الأمر كلمات قائمة بنفسها ، تحولت لى آلات نحوية ، وذلك

---

(١) الصعقة الغضبية ٣٢٩

(٢) انظر : القاموس المحيط (عرزل) ٤ /١٤ وتهذيب الألفاظ العامية ٢/٢٢

(٣) شفاء الغليل للخفاجى ١٨ وانظر كذلك : قاموس العادات لأحمد أمين ٤٣٠ وتهذيب الألفاظ العامية ٧٢/١

(٤) انظر : غرائب اللغة العربية ٢٤٧

« بتحويل الكلمات المليئة إلى كلمات فارغة ، فالأدوات النحوية التى تستعملها اللغات ، ليست إلا بقايا من كلمات مستقلة قديمة ، أفرغت من معناها الحقيقى ، واستعملت مجرد موضحات ، أى مجرد رموز . ونستطيع أن نتتبع فى كثير من اللغات ، تطور عناصر مختلفة ، من قبيل حروف الجر ، وحروف الوصل ، وأدوات التعريف ... وهى فى كل اللغات إشارات قديمة ، كما أخذ من اسم العدد أداة تنكير ، تعبر عن الوحدة ، فى اللغات الجرمانية والكلتية والإغريقية الحديثة ، وجميع اللغات الرومانية ، واسم الإنسان ، صار فى الفرنسية والجرمانية والكلتية والأرمينية ، أداة نحوية تعبّر عن الشائع ؛ ففى الألمانية مثلا man sagt « يقال » (حرفياً : يقول إنسان) ... والأفعال التى تسمى بالأفعال المساعدة ، كلمات مفرغة أيضاً ؛ ففى الإنجليزية فعل : to do بمعنى : يفعل ، يستعمل أداة نحوية للاستفهام مثل : ? do you see = هل ترى ؟ وللنفى مثل : I don't see = لا أرى »[1] . وكذلك الفعل « عاد » فى العربية ، فقد فرّغ من معناه وصار أداة فى مثل : « لم يعد صالحاً للاستعمال » .

ومن الكلمات التى فرغت من معناها الأصلى ، وصارت أداة فى العربية ، وعانت كثيراً من آفة البلى اللفظى ، كلمة : « سوف » . ويظن كثير من الناس أن السين وسوف ، أداتان مختلفتان للدلالة على الاستقبال ، وُضعتا هكذا وضعاً ، منذ أن خلق الله العربية . وقد خدع بذلك نحاة البصرة ، وحكموا المنطق العقلى ، فى أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، فقالوا : إن سوف تدل على الاستقبال البعيد ، والسين تدل على الاستقبال القريب[2] . وليس فى نصوص اللغة ما يشهد لتكلفهم هذا ، فقوله تعالى

---

(١) اللغة لفندريس ٢١٦

(٢) انظر : مغنى اللبيب لابن هشام ١/١٣٩ والمرتجل لابن الخشاب ١٦ - ١٧

مثلا : ﴿ فسيكفيكهم الله ﴾ ، ليس معناه تحقق هذه الكفاية فى الغد ، كما أن قوله تعالى : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ ، ليس معناه تأخر الإعطاء عاماً أو عامين .

بل إن الحقيقة أن سوف أقدم من السين ، والسين جزء مقتطع منها ، وسوف من الكلمات القديمة فى اللغات السامية الأخرى ، كالآرامية فهى فيها : sawpā (ܣܘܦܐ) وهى اسم معناه فيها : الغاية والنهاية ، ثم أصبح فى العربية القديمة أداة تدل على الاستقبال فى الأفعال ، ثم بدأت تعانى قصاً لبعض أطرافها ، فى الفترة التى سبقت نزول القرآن الكريم ؛ فقد ورد أن العرب قالوا : سَوْ يكون ، وسَفْ يكون ، وسَايكون ، وسيكون [1] .

وعندما جاء القرآن الكريم ، سجل لنا إحدى صور التطور فى (سوف) ، أو قل : المرحلة الأخيرة منه ، مع الأصل الذى كان لا يزال يعيش معه جنباً إلى جنب ، كما روى لنا اللغويون صور التطور الأخرى ، التى لم يكتب لها ما كتب لغيرها من الخلود .

وممن يقف معنا فى هذه القضية ، من قدامى النحاة العرب : العلامة ابن مالك صاحب الألفية المشهورة ؛ فقد منع هذا العلامة كون التراخى فى (سوف) أكثر ، بأن الماضى والمستقبل متقابلان ، وإذا كان الماضى لا يقصد به إلا مطلق المضى ، فكذلك المستقبل ، ليجرى المتقابلان على

---

(١) انظر : مجالس ثعلب ٣١٥/١ ومغنى اللبيب ١٣٩/١ وإعراب ثلاثين سورة لابن خالويه ١١٨ ولسان العرب (سوف) ٦٥/١١ والمسألة ٩٢ من الإنصاف لابن الأنبارى ، وفى الصاحبى لابن فارس ١٠٩ : « ويختصرون : سوف أفعل ، فيقولون : سأفعل » .

أما ابن يعيش (شرح الملوكى ٤٣٩) فيقول : « وأما (سوف) فحذف الفاء منه بعيد جدا... وذهب بعضهم إلى أن السين فى : سيفعل ، محذوفة من (سوف) وهو بعيد ، أبعد من قولهم : (سَوْ أفعل) لأنه إجحاف » !

سنن واحد ، كما يرى أن دعوى التفاوت بين السين وسوف فى مدة الاستقبال مردودة ، لأن العرب عبّرت عن المعنى الواحد الواقع فى الوقت الواحد ، بسيفعل ، وسوف يفعل ... يقول ابن مالك :

« وجاء عن العرب : سَفْ أفعل ، وسَوْ أفعل ، وسَىْ أفعل ، وهى أغربهم ، حكاها صاحب المحكم ، واتفقوا على أن أصل : سَفْ ، وسَوْ ، وسَىْ : سوف .

« وزعموا أن السين أصل برأسها ، غير مفرعة عن سوف ، ولكنها منها كنون التوكيد الخفيفة من نون التوكيد الثقيلة ، وهذا عندى تكلف ودعوى مجردة من الدليل ... فقد أجمعنا على أن : سَفْ وسَوْ وسَىْ – عند من أثبتها – فروع سوف ، فلتكن السين أيضا فرعها ، لأن التخصيص دون مخصص مردود ، ويكون هذا التصرف فى سوف بالحذف ، شبيها بما فعل بأيمن الله فى القسم ، حين قيل : أيْمُ الله ، وأمُ الله ، ومُنُ الله ، ومُ الله ، وقريبا من قولهم فى حاشا : حاش ، وحشا... وقال بعضهم : لو كانت السين بعض سوف ، لكانت مدة التسويف بهما سواء ، وليس كذلك ، بل هى بسوف أطول ، فكانت كل واحدة منهما أصلا برأسها .

« قلت : وهذه دعوى مردودة بالقياس والسماع ، فالقياس أن الماضى والمستقبل متقابلان ، والماضى لا يقصد به إلا مطلق المضىّ ، دون تعرض لقرب الزمان وبعده ، ليجرى المتقابلان على سنن واحد ، والقول بتوافق : سيفعل وسوف يفعل ، مصحح لذلك فكان المصير إليه أولى . وهذا قياس .

« وأما السماع ، فإن العرب عبّرت بسيفعل ، وسوف يفعل عن المعنى الواحد الواقع فى وقت واحد ، فصح بذلك توافقهما وعدم تخالفهما ؛ فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ﴾ وقوله

تعالى : ﴿ كلا سيعلمون ﴾ و ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ . ومنه قول الشاعر :

وما حالة إلا سَيُصرف حالُها   إلى حالة أخرى وسوف تزول

فهذا كله صريح فى توافق : سيفعل ، وسوف يفعل ، فى الدلالة على مطلق الاستقبال ، دون تفاوت فى قرب وبعد » [١] .

* * *

وهذه لام الاستغاثة ، التى تدخل على المنادى ، فى مثل قول مهلهل ابن ربيعة :

يا لبكرٍ أنْشروا لى كليباً   يا لبكرٍ أين أين الفرارُ [٢]

وهذه اللام ، بقية من (آل) [٣] التى فرغت من معناها ، وقصت أطرافها على النحو الذى رأيناه فى : سوف .

ومن أمثلة هذه الظاهرة – ظاهرة التفريغ والتحول إلى الأداة والبلى – فى العربية العامية كلمة : « شىء » ، التى بليت ، وصارت على حرف واحد هو « الشين » ، وفرغت من معناها ، وأصبحت جزءا من أداة النفى ، إلى درجة أننا نقول الآن فى مصر « ما شُفْتش شىء » ؛ فقد نُسى أن « الشين » مختصرة من « شىء » ، وأصبحت لا تعنى فى ذهن المتحدث بها إلا النفى ، ولذلك قد تستخدم معها كلمة : « شىء » مرة أخرى كما فى المثال السابق .

وهذه « الحاء » التى تدخل فى لهجات الخطاب العامية ، على الفعل المضارع للدلالة على الاستقبال ، أصلها كلمة : « رائح » من « الرَّواح » . وقد فرغت من معناها الأصلى ، وتعاورها البلى ، إذ يقال مثلا : « رايح أعمل

---

(١) شرح التسهيل لابن مالك ١/٢٥ – ٢٨ وانظر كذلك : مغنى اللبيب ١/١٣٩

(٢) انظر : كتاب سيبويه ١/٣١٨ وخزانة الأدب ١/٣٠٠

(٣) الموفى فى النحو الكوفى ٦٨ والتطور النحوى لبرجشتراسر ٢٩

كذا » [١] و « راح أعمل كذا » ، « حا عمل كذا » . وكل هذه الصور لا تزال مستعملة فى لهجات الخطاب فى البلاد العربية ، بل لقد تطورت فى لهجة المصريين إلى أبعد من هذا ، فصارت « هاء » توضع فى أول المضارع ، وقد تردّدت ذات مرة ، قبل أن أصل إلى وجه الصواب ، فى قراءة هذه العبارة ، على حائط فى القاهرة : « هندخر علشان نبنى السّدّ » !

ولم يعرف الشيخ محمد على الدسوقى أصل الهاء والحاء فى مثل هذه التراكيب ، فخلَّط فى ذلك أيما تخليط ، حين قال : « هتفعل كذا : صحيح ؛ لأن الهاء مبدلة من الهمزة . والأصل : أتفعل كذا ؟ قال فى القاموس فى الكلام على أوجه الهاء : الرابع : المبدلة من همزة الاستفهام . وفى اللسان : ويقولون : هَئِنَّكَ زيد ، معناه : أإنك زيد ، فى الاستفهام . ومن قراءة : هألد وأنا عجوز ، أى أألد . وهذه لغة الوجه القبلى . وبعض العامة يبدلها حاء خطأ ، فيقول : حتكتب ؟ وقد يستعملها العامة بمعنى السين ؛ يقولون : حاقوم ، أو هاقوم ، أى سأقوم ، وذلك خطأ ؛ لأنه لم يرد إبدال السين حاء أو هاء فى مثل هذا » [٢] !!

وكذلك تلك « الباء » التى تدخل فى المضارع ، للدلالة على الزمن الحالى ، فى مثل : « فلان بياكل وبيشرب وبيلعب » — هذه الباء هى كل ما بقى من الفعل : « بقى » [٣] . ولم يدرك الشيخ محمد على الدسوقى سر هذه الباء ، فرآها فى صورتها الحالية ، مشبهة لباء الجر ، وقال عن عامة عصره : « لقد فقد العامة أهم قواعد اللغة ، وقوضوا أعظم أركانها ، وهو أنه لا يجوز دخول أى حرف من حروف الجر على الأفعال فعكسوا القضية ، واستباحوا

---

(١) هذا التعبير قديم فى اللهجة العامية ، ففى منامات الوهرانى (المتوفى سنة ٥٧٥ هـ) ص ٣٥ : « وأنا رايح أردها عليه » .

(٢) تهذيب الألفاظ العامية ٢/١٢

(٣) انظر : G. Kampffmeyer, Die arabische Verbalpartikel b (m)

حمى اللغة العربية » [١] .

ولقد دلنا الدكتور أحمد عيسى ، على أن ما حدث لهذا الفعل : « بقى » من التفريغ والبلى ، أمر قديم فى عصور العربية ، فقال : « وهذه الزيادة على فعل المضارع ، قديمة العهد جداً ، فقد قرأت هذا التحريف ، فى كلام أناس من القرن الثالث الهجرى ، وذلك فى كتاب : « درر التيجان وغرر تواريخ الزمان ، لأبى بكر بن عبيد الله بن أيبك ، صاحب صرخد ، من علماء القرن الثامن ، ولكن الكلام منقول فيه عن أناس من القرن الثالث الهجرى » [٢] .

ولقد فطن الفراء رحمه الله تعالى ، إلى أن كثرة الاستعمال تبلى الألفاظ ، فقال : ﴿ ولسوف يعطيك ربك ﴾ ... وهى فى قراءة عبد الله : ولسيعطيك ، والمعنى واحد ، إلا أن (سوف) كثرت فى الكلام ، وعرف موضعها ، فترك منها الفاء والواو ، والحرف إذا كثر فربما فعل به ذلك ، كما قيل : أيش تقول ؟ وكما قيل : قم لاباك ، وقم لابشانئك ، يريدون لا أبالك ، ولا أبالشانئك » [٣] .

كما يقول ابن جنى : « هذا اللفظ كثر فى كلامهم وشاع استعماله ، وهم لما كثر فى استعمالهم أشد تغييرا ، كما جاء عنهم لذلك : لم يَكُ ، ولا أَدْرِ ، ولم أُبَلْ ، وأَيْشٍ تقول ؟ » [٤] .

ويقول فى موضع آخر : « لما كثر استعمالها لها ، تلعبت بها العرب ، كأشياء يكثر تصرّفها فيها ، لكثرة نطقها بها » [٥] .

* * *

---

(١) تهذيب الألفاظ العامية ٥٤

(٢) المحكم فى أصول الكلمات العامَية ٢١

(٣) معانى القرآن ٢٧٤/٣ وانظر كذلك : الأشباه والنظائر للسيوطى ١١/١

(٤) المحتسب ٣٧/١

(٥) المحتسب ١٧٠/١

١٠ - الفَصْلُ الخَاطِئُ

من المعروف عند علماء اللغات ، أن الطفل يسمع اللغة ممن يحيطون به جملا مترابطة ، ويمضى وقت قبل أن يَعْزل العناصر المكونة للجمل ، وهى الكلمات والأدوات ، التى تربط بينها ، ويختزن كل واحدة منها فى ذاكرته ، تحت جنس معين .

وقد يحدث أحياناً أن تلتصق بعض هذه الأدوات ، كحروف العطف والجر التى صارت على حرف واحد ، بالكلمات المجاورة لها ، التصاقاً شديدا ، يؤدى إلى التباس الأمر على السامع ، فيظن أن الأداة مع ما دخلت عليه ، كلمة واحدة ، ويستعملها بشكلها الجديد ، الذى صنعه هو بخياله ، وهو بهذا يفصل بين مكونات الجملة بطريقة غير صحيحة ، ويسمى عمله هذا : الفصل الخاطىء (Falsche Trennung) . وقد حدثت هذه الظاهرة لابنتى وهى صغيرة ، فى بدء مراحل التكوين اللغوى عندها ، حين سمعت أخاها يقول : « أنا معاى أربع تقلمة » فقالت : « وأنا عاوزة تقلمة زيّه » ! فالذى حدث هنا ، أنها فصلت تاء التأنيث من : « أربعة » ، ووضعتها مع كلمة : « أقلمة » ، وهو الجمع الشائع لكلمة : « قلم » فى العامية المصرية .

ومن أمثلة الفصل الخاطىء ، قول العامة : « عقبال عندكم » ، بدلا من : « عقبى لكم » فقد اقتطع العامة اللام الجارة ، وضموها إلى كلمة : « عقبى » ، فصارت : « عقبال » . وقد حدث مثل ذلك فى قول العامة : « فلان جاب كذا » وأصلها : « فلان جاء بكذا » ، فضاعت الهمزة ، واقتطعت الباء الجارة ، وضمت إلى : « جا » ، فصارت « جاب » .

وأغلب الظن أن ذلك قد حدث فى العربية الفصحى فى كلمة : « مالّ » ، وأن أصلها مركّب من « ما » الموصولة ، واللام الجارة فى مثل :

« مالى » بمعنى : « الذى لى » ، فاقتطعت اللام ، وضمت إلى « ما » فصارت : « مال » [١] .

ومثل ذلك تماماً كلمة : « وَيْلٌ » فى العربية الفصحى ، فى نحو قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ فأصل هذه الكلمة : (وَىْ + ل) فى عبارات مثل : وَىْ لك ، وَىْ لَهُ ، وَىْ لَهَا ... إلخ ، ثم حدث فصل خاطىء فضمت اللام إلى : « وَيْل » بعد أن كانت « وَىْ » ، وعُدّت معها كلمة واحدة ، فاستخدمت معها اللام مرة أخرى ، وقد فطن إلى ذلك المفضل بن سلمة ، إذ يقول : « قولهم : وَيْلَهُ وعَوْلَهُ ، فَوَيْله أصلها : وَىْ وصلت بلَهْ – ومعنى وَىْ : حُزْنٌ » [٢] .

ومن الأدلة على صحة هذا أيضاً قول العرب : « وَيْلُمِّه » ، بمعنى : « وَىْ لأمِّه » . وإن كان ابن الشجرى يدعى أن الأصل هنا : « وَيْلٌ لأمِّه » ، ويلتمس لحذف اللام هنا سبباً متكلفاً ، فيقول : « ومما حذفوا منه إحدى اللامين قولهم : ويلمّه ، الأصل : ويل لأمه ، فحذفوا تنوينه ، وأدغموا اللام التى هى لام الكلمة ، فى اللام الجارة ، فصار التقدير : ويل أمه ، ثم حذفوا اللام المدغمة ، وهمزة أم ، فصار : ويلمّه » [٣] .

والفصل الخاطىء ظاهرة تخضع لها كل اللغات على سواء ، يقول أولمان : « وقد يؤدى الخطأ فى تحليل الكلمات ، إلى نزع صوت من كلمة ، وإضافته إلى كلمة أخرى تجاورها مباشرة ، وهذا ظاهر فى أداة التنكير فى اللغة الإنجليزية ، حيث تتعرض هذه الأداة بصفة خاصة ، لهذا النوع من

---

(١) انظر : الفلسفة اللغوية ، لجرجى زيدان ١٠٥

(٢) الفاخر للمفضل بن سلمة ٢٠ وانظر كذلك : الفلسفة اللغوية ١٠٦ والإنصاف ٣٠٤/٢

(٣) أمالى ابن الشجرى ٥/٢

التحليل ، مثال ذلك : an apron (= مئزر) التى تطورت عن a napron وهى فى اللغة الفرنسية القديمة : naperon و an auger (= مثقب) التى ترجع إلى : a nauger وفى كل هذه الأمثلة السابقة ، نلاحظ أن الصوت : n فى أول الكلمة التالية لأداة التنكير ، قد عومل على أنه جزء من الأداة . وقد حدث العكس فى : a nickname (= لقب) التى ترجع إلى : an ekename حيث نجد صوت n فى أداة التنكير ، قد أضيف إلى الكلمة التالية لها » [١] .

* * *

(١) دور الكلمة فى اللغة ٤٢

١١ - سِيَاحَةُ الأَلْفَاظِ

قد تخرج كلمة من الكلمات من موطنها الأصلى ، فتستعيرها أمة من الأمم ، وعندئذ تغيّر هناك جلدها ، وتلبس ثوب هذه الأمة ، بمعنى أن أصواتها تتبدّل ، وبناءها يتحوّل ، ليتلاءم مع أبنية لغة الأمة التى استعارتها ، ثم تعود بعد فترة من الفترات ، قد تطول وقد تقصر ، إلى موطنها الأصلى فى ثوبها الجديد ، فتبدو كما لوكانت كلمة أجنبية ، مع أنها ليست فى الحقيقة إلا اللفظة القديمة ، قامت بسياحة عبر حدودها الأصلية ، ثم آبت بعد غياب ، وقد تحوّل حالها وتبدّل شكلها .

ومن الأمثلة على ذلك كلمة : « تفيدة » ، التى لا تزال مستخدمة فى الريف المصرى ، يسمى بها الفلاحون بناتهم من حين إلى حين ؛ فالأصل فى هذه الكلمة هو اللفظ العربى الأصيل : « توحيدة » ، وقد استعاره الأتراك ، وسموا به النساء كذلك ؛ ولأن الأتراك يلفظون الواو فاء ، وليس فى نطقهم صوت الحاء ؛ فقد تحولت الكلمة على لسانهم إلى : « تفيدة » . وهكذا سافرت السيدة « توحيدة » إلى استانبول ، وهناك لبست عباءة الأتراك ، وعادت إلينا فى هذا الشكل الجديد : « تفيدة » !

ومثل هذا التطواف للكلمات بين اللغات ، نسميه نحن : « سياحة الألفاظ » ؛ لأنه يشبه فى نظرنا ما تؤدى إليه سياحة الأفراد ، من تغيير فى العادات والتقاليد فى كثير من الأحيان .

وقد أطلق الزميل الفاضل الدكتور عبد الصبور شاهين على هذه الظاهرة ، عبارة : « إعادة الاقتراض » ؛ فقال : « فى بحث قدمه الأستاذ أنيس المقدسى ، إلى مجمع اللغة العربية [١] ، تعرض لتحقيق ألفاظ تسجل

---

(١) البحوث والمحاضرات ، للدورة التاسعة والعشرين ، لمجمع اللغة العربية .

ظاهرة تسرب العربية فى الإنجليزية فى العصر الوسيط ، كما تتجلى فيها ظاهرة أخرى ، يمكن أن نطلق عليها : « إعادة الافتراض » ، حيث نجد أن اللفظ العربى الأصل ، قد اقترضته الإنجليزية مثلا ، وصبغته بصبغتها النطقية ، ثم أعادت تصديره إلى العربية ، على غلاف المنتجات الحضارية الجديدة ، فإذا بنا ننطقه بملامحه الأجنبية » [١] .

كما أطلق « ستيفان أولمان » على مثل هذه الظاهرة : « استيراد الصادرات » ؛ فقال : وقد يؤدى التقارض العارض إلى (استيراد الصادرات) ، فالكلمتان : sport = رياضة ، و ticket = بطاقة ، اللتان ترجعان إلى الكلمتين الفرنسيتين : desport و étiquette قد عادتا إلى اللغة الفرنسية مرة أخرى فى صورتهما الإنجليزية . وقد يحدث عكس هذا أيضا ؛ فالكلمة : bigot = متعصب ، فى الإنجليزية ، مأخوذة من الفرنسية ، ولكن من الجائز أن تكون الكلمة الفرنسية نفسها ، مقترضة من أصل إنجليزى قديم جدا ، لعله العبارة القَسَمِيَّة : by God [٢] » .

ولعل السر فى مثل هذه السياحة أن « كلمات الحضارة بوجه خاص ، معرضة للاستعارة ، حيث تُحمل فى نفس الوقت مع الشيء الذى تدل عليه ؛ فالشيء يقوم لها مقام المركبة ، التى تحملها فى بعض الأحيان إلى آفاق بعيدة ... فيمكننا أن نفترض أن الكلمة إذا ما تجاوزت حدود لغتها ، انفتح أمامها الطريق لطول الطواف ؛ لأنها لم تطلب فى الخارج إلا لأنها تدل على شيء جديد ، خاص بالبلد الذى جاءت منه . ومن ثم كان من الطبيعى أن نتوقع رؤيتها فى كل مكان يطلب فيه هذا الشيء [٣] » .

---

(١) دراسات لغوية ٢٨٢

(٢) دور الكلمة فى اللغة ١٤٩

(٣) اللغة لفندريس ٢٩١

وقد ضرب لنا « ڤندريس » بعض الأمثلة لهذه الظاهرة ؛ فقال : « قد تنتقل كلمة من لغتنا إلى الخارج ، وتصير مفقودة بالنسبة لنا ، ثم تعود إلينا بعد قرون ؛ مثال ذلك كلمة : Flirt (مغازلة) ، وكلمة : budget (ميزانية) ، اللتان تعدّان عندنا اليوم مستعارتين من الإنجليزية ، ولكنا نعلم أن فرنسا موطنهما الأصلى ، وأنهما عبرا البوغاز إلى انجلترا منذ زمن قديم . ومع ذلك فمن غير الحق أن ننظر بعين الجد إلى ذلك المجاز ، الذى يشبه الكلمات بالمسافرين ، الذين يعبرون الحدود فى اتجاه ما ، ثم يعودون إلى عبورها من جديد فى اتجاه مضاد ؛ ذلك بأن الكلمة التى وفدت علينا من انجلترا ، ليست هى الكلمة الفرنسية القديمة : Fleurette (زهيرة) ، وإنما جاءتنا كلمة إنجليزية : Flirt (مغازلة) ، أدخلناها فى لغتنا الحديثة . وليست كلمة : bogète (كيس صغير) القديمة ، هى التى استرجعناها فى صيغة : budget (ميزانية) ، وإنما جاءتنا كلمة مخالفة ، كلمة أجنبية ، كلمة تدل فضلا عن ذلك ، على شىء آخر ، غير ما تدل عليه الأولى [1] » .

ومن أمثلة هذه الظاهرة فى لغتنا العربية كلمة : « مرڤت » من أسماء النساء عندنا ، فهى فى الأصل كلمة عربية أصيلة ، هى : « مَرْوَة » ، استخدمها الأتراك فأبدلوا واوها ڤاء ، ثم عادت إلينا فى ثوبها الجديد .

وقد أخذت الكلمة القديمة : « مروة » تشيع مرة أخرى فى التسمية عندنا . ومن الطريف أن صديقا أعرفه ، سمى إحدى بناته : « مرڤت » ، وسمى الأخرى : « مروة » ، وهو لا يدرى أن الأولى هى الصورة التركية للثانية .

ومثلها كلمة : « سُوزَان » ، فالأصل فيها هو : « سُوسَن » ، التى نتجت بسبب انكماش الصوت المركب ، وقانون السهولة والتيسير ، من

---

(١) اللغة لڤندريس ٢٤٨ — ٢٤٩

الكلمة العربية القديمة : « سَوْسَن [١] » ، ولأحد الزملاء زوجة تسمى : « سَوْسَن » ، وقد سَمَّت طفلتها : « سُوزَان » ، جريا وراء الحداثة وتقليد التسميات الغربية ، وهى لا تدرى أن الغرب استعار الكلمة من الشرق !

أما كلمة : « كابْل » ، التى نستخدمها اليوم فى عبارات مثل : « كابلات التليفونات » (فى الإنجليزية cable وفى الفرنسية câble وفى الألمانية kabel) ، فأصلها كلمة عربية هى : « حبل » . ويقول : « ليتمان » إن « اللغات الرومانية القديمة فيها : cable ، وتحوّل الحاء العربية إلى كاف يدل عليه كلمة : Alkanna بمعنى (الحِنّاء) فى الألمانية ، وكلمة : cammalo بمعنى (الحمَّال) فى الإيطالية المعاصرة [٢] » .

وكذلك كلمة : « أميرال » بمعنى : قائد الأسطول البحرى ، هى مستعارة فى العصر الحاضر من الفرنسية : Amiral . والأصل فيها كلمة عربية قديمة ، أصابها البلى اللفظى على يد الفرنسيين ، وهى : « أمير البحر » ، كما أصابها التطور بزيادة الميم فى الإنجليزية : admiral والألمانية : Admiral .

أما لفظ : « الشِّيك » الذى يتعامل به مع البنوك ، فهو فى العصر الحاضر مستعار من الإنجليزية : cheque أو الفرنسية : chèque ، غير أنه فى هذه اللغات الأوربية ، مستعار من الكلمة العربية : « صَكّ » .

وللدكتور طه حسين كلام فى استعارة هذه اللفظة ، يقول فيه : « من خصائص المجامع اللغوية أن تكون بطيئة ، وأن تكون متمنعة أشد التمنّع ، قبل أن تتخذ قراراً ، فالأناة خير دائما ، والعجلة من الشيطان . وأحب أن أذكّركم بهذه المناسبة بأن كلمة : (شيك) chèque يقال إن

---

(١) انظر : درة الغواص للحريرى ٧٨ وتصحيح التصحيف ٣٢٣

(٢) انظر : Littmann, Morgenländische Wörter im Dutschen ص ٨٣ ؛ ٩٢

أصلها عربى (صك) ، وقد استعملت كثيرا عند الإنجليز ، واستعملها الفرنسيون أكثر من خمسين عاما ، قبل أن يقرها المجمع اللغوى الفرنسى ، ويوافق على أن توجد فى معجمه [١] » .

ويقال كذلك إن كلمة : « الكحول » المستعارة فى العربية من اللغات الأوربية (كالإنجليزية alcohol والفرنسية alcool والألمانية Alkohol) ، قد اقترضتها هذه اللغات من قبل من العربية ، وأصلها كلمة : « الغَوْل » فى مثل قوله تعالى : ﴿ لا فيها غَوْلٌ ولا هُمْ عنها يُنْزَفُون [٢] ﴾ .

أما « الترسانة » بمعنى : مستودع الأدوات والذخائر الحربية » ، فهى فى الأصل الكلمة العربية : « دار الصناعة » ، وهى دار صناعة السفن ، وقد أخذها الأتراك ونطقوها : tersané ، وغيَّروا معناها القديم . ونحن نجد الكلمة مع تغييرات صوتية ، فى الإنجليزية : arsenal والألمانية : Arsenal والفرنسية : arsinal وتنص بعض معاجم هذه اللغات على الأصل العربى للكلمة .

وأما « المسكرة » ، بمعنى : المستحضر التجميلى لصبغ الأهداب والحواجب ، فهى مستعارة فى العصر الحاضر من الإنجليزية : mascara . وأصلها الكلمة العربية : « مسخرة » . و « المسخرة وجمعها مساخر : ما يجلب السخرية [٣] » . والكلمة فى الألمانية هى : Maskerade وقد انتقلت الكلمة من العربية إلى الإيطالية ، حوالى سنة ١٦٠٠م ، ومنها إلى الألمانية ، والفرنسية : mascarade كذلك [٤] .

---

(١) مؤتمر الدورة الثلاثين لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ص ٥٦

(٢) الصافات ٣٧/٤٧

(٣) انظر : ألفاظ عامية فصيحة ، للدكتور داود التنير ٢٣٢

(٤) انظر : Der Sprach-Brockhaus ص ٤٢٦

وهذه كلمة : « أرابسك » ، بمعنى : « الحلية التى توجد على الأبنية من أغصان النباتات وأوراقها ، والخط العربى » أخذناها من الإنجليزية والفرنسية : arabesque وهى بهذا النطق فى الألمانية : Arabeske . وهى فى الأصل كلمة : « عربى » ، دخلت إيطاليا أولا ، ثم فرنسا ، ثم ألمانيا [١] .

وربما أمكننا أن نعد من هذه الألفاظ ، كلمة : (ܟܐܦܐ) (كيفا) kīfā الآرامية ، التى تعنى : « الحَجَر » ، وإن لم تنطبق حالتها على ما نحن فيه تماما ؛ فقد سُمِّى بهذه اللفظة أحد حَوَارِيّى المسيح عليه السلام ، وورد اسمه فى الأناجيل بهذه التسمية ، كما فى نحو : (ܐܡܪ ܠܗ ܟܐܦܐ) « فقال له : كيفا » [٢] .

وإذا كانت الأعلام لا تترجم ، وإنما تنقل إلى أية لغة كما هى ، مع شىء من التوافق اللغوى ، مع أصوات اللغة الناقلة وأبنيتها ، فإن الإغريق وقعوا فى خطأ ترجمة هذا العلم ، وهم يقومون بنقل الأناجيل من الآرامية إلى لغتهم ، فتحول الاسم فى الإغريقية إلى : Petrus (بطرس) ومعناه : « الحَجَر » ، ثم ترجمت الأناجيل من الإغريقية إلى اللغات المختلفة ، وفيها اسم هذا الحوارِىّ : « بطرس » [٣] .

وهكذا يسافر « كيفا » من الجليل إلى اليونان ، ويتحول بالترجمة لمعناه إلى « بطرس » ، ويسيح فى الأرض ، تحت هذا الاسم الجديد : Petrus أو بعض صوره التى ظهر بها فى بلاد العالم المختلفة ، كما فى الألمانية : Peter والفرنسية : Pierre .

وهناك ألفاظ أخرى كثيرة ، نراها وقد تبدلت أصواتها وتغيّرت أبنيتها

---

(١) Littmann, Morgenländische Wörter im Deutschen ص ١٠٠

(٢) إنجيل مرقس ٢٩/١٤

(٣) انظر مثلا : الترجمة العربية للموضع السابق : مرقس ٢٩/١٤

فى سياحتها بين الأمم ، وتقلبها بين أنواع من النظم اللغوية ، التى تختلف عن النظام التى كانت تخضع له .

فالكلمة العبرية (יַעֲקֹב) ya'ăkōb وهى فى الأصل فعل مضارع بمعنى : « يتبع » ، وقد سمى به نبى الله « يعقوب » عليه السلام – كتبها الألمان : Jakob لأن حرف (J) ينطق عندهم (ياء) ، ولكن الاسم تحول فى نطق الإنجليزية إلى : « چاكوب » ، ويختصر أحيانا إلى : « چاك » . واللفظتان معروفتان تماما عند العرب .

ومثل ذلك أيضا الكلمة العبرية (יִצְחָק) yiṣḥāḳ وهى فى الأصل فعل مضارع بمعنى : « يضحك » ، وقد سمى به نبى الله « إسحاق » عليه السلام . وهذا الاسم ينطقه يهود ألمانيا منذ زمن بعيد بالصوت المزدوج : « تْسْ » ، وهم يكتبونه بحرف (Z) على طريقة كتابة لغتهم ، ولكن غير الألمان ينطقون هذا الحرف زايا ، ومن هنا جاءنا الاسم فى صورة : « إيزاك » !

وهذا الطريق نفسه هو الذى سار فيه اسم العلم (צִיּוֹן) Ṣiyyōn « صهيون » ، التى كتبها يهود ألمانيا بحرف (Z) ؛ لأنهم ينطقون الصاد – كما عرفنا – صوتا مزدوجا (تس) ، ولكن غير الألمان نطقوا هذه الكلمة بالزاى . ومن هنا تدرك كيف تحوَّل : « بن صهيون » إلى الاسم المعروف : « بنزايون » صاحب المحلات المشهورة !

ومثل هذا يمكن أن يقال عن كلمة : « يوسف » ، التى تنطق فى بعض اللغات : « چوزيف » ، و « شمعون » التى تحولت بالسياحة اللفظية إلى : « سيمون » ، و « شمشون » التى صارت : « سمسون » ، و « راحيل » التى نطقها يهود أوربا : « راشيل » . وغير ذلك كثير كثير !

* * *

١٢ — شَاهِدُ الحَالِ

هناك مجموعة من الألفاظ والتعبيرات اللغوية فى العربية ، يبدو لمن لا يعرف السبب فى منشئها ، أو الحادثة التاريخية التى أفرزتها ، أنها بمعناها الذى تستخدم فيه عادة ، منقطعة الصلة بالأصل الاشتقاقى الذى أخذت منه .

غير أننا إذا عرفنا الحادثة الاجتماعية أو التاريخية التى تفسرها ، والحال التى قيلت فيها ، اتضح مذهب اشتقاقها ، وبان وجه إطلاقها على المعنى الذى تدل عليه .

وقد وقعت فى الحيرة أول الأمر ، فى اختيار المصطلح المناسب ، الذى يمكن أن يطلق على هذه المجموعة من الألفاظ والتعبيرات . وتقلّبتُ بين مصطلحات : « الحدث التاريخى » و « الدلالة التاريخية » و « الأصل التاريخى » و « التفسير التاريخى » و « سياق الحال » Context of Situation . وذكرنى هذا المصطلح الأخير ، بإطلاق ابن جنى عبارة : « شاهد الحال » على شىء قريب مما نحن فيه ، فرأيت فيه مصطلحا عربيا قديما أولى بالرعاية والإحياء .

يقول ابن جنى : « الاعتقاد يخفى ، فلا يعرف إلا بالقول ، أو بما يقوم مقام القول من **شاهد الحال** [١] » .

وقد شرح ابن جنى هذا الموضوع شرحا قريبا مما نحن فيه ، فقال : « **وقد يمكن أن تكون أسباب التسمية تخفى علينا ، لبعدها الزمان عنا ، ألا** ترى إلى قول سيبويه [٢] ، أو لعل الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر .

---

(١) الخصائص ١/١٩

(٢) كتاب سيبويه ١/٢٦٨

يعنى أن يكون الأول الحاضر **شاهد الحال** ، فعرف السبب الذى له ، ومن أجله ما وقعت عليه التسمية ، والآخر – لبعده عن الحال – لم يعرف السبب للتسمية ، ألا ترى إلى قولهم للإنسان ، إذا رفع صوته : (قد رفع عقيرته) ، فلو ذهبت تشتق هذا ، بأن تجمع بين معنى الصوت ، وبين معنى : (ع ق ر) ، لَبَعُدَ عنك وتَعَسَّفت . وأصله أن رجلا قطعت إحدى رجليه ، فرفعها ووضعها على الأخرى ، ثم صرخ بأرفع صوته ، فقال الناس : رفع عقيرته [١] » .

وقد أطلق ابن جنى على شيء من مثل ما نحن فيه ، مصطلح : « **الأحوال المشاهدة** » ؛ فقال : ومن ذلك ما أقيم من الأحوال المشاهدة مقام الأفعال الناصبة ، نحو قولك إذا رأيت قادما : خَيْرَ مَقْدَم ، فنابت الحال المشاهدة مناب الفعل الناصب [٢] » .

ويفطن ابن جنى إلى السبب فى غموض بعض الألفاظ والعبارات ، فى الحكايات والأخبار التى لم يقرن بها شرح للأحوال التى تفسرها ؛ فيقول : « ألا ترى إلى قوله :

تقولُ وصكَّت وَجْهَهَا بيمينها أَبَعْلِيَ هذا بالرَّحَى المتقاعِسُ

فلو قال حاكيا عنها : (أبعلى هذا بالرحى المتقاعس) ، من غير أن يذكر صك الوجه ، لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرة ، لكنه لما حكى الحال فقال : (وصكَّت وجهها) ، عُلم بذلك قوةُ إنكارها ، وتعاظم الصورة لها . هذا مع أنك سامع **لحكاية الحال** غير شاهد لها ، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف ، ولِعِظَمِ الحال فى نفس تلك المرأة أبين ... وليست كل

---

(١) الخصائص ٦٦/١ ؛ ٢٤٨/١

(٢) الخصائص ٢٦٤/١

حكاية تروى لنا ، ولا كل خبر ينقل إلينا ، يُشفع به شرحُ الأحوال التابعة له ، المقترنة كانت به [١] » .

ويسمى ابن السراج الأحداث الاجتماعية والتاريخية ، التى تفسر بعض الألفاظ والعبارات اللغوية ، **بالأخبار** ؛ فيقول : « يعرض لأهل اللغة الواحدة أن يسموا ويصفوا أشياء بأسباب ، وتكون لها أخبار ، فيجوز أن تبلغنا ، ويجوز ألا تبلغنا ، فتكون كالأمثال التى لا تعرف أسبابها كلها » [٢] .

ويحذر ابن السراج من اللجوء إلى تعسف الاشتقاق ، فيما لم تبلغنا أخباره والظروف التى أحاطت به عندما استعمل أول مرة ، من الألفاظ والعبارات فى دلالات خاصة ؛ فيقول : « وقد كان أحد الحذّاق بالنحو [٣] ، يذكر أنه ليس فى لغة العرب لفظتان تتفقان فى الأصول ، إلا لمعنى يجمعهما ، ويتعسف فى ذلك غاية التعسف ، فسألته فقلت له : أخبرنى عن قولهم : (رفع عقيرته) إذا رفع صوته بالغناء ، أليس قد جاء الخبر بأن أصله أن رجلا عُقِرت رِجْلُه ، فكان ينوح عليها ، فقيل بعد ذلك لمن رفع صوته مترنما : قد رفع عقيرته ؟ فقال : بلى . قلت : فلو لم يبلغنا الخبر ، هل كان يجوز أن تشتق للعقيرة معنى من الصوت ؟ قال : لا . فقلت له : فما تنكر أن تجىء ألفاظ استعملت بقصص لم تبلغنا ، فلا يجوز أن يُعرف اشتقاقها ؟ فقال : ما أدفع ذلك [٤] » .

وفى هذه العبارة اللغوية ، يظهر لنا كيف انتقلت دلالة « العقيرة » من الرِّجْل المعقورة ، إلى معنى « الصوت » . وقد جمع صاحب لسان

---

(١) الخصائص ١/٢٤٥ - ٢٤٦

(٢) الاشتقاق لابن السراج ٣٣

(٣) هو أبو إسحاق الزجاج ، كما فى الخصائص ١/٦٦

(٤) الاشتقاق لابن السراج ٣٣ - ٣٤

العرب آراء اللغويين المختلفة حول الانتقال الدلالى لهذه العبارة ، وحدود هذا الانتقال ، فقال : « وعقيرة الرجل : صوته ، إذا غنى ، أو قرأ ، أو بكى . وقيل : أصله أن رجلا عُقرت رِجْلُه ، فوضع العقيرة على الصحيحة ، وبكى عليها بأعلى صوته ، فقيل : رفع عقيرته ، ثم كثر ذلك حتى صُيِّر الصوت بالغناء عقيرة . قال الجوهرى : قيل لكل من رفع صوته عقيرة ، ولم يقيد بالغناء . قال : والعقيرة : الساق المقطوعة . قال الأزهرى : وقيل فيه : هو رجل أصيب عضو من أعضائه ، وله إبل اعتادت حُداءَه ، فانتشرت عليه إبله ، فرفع صوته بالأنين لما أصابه من العقر فى بدنه ، فتسمَّعت إبله ، فحَسِبْنَه يحدو بها ، فاجتمعت إليه . فقيل لكل من رفع صوته بالغناء : قد رفع عقيرته [(١)] » .

هذا ، وقد أدّى عدم إدراك الحدث التاريخى ، وشاهد الحال فى هذا القول ، إلى ظن بعض المثقفين أن العقيرة هى : الحنجرة ، كما حدث لواحد من أعلام الصحافة المصرية ، وهو موسى صبرى ، الذى كتبت ذات يوم يقول : « هذا الوزير الأنيق الرشيق ، هو الذى يفتح اليوم عقيرته ليل نهار ، تهجما على مصر ، وعلى صحافة مصر ، وعلى شعب مصر [(٢)] » .

والمثال التالى يوضح لنا أهمية معرفة الحدث التاريخى ، الذى ينتج دلالة معينة لكلمة من الكلمات ؛ إذ قد يؤدى الجهل بذلك إلى الحَدْس والتخمين ، والضرب فى بيداء مقفرة من الظنون والأوهام .

---

(١) لسان العرب (عقر) ٢٧٠/٦ وانظر : الصحاح (عقر) ٧٥٤/٢ وتهذيب اللغة ٢٢٠/١ وغريب الحديث لابن قتيبة ٣٧٣/٢ والزاهر ٥٨/٢ والنهاية لابن الأثير ٢٧٥/٣

(٢) مقال بعنوان : الديمقراطية الغربية والشيوعيون ، بصحيفة الأخبار ، فى يوم الخميس الموافق ١٩٧٨/٦/٢٢ م .

فكلمة : « التقاوى » مثلا ، وهى كلمة مستعملة عند الفلاحين فى مصر ، بمعنى : « البذور » التى تزرع فى الأرض ، يرى الدكتور أحمد عيسى أنها من « التقاوى بين الشركاء : أن يشتروا سلعة رخيصة ، ثم يتزايدون بينهم حتى يبلغوا غاية ثمنها ، فاستعارها العامة للبذور التى تبذر فى الأرض ، لتنبت مثلها أضعافا مضاعفة [١] » .

وفى الحقيقة لا توجد مناسبة بين المعنيين . ومن معرفتنا للحدث التاريخى ، يتضح لنا أن الكلمة جمع لكلمة : « تقوية » ، وأن « البذور » كانت تصرف للفلاحين من قِبَل السلطان ، تقوية لهم على الزراعة ؛ فسميت البذور : « تقوية » وجمعها : « تقاوى » .

وقد عثرت على ما يؤيد هذا فى كتاب : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، للمقدسى أحد علماء القرن الرابع الهجرى ، الذى يقول فى حديثه عن دخل إقليم مصر : « يعمد الفلاح إلى الأرض ، فيأخذها من السلطان ويزرعها ، فإذا حصد ودرس وجمع ، رُشِمت بالعِرَام وتركت . ثم يخرج الخازن وأمين السلطان ، فيقطعون كِرَى الأرض ، ويعطى ما بقى للفلاح . قال : وفيهم من يأخذ من السلطان تقوية ، فيزاد عليه فى كرى الأرض بمقدار ما اقتطعه [٢] » .

فكلمة : « التقاوى » بهذا المعنى المستعمل اليوم قديمة [٣] ، لا كما يظن الشيخ إبراهيم حمروش ، من أنها ترجع إلى عهد محمد على باشا ، فيما روى عنه الشيخ محمد على النجار فى قوله [٤] : « تطلق كلمة : التقاوى ،

---

(١) المحكم فى أصول الكلمات العامية ٤٨

(٢) أحسن التقاسيم ، للمقدسى ٢١٢

(٣) وردت كذلك فى كتاب : حوادث الدهور ٢٧٤/١ فى قوله : « واتسعت الأراضى بالرى ، واحتاجت الفلاحون إلى التقاوى ، لزراعة الأرض » .

(٤) لغويات ، لمحمد على النجار ٨٥

فى لسان عامة المصريين على البذور تبذر للزرع ، ولا تراهم ينطقون لها بواحد ، فما سمعنا لها منهم مفردا . وقد حرصت منذ دهر على أن أقف على حقيقة هذه الكلمة ومأتاها اللغوى ، فلم يبرد لى فيما وقفت عليه من المعاجم شيء يشفى الغُلَّة وينقع الصدى ؛ ففى المعاجم أن التقاوى مصدر تقاوى الشريكان ، إذا تزايدا فى الشركة بينهما ، وذلك أن يكون بين الرجلين دار مثلا ، فيقوِّماها ليشترى أحدهما نصيب الآخر . ومناسبة هذا لما عرف فى هذه الأيام لا تكاد تبين .

« وقد جرى عَرَضاً فى بعض حديث أستاذنا الحجة الثقة الشيخ إبراهيم حمروش ذكر التقاوى ، فذكر أن هذا الاستعمال يرجع إلى عهد رأس الأسرة العلوية التى كانت تحكم مصر ، وهو محمد على الكبير ؛ ذلك أنه كان يُعْطَى الفلاحون من أهراء السلطان ومخازن الولاية ، ما يعينهم على الزرع من البذور . وكان ذلك يخرج من الديوان ، ويكتب فى كتب الأعطية : يعطى فلان كذا كيلجة أو إردبا تقوية له . فلما كثر قرن عطاء البذر بالتقوية ، وكان بينهما هذا التحالف ، غلبت التقوية على البذر وعرفت فيه . فكان إذا قيل : أخذت التقوية ، فإنما يعنى أخذ البذر . وجمع التقوية على التقاوى ، وغلب هذا اللفظ : « التقاوى » على البذور ، ما قل منها وما كثر .

« على أنى رأيت فى خطط المقريزى : (التقاوى) بهذا المعنى ؛ ففيه فى الكلام على رباط الآثار : حتى احتاج إلى إحضار تقاوى الناحية المرصدة بها للتخضير » .

وقد وردت كلمة : « التقاوى » كذلك فى كلام لعبد اللطيف البغدادى [١] (المتوفى سنة ٦٢٩ هـ) قال فيه عن مجاعة أصابت مصر سنة ٥٩٧ هـ : « وكثير مما روى يبور لعجز أهله عن تقاويه والقيام عليه » .

---

(١) فى كتابه : الإفادة والاعتبار ١٧٣

ويضرب « أولمان » مثالا مشابها ؛ فيقول : كيف اكتسبت الكلمة : Collation أى : الموازنة والمراجعة التفصيلية ، مثلا ، معنى : الأكلة الخفيفة ؟ من البديهى أنه ليست هناك مشابهة بين المعنيين ، بل إن احتمال وجود أية صلة بينهما ، احتمال يبدو بعيداً أول الأمر . ولكن التاريخ يمدّنا بما يفسر هذه الحالة . لقد كانت العادة فى بعض الأديرة ، أن يتناول الرهبان طعاما خفيفا ، بعد فراغهم من قراءة سِيَر الرُّوَّاد الأوائل من رجال الدين ، ومراجعة هذه السير ، فكان هذا الارتباط العرضى ، كافيا لأن ينحرف بالكلمة ، ويقودها إلى هذا التطور فى المعنى [١] » .

* * *

وهذه كلمة : « القرافة » التى ذكرها الوهرانى (المتوفى سنة ٥٧٥ هـ) فقال : « خرجت ليلة الجمعة إلى القرافة من درب الصفا [٢] » ، كما قال فى موضع آخر : « انقطاع ابن الصابونى إلى الله عز وجل فى القرافة [٣] » — هذه الكلمة تعنى فى هذين النصين [٤] مجموعة المقابر ، كما نستعملها فى الوقت الحاضر تماما .

ولولا معرفتنا بتاريخ إطلاق هذه الكلمة على معناها الحالى ، لغمض علينا أصل هذا المعنى . وربما ربطها بعض الاشتقاقيين بالقرف ، بمعنى : القذر والوسخ ، فى العامية . وهى فى الأصل للقرحة إذا يبست وتقشرت [٥] .

---

(١) دور الكلمة فى اللغة ١٧٤

(٢) منامات الوهرانى ٨٦

(٣) منامات الوهرانى ٢٣٢

(٤) انظر نصوصا أخرى فى « القرافة » فى تاريخ مصر للمسبحى ١٤ ؛ ١٥ ؛ ٥٢ ؛ ٥٣ ؛ ٥٨

(٥) الصحاح (قشر) ١٤١٥/٤

ولكن التاريخ حفظ لنا التفسير الصحيح لدلالة هذه الكلمة على معناها ؛ يقول شهاب الدين الخفاجى : « قرافة : بطن من معافر ، عرفوا باسم أبيهم ، نزلوا محلة بمصر فعرفت بهم ، وهى الآن مقبرة . قاله ابن هشام فى تذكرته [١] » .

ويبدو أن هذه الكلمة ظلت تطلق على مقبرة معينة بمصر ، حتى أوائل القرن التاسع الهجرى ، فقد قال الفيروزابادى (المتوفى سنة ٨١٧ هـ) : « قرافة : بطن من معافر ، ومقبرة بمصر بها قبر الشافعى رحمه الله تعالى [٢] » .

وتعميم دلالة الكلمة على كل مقبرة فى عصرنا الحاضر ، أمر يرفضه الشيخ محمد على الدسوقى ، الذى يقول : « القرافة عَلَمٌ على مقبرة الإمام الشافعى ، فاستعمالها فى غيرها خطأ » [٣] .

ولكن الكلمة دخلت إلى المعجم الوسيط ، بمعناها العام الذى يستخدمه الناس فى مصر اليوم ؛ ففيه : « القرافة : المقبرة . وهو اسم قبيلة يمنية حاورت المقابر بمصر ، فغلب اسمها على كل مقبرة [٤] » .

* * *

وكلمة : « حرامى » التى وردت عند الوهرانى فى قوله : « حرامية الفرنج [٥] » ، كما ذكرها سبط ابن الجوزى فى قوله : « قد طلع علينا

---

(١) شفاء الغليل ٢١٥ وعنه فى تهذيب الألفاظ العامية ٩٧/٢

(٢) القاموس المحيط (قرف) ١٧٩/٣

(٣) تهذيب الألفاظ العامية ٩٧/٢

(٤) المعجم الوسيط ٧٢٩/٢

(٥) منامات الوهرانى ٢٣

حرامية[١] » بصيغة الجمع : « حرامية » معناها : لصوص ، كما نستعملها فى العصر الحاضر تماما .

ولولا معرفتنا بتاريخ إطلاق هذه الكلمة على معناها الحالى ، لغمض علينا أصل هذا المعنى ، وربما ربطها بعض الاشتقاقيين بالحرام الذى هو ضد الحلال ، كما فعل الدكتور أحمد عيسى الذى يقول : « الحرام نقيض الحلال ، والحرام ما حرم الله ، والنسب إليه حرامى ، فهو الذى يأتى بما حرم الله من قتل وسلب ونهب وإضرار [٢] » .

ولكن التاريخ حفظ لنا القصة ، التى تفسر دلالة هذه الكلمة على اللصوص ؛ يقول أحمد أمين : « كان فى كل بلدة تقريبا فى المدن أو القرى طائفتان : طائفة تنتسب إلى سعد ، وطائفة تنتسب إلى حرام ؛ فهذا سعدىٌّ أى منتسب إلى سعد ، وهذا حَرَامِىٌّ ، أى ينتسب إلى حرام . ويظهر أن سعدا انتصرت على حرام ، فتدلى حرام حتى كان من نسبه لصوص ، وسمى اللص حراميا [٣] » .

كما يقول محمود تيمور : « وفى الباحثين من يقرأ أصل الكلمة بأقرب ما توحى إليه ، وأظهر ما ترجع إليه ، فيخطىء فى هذا التسهيل خطأ المبعد فى التصعيب . ومن أمثلة ذلك : فهم كلمة : (الحرامى) بمعنى اللص ، على نسبة إلى الحرام ، مع أن الكلمة من بقايا حقيقةٍ تاريخية فى عصر بعيد ، تلك هى أن قبيلة بنى حرام ، كانت تتهم بالخبث والتلصّص ، فقيل فى كل

---

(١) ذيل مرآة الزمان ، فى حوادث سنة ٦٧٢ هـ

(٢) المحكم فى أصول الكلمات العامية ٦٢

(٣) قاموس العادات والتقاليد ١٦١

من ينتحقر ويسرق : هو حرامى [١] » .

* * *

ومن أطباق الحلوى الشهيرة بمصر طبق « أم على » ، وهو عبارة عن رقاق باللبن والسكر والمكسرات ، يؤكل ساخنا بعد أن يخرج من الفرن مباشرة .

وقد حكى الأستاذ أنيس منصور فى عموده اليومى : « مواقف » بصحيفة الأهرام فى ١٩٨٩/٥/١٧ م ، قصة إطلاق « أم على » على هذا الطبق ، فقال : « كان العشاء على مائدة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان ، عندما طلب منى الرئيس حسنى مبارك ، أن أتحدث عن خلفية تاريخية لأم على ، ذلك الطعام المصرى اللذيذ . فأم على هذه هى الزوجة الأولى للسلطان عز الدين أيبك التركمانى [٢] . وشجرة الدر اسمها : أم خليل ، وكانت شخصية قوية ، وهى عندما طلبت من زوجها أن يطلق (أم على) وعدها بذلك ، ولكن فوجئت به يستعد للزواج من واحدة ثالثة ، فطلبت من خادماتها أن يهجمن عليه فى الحمام ، وأن يقتلنه بالقباقيب ، واستطاعت أم على أن تنتقم من شجرة الدر ، وأن تقضى عليها بالقباقيب أيضا ، وألقوا جثتها عارية بالقرب من القلعة عدة أيام . واحتفلت أم على بهذه المناسبة ، فقدمت للفقراء ألوف الأطباق من اللبن والسكر والخبز . أما طبق أم على نفسها ، فكان مختلفا قليلا ، فقد دفعها الانتقام الشديد ، إلى أن قطعت حلمتى ثَدْيَىْ شجرة الدر ، ووضعتهما فى طبقها وأكلته . واعتاد الناس بعد ذلك أن يضيفوا الزبيب والجوز واللوز إلى هذا الطبق اللذيذ » !

---

(١) العامية الفصحى لمحمود تيمور ، بحث بمجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٣٥/١٣ وانظر : معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة ، للعدنانى ١٥٠

(٢) فى الأصل : « للصالح نجم الدين أيوب » ، وهو سهو .

وقد اكتفى أحمد أمين بوصف طبق أم على ، دون أن يعرج على التفسير التاريخى ، لتسميته بهذا الاسم ؛ فقال : « أم على : طعام لذيذ مشهور ، يصنع من الرقاق الرفيع واللبن والسمن ، فإذا فردت راقات منه ، وضع فى منتصف الصينية جوز ولوز وزبيب وبندق مكسر ، ثم أكملت الصينية مع إضافة اللبن والسمن أيضا ، ثم تدخل فى الفرن ، فتكون أكلة لذيذة (١) » .

* * *

وكلمة : « الجُرْسَة » بمعنى : الفضيحة ، يوضح أصل معناها الحدث التاريخى ، الذى نشأت فى سياقه ؛ فقد درج الحكام فى مصر منذ أيام الفاطميين ، أن يؤدبوا المخالفين للحكم ، ومرتكبى الجرائم والسفالات ، بضربهم بالسياط ، والطواف بهم على جمل فى الشوارع والطرقات ، والتشهير بهم بدق جرس أمامهم ، والنداء على فعلتهم الذميمة ، حتى يتعظ الخلق ؛ يقول المسبحى : « وفى يوم السبت ، لثلاث خلون من شهر رمضان ، ضُرب إنسان بالسياط ، وحُمل على جَمل ، وطيف به فى البلد ، وفى يده جرسان يُجَرِّس على نفسه ، ويصيح بملء صوته : هذا جزاء من يسرق فى اليوم دفعتين . وذكر أنه كان مُجَرِّساً يجرس على المحبَّسِين (٢) » .

كما يقول شهاب الدين الخفاجى : « جَرَّسه : إذا شَهَّره . وأصله أن من يُشهَّر ، يجعل فى عنقه جرس ، ويركب على دابة مقلوبا ، أى وَجُهُه من جهه ذَنَبها (٣) » .

* * *

---

(١) قاموس العادات والتقاليد ٧١

(٢) تاريخ مصر للمسبحى ٦٢ حوادث سنة ٤١٥ هـ

(٣) شفاء الغليل ٦٧ وانظر كذلك : قاموس العادات والتقاليد ١٣٦

أما التعبير الذى يتردد على ألسنة بعض الممثلين المصريين فى المسرحيات والتمثيليات ، وهو تعبير : « والله أَقْلِبْها دَنْدَرَة ! » بمعنى : الوعيد بالتخريب الشامل لكل شيء ، فوراءه قصة دامية ، وفجيعة مؤلمة ، وحادثة مروِّعة ، لباخرة نيلية قديمة ، اسمها : « دَنْدَرَة » ، غرقت فى النيل يوم الجمعة ١٩٥٩/٥/٨ م ، وراح ضحيتها أكثر من مائة شخص ، غرق معظمهم ، لا لأنهم كانوا لا يعرفون السباحة ، ولكن لأنهم وجدوا أنفسهم فجأة وسط بقعة كبيرة من الزيت المغلى ، الذى انتشر بسرعة على سطح النيل ، بعد أن تحطم خزان الوقود والزيت فى الباخرة المتهالكة ، التى مالت وجنحت ، ثم هوت إلى قاع النيل [١] .

وهذا شيء مما نشر فى مجلة المصور بتاريخ ١٩٥٩/٥/١٥ م ، عن هذه الحادثة المشئومة ؛ لكى تقف الأجيال القادمة على التفسير التاريخى لعبارة : « أقلبها دندرة » ، التى سوف تطالعهم فى أدب عصرنا ، وقد تنتقل إليهم حية على الألسنة ، عبر مئات السنين :

« خرجت الباخرة النيلية دندرة ، التابعة لوزارة الأشغال ، من ميناء روض الفرج ، وعليها نحو ٣٠٠ من أعضاء نقابة المهن الزراعية ، وزوجاتهم وأبنائهم وأصدقائهم ، مولية وجهها شطر القناطر الخيرية ، ممنِّية من عليها بيوم ضاحك مشرق . وقبل أن تصل إلى غايتها بنحو ثلاثة كيلومترات ، بدأ شبح الخطر يراودها ، فقفز خمسون من راكبيها إلى اللنش الذى كان يقطرها ، فلاذوا بالنجاة . وبعد لحظات معدودات تجسم الخطر ، وألقى رُبّانها

---

(١) انظر : مجلة المصور بتاريخ ١٩٥٩/٥/١٥ م ، والأهرام بتاريخ ١٩٥٩/٥/٢٢ م ، ومجلة الجيل بتاريخ ١٩٥٩/٥/٢٥ م ، والجمهورية بتاريخ ١٩٥٩/٦/١٥ م . وأنا مدين بتجميع ما نشر فى هذه الصحف والمجلات عن الحادثة ، إلى تلميذى النجيب يسرى عبد العال ، حفظه الله .

مراسيه يحاول الوصول بها إلى الشاطىء ، ولكنها مالت قبل أن تصل إلى الشاطىء بخطوات معدودة ، وبدأت تغترف الماء ، وبدأ الماء يغير عليها بشراهة ، فألقى خمسون آخر بأنفسهم فى اليم يطلبون الحياة . وفى لحظة مشئومة ، جنحت دندرة ، ثم هوت بمن عليها إلى القاع ، وحاول بعض من على ظهرها أن يلوذوا بالنجاة ، فراحوا يضربون الماء ، ويصارعون الموت ، وقلوبهم هلعة على من خلفوهم وراءهم ، وأيديهم ووجوههم تحترق من أثر الزيت الملتهب ، الذى غمر صفحة النهر القاسى . أما الباقون وهم نحو مائة ، فقد استسلموا لمشيئة الله ، واستقرت أجسادهم فى جوف النيل » .

* * *

ومن التعبيرات الشائعة ، التى تجرى على ألسنة أولاد البلد ، فى الافتخار بذكائهم وفطنتهم ، وأنهم ممن لا تنطلى عليهم الحيل : « إنت فاكرنى كاورك ؟ » ، أو « هُوَّ أنا داقق عصافير ؟ » . والسبب فى إطلاق هذين التعبيرين على الأغبياء والسُّذَّج ، ذلك الوشم المعروف لدى الناس ، برسم طائر على الجبينين ، من عن يمين الجبهة وشمالها ، ولم يكن يتحلى به سوى عوامّ الناس والسُّذّج منهم .

أما كلمة : « كاورك » فقد كانت ماركة تطلق على نوع من السجائر ، ذات العلب التى كانت تتميز بطائر مرسوم على غطائها ، فأصبح هذا الطائر رمزا لهذا النوع من السجائر ، كما أصبحت كلمة : « كاورك » مقترنة فى أذهان الناس برسم هذا الطائر الذى يشبه طائر الوشم .

* * *

وأما التعبير المعروف : « فتَّح عينك تاكل مَلْبَن » ، الذى يقال للحث على الحرص والتيقظ ، فإن منشأه فيما يبدو ، يعود إلى ما كان يحدث فى مهرجانات « الموالد » و « الأعياد » ؛ إذ تجد فيها دائما مكانا

للتدريب على إصابة الهدف فى استخدام البندقية . وكان جزاء من يوفق فى ذلك فى الماضى ، قطعة من الملبن ، يحصل عليها من صاحب هذه الأماكن ، أيام أن كانت قطعة الملبن تساوى مليما واحدا !!

وكذلك التعبير : « فلان بِيْخَنْصَر » ، بمعنى : يختلس شيئا من المال الذى اؤتمن عليه ، فإن أغلب الظن أنه مأخوذ مما يصنعه صبية الجزارين بالذبائح ، التى يصحبونها مذبوحة من المذبح الحكومى إلى محل الجزارة ؛ فقد رأيت بعضهم يقطع شيئا يسيرا من هنا وهناك من لحوم هذه الذبائح ، بسكين صغيرة معه تسمىّ : « الخِنْصَر » ، ويضعه فى جيب قميصه .

* * *

ويقال فى وصف من يحصل على المال من حله وحرامه : « فلان بيهلِّب » . ولعل ذلك راجع إلى ما كان يفعله لصوص المنازل قديما ، عندما كانوا يتسلقون أسوارها بالتعلق بالحبال ، بعد أن يثبتوها بما يشبه « هِلْب » السفينة ، الذى يربط فى نهاية الحبل ، ويرمى به فى أعلى السور ، لينشب فيه هذا الهلب .

ويقال عن الحلوى المعروفة « بالمهلبية » ، وهى التى تصنع باللبن والنشا والسكر ، إنها منسوبة إلى : « المهلب بن أبى صفرة [١] » .

* * *

وكلمة : « الشُرَطِىّ » ، ما كانت تتضح المناسبة بينها وبين رجل البوليس ، لولا التفسير التاريخى ، الذى نعثر عليه فى بطون تراثنا العربى ؛ فقد قال الأصمعى : سُمّىَ الشُرَط شُرَطاً ؛ لأنهم جعلوا لأنفسهم عَلَماً يُعرفون به . ومنه : أشراط الساعة ، أى علاماتها [٢] .

---

(١) تهذيب الألفاظ العامية ١/١٢٣

(٢) إصلاح المنطق ٢٢٩

ويقدم الهمذانى تفسير آخر ، حين يقول : « وأشرط نفسه إشراطا : إذا حمل نفسه على الخطر .والشُّرط من هذا ، إلا أنهم جعلوا لأنفسهم عَلَماً يعرفون به [١] » .

ويبين لنا « الخوارزمى » لون الأعلام التى كانت للشُّرَطِىّ ؛ فيقول : « الشَّرْطة : العلامة ، وجمعها : شُرَط . والشُّرَطِيُّون هم أصحاب أعلام سود . ورئيسهم صاحب الشُّرَط [٢] » .

* * *

من الطرافة بمكان أن كلمة : « العوالم » بمعنى : المغنيات والراقصات ، اللائى اشتهرن بذلك فى شارع محمد على ، من شوارع القاهرة ، حتى يومنا هذا – هذه الكلمة لا صلة لها بمادة : « العِلْم » فى العربية ؛ لأن مفردها : « عَالْمة » ليس إلا تعريبا للكلمة العبرية : (עַלְמָה) ʿalmā بمعنى : « الجارية » أو « الفتاة » . وهى مؤنث (עֶלֶם) ʿélem بمعنى : « غلام » ، ومؤنثه : « غلامة » ؛ لأن الغين العربية تقابل العين فى العبرية . فالعوالم بهذا التفسير التاريخى ، تعنى : الجوارى والقيان .

* * *

هذا ، وإن بعض ما ذكر فى كتب الأمثال العربية ، من حكايات تاريخية ، تفسر لنا شيئا مما روى من الأمثال ، ليمكن أن يدخل فى هذا الباب : « شاهد الحال » ، وإن كان بعض ما جاء به المؤلفون من قصص وحكايات ، يبدو عليها الصنعة ، وتعدّ من قبيل القصص التبريرى [٣] .

---

(١) الألفاظ الكتابية ٦٧

(٢) مفاتيح العلوم ٧٢

(٣) انظر : الأمثال العربية القديمة ٥٠

ونضرب فيما يلى مثالا واحدا من تراثنا فى الأمثال العربية ، وهو المثال القائل : « الصيفَ ضَيَّعْتِ اللَّبن » ؛ فقد حكى مؤلفو الأمثال معناه وقصته على النحو التالى : « معناه : طلبت الشيء فى غير وقته ؛ وذلك أن الألبان تكثر فى الصيف ، فيضرب هذا مثلا للرجل يترك الشيء وهو ممكن ، ويطلبه وهو متعذر . وأصله أن عمرو بن عمرو بن عُدَس بن زيد ، تزوج ابنة عمه دَخْتَنُوس بنت لقيط بن زُرارة بن عُدَس بن زيد ، وقد كان أسنَّ ، فأبغضته واشتد بغضها له ، وكان أكثر قومه مالا ، وأعظمهم شرفا ، فلم تزل تُولَع به وتهجره حتى طلقها ، فتزوجها بعده ابن عمها عمير بن معبد بن زرارة ، وكان شابا قليل المال ، فمرت بها إبل عمرو ، وكأنها الليل من كثرتها . فقالت لخادمتها : ويلك ! انطلقى إلى أبى شريح ، فقولى له فليسقنا من اللبن ، فانطلق الرسول إليه ، فقال له : إن ابنة عمك دختنوس تقرأ عليك السلام ، وتقول لك : اسقنا من اللبن ، فقال الرسول : قل لها : الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ اللبن ، فأرسلها مثلا [١] » .

* * *

---

(١) انظر : الزاهر لابن الأنبارى ٢/٢٣٥ - ٢٣٦ والفاخر للمفضل بن سلمة ١١١ ومجمع الأمثال للميدانى ٢/١٠

١٣ - تَعَاقُبُ التَّطَوُّرِ

كثيرا ما يحدث أن تتعاقب على الكلمة الواحدة ، مجموعة من التطورات الصوتية ، التى تبعدها على مر الزمان عن أصلها الذى كانت عليه . وإن رصد هذه الحركة التطورية فى الكلمات اللغوية أمر ضرورى ، حتى لا تقع الأجيال المقبلة فى حيرة ، وهى تبحث عن العلاقة بين الكلمة فى صورتها الأخيرة وما تدل عليه .

فهذه مثلا كلمة : « الشراب » الذى يلبس فى الرجل ، قد تحيِّر لغويا يعثر عليها بعد ألف عام فى نص من النصوص ، وقد أصبحت من كلمات المشترك اللفظى ، لما يُشرب ، وما يُلبس فى الرِّجل . وقد يدَّعى هذا اللغوى الذى لا يعرف أصل الكلمة بالمعنى الثانى ، أن هذا المعنى إنما نشأ بسبب « منقوع الشرابات » ، ويزعم أن الناس فى عصرنا كانوا يشربون هذا المنقوع !

والذى نعرفه اليوم بلا مراء ، أن هذه الكلمة فارسية الأصل ، فهى فيها : « گُورْب » gōrb ومعناها : « قبر الرِّجل » . وقد دخلت التركية : جُوراب gōrāb والسريانية (ܓܘܪܒܐ) gorbā والعربية : جَوْرَب ǧawrab وما تزال فى العربية الفصحى كذلك [١] .

غير أن هذه الكلمة تطورت تطورا شديدا متعاقبا ، فى لهجات الخطاب العربية ، فانكمش الصوت المركب فيها أولا ، وصارت : gōrab ، ثم انحل صوت الجيم المزدوج إلى أحد عنصريه المكونين له ، وهو الشين المجهورة ، ثم ضاع منها الجهر ، فأصبحت : « شُورَب » ، ثم انتقل النبر فى الكلمة إلى المقطع الثانى منها ، فصارت : « شُرَاب » ، وما تزال الكلمة مستعملة

---

(١) انظر : الألفاظ الفارسية المعربة ٤٨

على هذا النحو فى بعض اللهجات العربية ، غير أن قانون المماثلة بين الحركات ، جعل فتحة الراء تؤثر فى ضمة الشين ، فتقلبها فتحة ؛ وبذلك صارت الكلمة أخيرا : « شَرَاب » .

وليس ببعيد عن بعض هذه المراحل التطورية ، ما حدث لكلمة : « حَوْصَلَة الطائر » ، فى بعض العاميات العربية ؛ إذ حدث فيها أولا أن انكمش الصوت المركب ، فصارت الكلمة : « حُوصَلَة » ، ثم انتقل النبر إلى المقطع الثانى ، فصارت الكلمة أخيرا : « حُصَالَة » .

وقريب من هذا ما حدث لكلمة : « مَوْلَى » العربية ، بمعنى : السيد ، على يد الأتراك ؛ إذ انكمش فيها الصوت المركب أولا ، فصارت الكلمة : « مُولى » mōlā ، ثم أغلق المقطع الأول عن طريق تشديد الحرف الثانى ، فصارت الكلمة : « مُلَّا » mullā . وقد توقف بعض الأتراك بالكلمة عند هذا الحد ، وفى أسمائهم القديمة : « مراد مُلّا » مثلا . غير أن الكلمة تطورت عند بعضهم تطورا آخر بالمخالفة الصوتية ، فأبدل الأتراك من اللام الأولى نونا ، وبذلك صارت الكلمة : « مُنْلا » [١] .

أما كلمة : « صِمِيط » ، التى تطلق على نوع معروف من الخبز ، ويسمى أحيانا : « العيش الفينو » ، فالأصل فيها كلمة : « سَمِيذ » بمعنى الدقيق الأبيض من الحنطة ، وهى معربة فى العصر العباسى من الإغريقية [٢] . وقد مرت هذه الكلمة بكثير من التطورات الصوتية المتعاقبة عبر العصور ؛ إذ تحول فيها أولا الصوت الأسنانى (الذال) بفعل قانون السهولة والتيسير إلى (دال) ، فصارت الكلمة : « سميد » ، ثم ضاع جهر الدال فتحولت

---

(١) وانظر : لحن العامة والتطور اللغوى ٣٠٣

(٢) انظر : غرائب اللغة العربية ٢٦٠

تاء : « سَمِيت » ، ثم تطورت صيغة (فَعِيل) إلى (فِعِيل) ، كما عرفنا من قبل فى قانون المماثلة ، فصارت الكلمة : « سِمِيت » ، ثم فخمت السيد فصارت الكلمة : « صِمِيت » ، وتأثرت التاء بهذا التفخيم فتحولت طاء ، وصارت الكلمة أخيرا : « صِمِيط » . وكان الباعة المتجولون ينادون فى قطارات الركاب قبل ربع قرن مضى على هذا الخبز المصنوع من دقيق السميذ الفاخر ، فيقولون : « صِمِيط وبيض وجبنة بقرش واحد ! » .

وقد تحدثنا هنا من قبل عن أداة الاستقبال فى العامية العربية المعاصرة ، وهى الهاء فى مثل : « هاعمل كذا » ، وعرفنا أن أصلها كلمة : « رائح » من « الرواح » ، وأنها قد فرغت من معناها الأصلى ، وعانت كثيرا من البلى اللفظى ، فصارت : « رايح اعمل كذا » ، ثم « راح اعمل كذا » ، ثم « حاعمل كذا » ، وأخيرا « هاعمل كذا » .

أما كلمة : « وَرِّينى الشيء الفلانى » ، فهى مقلوبة عن : « رَوِّينى » (وتقال أحيانا : رَاوِينى ، فى نطق أهل العراق) . وأصلها : الأمر من الفعل « رَأّى » المضعف العين ، بعد إبدال همزته واوا .

وكلمة : « عصفور » للطائر الصغير المغرِّد المعروف ، ليست فى الحقيقة إلا المقلوب لكلمة : « صعفور » . وهذه الأخيرة ناتجة بسبب المخالفة الصوتية من : « صُفُّور » ، التى تساوى الكلمة العبرية (צִפּוֹר) ṣippōr وتقابل فى العربية كلمة : « صَفَّار » ، بمعنى الكثير التصفير ، وهى شيء من السمات المميزة للعصفور !

أما الجيم فى : « جَمَّر الخبز » ، بمعنى : وضعه على الجمر لكى يلين ، فقد أدى الاعتقاد بأنها مقلوبة فى بعض العاميات المصرية عن القاف ، إلى تطور فى اتجاه آخر ، تقلب فيه هذه القاف المتوهمة همزة ، أى أن الكلمة مرت فى تطورها على ألسنة العامة بالخطوات التالية : جَمَّر » قَمَّر » أَمَّر .

ومثل هذا تماما حدث لكلمة : « زجاج » ، التى صارت بالقلب المكانى : « جزاز » ، فتوهمت العامة أن جيمها مقلوبة عن القاف ؛ ومن هنا رأينا الكلمة فى لافتة : « محطة معمل القزاز » القريبة من الاسكندرية ، ثم أصاب القاف فى هذه الكلمة ما أصاب غيرها ، فتحولت إلى همزة ، وصارت الكلمة : « إزاز » .

وكلمة : « رِجْل » ، لم تتحول فى نطق بعض أهل فلسطين إلى : « إِجْر » ، وكذلك فى اللغة الحبشية (እግር) 'egr إلا بسبب المخالفة الصوتية من : « رِجْر » ، التى يفترض أنها ناتجة بسبب المماثلة الصوتية من : « رِجْل » .

وإذا كانت كلمة : « التَّوْلَب » فى العربية الفصحى ، تعنى : الحمار الصغير ، أو الجحش [١] ، وكلمة : « الدَّوْبَل » تعنى كذلك : الحمار الصغير [٢] ، فإن هذا يعنى أن الأصل هو : « التولب » ، ثم جهرت التاء ، فصارت الكلمة : « الدولب » ، وحصل فيها بعد ذلك قلب مكانى ، فصارت الكلمة أخيرا : « الدَّوْبَل » .

وقد سبق أن عرفنا أن الفعل : « خَمَّش » فى العربية الفصحى ، بمعنى : خَدَش ، تطور بالمخالفة الصوتية إلى : « خَرْمَشَ » فى أيام أبى منصور الجواليقى [٣] (المتوفى سنة ٥٣٩ هـ) ، ثم تطورت « خَرْمَشَ » هذه فى نطقنا المعاصر ، فى أحد اتجاهين : إما بإبدال الميم باء ، فتصير الكلمة : « خَرْبَشَ » ، وإما بالقلب المكانى ، فتصير الكلمة : « خرشم » . والحريرى يعد « خربش » فصيحة ، و « خرمش » من اللحن !

---

(١) الصحاح (تلب) ٩١/١

(٢) الصحاح (دبل) ١٦٩٥/٤

(٣) انظر : تكملة ما تلحن فيه العامة ١٣٩

ومثل ذلك فى كلام العامة الفعل : « لخبط » ، الذى نتج بطريق المخالفة الصوتية من الفعل القديم : « خَلَّط » عن طريق القلب المكانى من صيغة : « خَلْبَط » المستعملة فى العامية كذلك ، هى وصيغة : « خَرْبَط » الناتجة بإبدال اللام راء .

ونحوه كذلك الفعل : « حَمْلَق » بمعنى : فتح عينيه ونظر نظرا شديدا [1] ، لابد أن القلب المكانى قد أصابه ، فتحول إلى « محلق » ، وإلا ما تطور إلى الفعل المستخدم لدى العامة : « بحلق » بإبدال الميم باء ، ثم تحولت قافه إلى همزة ، فصار : « بحلأ » .

أما كلمة : « مُكَلْثَم » بمعنى : منتفخ الوجه ، فى العربية الفصحى ، فقد مرت بمراحل من التطور ، حتى وصلت إلى : « مِكَلْضَم » بمعنى : متجهم الوجه ؛ فقد ضاع الصوت الأسنانى ، وتحولت الثاء أولا إلى تاء ، ثم جهرت فصارت دالا ، ثم فخمت فصارت ضادا . وقد تغير معناها عبر كل هذه التطورات ، من انتفاخ الوجه إلى تجهم الوجه . والعلاقة بين المعنيين واضحة .

وهذه الكلمة الأخيرة ، تؤيد ما نؤمن به من أن التطور الصوتى قد يصحبه تطور دلالى . ولدينا الأمثلة الكثيرة على ذلك ؛ فمنها مثلا كلمة : « ثقيل » التى تطورت مرة إلى : « تِقِيل » بنفس معناها ، ومرة أخرى إلى : « سَقِيل » ، ثم : « سَئِيل » مع تغير معناها ؛ إذا أصبحت تدل على ثقل الدم والرذالة والسماجة !

ومثلها كلمة : « هيفاء » فى العربية الفصحى ، بمعنى : الطويلة الممشوقة القوام ، الضامرة البطن والخاصرة [2] . وعندما ترك العامة همزتها ،

---

(١) الصحاح (حملق) ١٤٦٥/٤

(٢) الصحاح (هيف) ١١٤٤/٤

فصارت : « هايفة » ، تحول معناها إلى : الطيش والسفه .

وكلمة : « مَثْلُوم » من « الثلمة » ، وهى فى العربية الفصحى : كسر فى حرف الشيء [١] ، عندما أبدل العامة من ثائها تاء ، فقالوا : « فلان مَتْلُوم » و « فلانة مَتْلُومة » ، صارت الكلمة سباً وقذفا بالفسق وسوء السلوك .

* * *

(١) الصحاح (ثلم) ١٨٨١/٥

١٤ - سِيادَةُ الحَالَةِ الواحِدَةِ مِنَ الحَالاتِ الأعْرابِيَّة

تعبر بعض اللغات عن المعانى المختلفة فى جملها ، بما يسميه النحاة العرب « بعلامات الإعراب » ، ويسميه المحدثون من علماء اللغة « بالمورفيمات الإعرابية » .

وفى طريق تطور اللغة ، تفقد هذه المورفيمات الإعرابية وظيفتها ، وتعتمد اللغة فى هذه الحالة على نظام ترتيب الكلمات فى جملها ، وعندئذ تختار هذه اللغة صورة واحدة ، من الصور الإعرابية ، وتبقى عليها ، وتهمل الصور الأخرى ، وهذا هو معنى « سيادة الحالة الواحدة من الحالات الإعرابية » .

وقبل أن نضرب الأمثلة المختلفة ، نحب أن نذكر هنا أنْ اختيار اللغة ، لواحدة من هذه الصور الإعرابية ، اختيار غير مشروط ، فلا يستطيع أكبر عباقرة اللغة أن يعرف لماذا آثرت لغة ما ، صورة معينة من الصور الإعرابية ، وأهملت ما عداها ؟ وسوف يتضح مدى صدق هذه المقولة ، التى نزعم أننا أصحابها ، من الأمثلة التى سنسوقها هنا كذلك .

وأول هذه الأمثلة : ما جرى للأفعال الخمسة فى اللهجات العربية المعاصرة ؛ فمن المعروف أن هذه الأفعال ، تعرب فى العربية الفصحى ، بثبوت النون فى الرفع ، وحذفها فى النصب والجزم . وعندما فقدت المورفيمات الإعرابية وظيفتها فى اللهجات المعاصرة ، اختار الكثير من اللهجات صورة محذوف النون ، بصفة دائمة ؛ فيقال فى مصر مثلا : « تاكلى وتشربى وتنامى » و « تاكلوا وتشربوا وتناموا » . واختارت لهجة القصيم ، فى قلب الجزيرة العربية ، ثبوت النون بصفة دائمة ؛ وقد سمعت واحداً من

أبناء القصيم ، وقد سأله آخر عن « البذران » بمعنى : الأولاد ، فأجابه بقوله : « دا يلعبون هناك » [1] !

وهذا الذى حدث فى لهجات العربية ، نراه فى اللغات السامية ، التى فقدت مورفيماتها الإعرابية وظائفها كذلك ؛ فبينما تختار اللغة السريانية الاحتفاظ بالنون دائما ، فتقول مثلا : (ܬܩܛܠܝܢ) tekṭlīn « تقتلين » ، نرى العبرية والحبشية تستقران على الصورة المحذوفة النون ؛ فتقول العبرية (תִּקְטְלִי) tiktlī والحبشية (ተቅተሊ) tekṭlī كذلك .

وإلزام المثنى الياء فى اللهجات العربية المعاصرة ، صورة أخرى من صور سيادة الحالة الإعرابية الواحدة ؛ فيقال فى مصر مثلا : « راح منى قلمين » و « اشتريت قلمين » و « كتبت بقلمين » !

وهذا قد حدث مثله تماما فى العبرية والسريانية ؛ ففى العبرية مثلا : (יָדַיִם) yādáyim « يدان » ، وفى السريانية (ܬܪܶܝܢ) trēn « اثنان » .

أما ما ورد فى لهجة « بلحارث بن كعب » قديما ، من إلزام المثنى الألف ، فليس مما نحن فيه . وقد سبق أن ذكرنا تفسير ذلك ، فى موضوع السهولة والتيسير ، بانكماش الصوت المركب ، ثم تحول الإمالة إلى فتح خالص ، على النحو التالى : ay ، ē ، ā وهو منهج متكامل لهذه القبيلة فى كل صوت مركب على هذا النحو ؛ فى مثل : «السلام علاكم » و « العاب » ونحوهما .

والأسماء الخمسة ، وهى كما نعرف : أبوك ، وأخوك ، وحموك ، وفوك ، وذومال ، كانت وما تزال فى العربية الفصحى ، ترفع بالواو ، وتنصب بالألف ،

---

(١) روى لنا مثل هذا فى لهجة مصر فى القرن الثامن الهجرى أيضا ، فى قول صاحب مسالك الأبصار (٨٧) : « كيف تسحرى العقرب ؟ » .

وتجر بالياء . ولكنها فى العاميات المعاصرة ، لزمت الواو فى كل حال ؛ فيقال مثلا : « أبوك جه » و « شفت أبوك » و « مَرِّيت بأبوك » .

وهذا هو عين ما حدث فى السريانية كذلك ؛ إذ يقال فيها : (ܐܒܘܟ) ʾabūk دائما ، على العكس من العبرية التى اختارت حالة الجر بالياء دائما ، كما فى مثل : (אָבִיךָ) ʾābīkā .

وبعض اللهجات اليمنية المعاصرة ، يكثر فيها التكنى بمثل : « باحسين » و « بابطين » و « باخشوين » . ولعل ذلك يرجع إلى إلزامهم الأسماء الخمسة حالة النصب بالألف ، فى بعض المناطق والأزمان .

وكذلك الحال فى جمع المذكر السالم ، الذى لزم الياء دائما ، فى اللهجات العربية كلها ؛ مثل قولنا : « الناس الطيبين ماهمش بخت » و « ما شفتش العيال المشاغبين ؟ » و « يا سلام على الناس الحلوين » !

ومثل ذلك حادث فى العبرية والسريانية ؛ ففى الأولى يقال مثلا (חַטָּאִים) ḥaṭṭāʾīm « خطاءون » ، كما يقال فى الثانية مثلا : (ܣܦܪ̈ܝܢ) sāfrīn « كاتبون » .

وتشبه ظاهرة « سيادة الحالة الإعرابية » ظاهرة أخرى ، من ظواهر التطور اللغوى ، المعروفة فى اللغات ، وهى الظاهرة التى يمكن أن نسميها : « طغيان حالة إعرابية على أخرى » . ومن المؤكد أننا لا يمكن أن نرى مثل هذه الظاهرة فى لغة من اللغات ، إذا كانت محتفظة بالمورفيمات الإعرابية ، فى الدلالة على وظائف أجزاء الجمل المختلفة فيها .

ومن أمثلة ذلك : طغيان صيغة الإسناد إلى جمع الغائبين فى الماضى والمضارع ، على صيغة الإسناد إلى جمع الغائبات ، فى مثل : « البنات اتخطبوا واتجوزوا » ، ومثل : « هم الستات يقدروا يعيشوا من غير رجّالة ؟ » .

وقد حدث هذا فى اللغة العبرية كذلك ، فى نحو (קָטְלוּ) kāṭlū بمعنى : « قتلوا » أو « قتلن » .

وقد اختفت نون النسوة فى كثير من اللهجات العربية المعاصرة ، وطغت عليها الصيغ المذكرة فى الضمائر ونحوها ، فى مثل قولنا : « الستات حملهم تقيل » . ويبدو أن الطغيان هنا قديم ؛ ففى أخبار مصر للمسبحى (المتوفى سنة ٤٢٠ هـ) ، نقرأ النص التالى : « شاهد من سكر النساء ، وتهتكهم ، وحملهم فى قفاف الحمالين سكارى ، واجتماعهم مع الرجال أمراً يقبح » .

ومن الأمثلة كذلك : طغيان صيغة المضارع للمخاطبات بتاء المضارعة ، على صيغة الغائبات فى العبرية ؛ إذ يقال فى الحالتين مثلا (תִּקְטֹלְנָה) tiḳṭōlnā بمعنى : « يقتلن » و « تقتلن » .

وقد حدث مثل هذا فى العربية ، فى القرن السادس الهجرى ؛ إذ يروى لنا الحريرى (المتوفى سنة ٥١٦ هـ) أن العامة فى عصره كانوا « يقولون : الحوامل تطلقن ، والحوادث تطرقن ، فيغلطون فيه ؛ لأنه لا يجمع فى هذا القبيل بين تاء المضارعة والنون ، التى هى ضمير الفاعلات . ووجه الكلام أن يلفظ فيه بياء المضارعة المعجمة باثنتين من تحت ، كما قال الله تعالى : ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ . وعلى هذا يقال : الغوانى يمرحن ، والنوق يسرحن [1] » .

ويعلل « يوهان فك » لهذا السلوك اللغوى ، بأن العامة « لم تعدلهم ألفة بصيغة المضارع المؤنث للمخاطب والغائب فى حالة الجمع ، التى استعيض عنها فى اللغة الدارجة بصيغة المذكر ، والتى امتازت فى اللغة

---

(١) درة الغواص ٨٥ وانظر : تصحيح التصحيف ١٨٧

الفصيحة بنون النسوة ؛ مثل : يكتبن وتكتبن ، إزاء المذكر : يكتبون وتكتبون ، فعمدوا إلى التفرقة بين الجنسين ، بمجرد التاء أول الفعل فى حالة جمع المؤنث الغائب (تكتبن) ظنا منهم أن التاء هى علامة التأنيث فى صيغ المضارع [١] » .

وأحيانا نرى فى كتابات المعاصرين شيئا من هذه الظاهرة ، مثل قول بعضهم : « أما عن المصريات ، فترى لمياء أنهن لا تختلفن كثيرا عن السعوديات [٢] » .

* * *

(١) العربية ٢٢٢

(٢) مجلة لواء الإسلام - شعبان ١٤٠٣ هـ (السنة ٥٨ العدد ٦) ص ٧١

١٥ - الاشتِقاقُ الشَّعْبى

الاشتقاق الشعبى (Volksetymologie) للكلمة معناه : المفهوم الشعبى عند العامة لكلمة من الكلمات ، بربطها بكلمة أخرى شائعة ، والظن بأنها مشتقة من هذه الكلمة ، أو كما يقول ماريوباى : « الخطة التى عن طريقها يخلق عقل الجماعة علاقة مزيفة ، وإن كانت مستحسنة بين كلمتين » [١] ؛ فإن « الذهن يميل إلى أن يصل بين الكلمات ، تبعا لشكلها الخارجى ، وأحيانا على عكس ما يقتضى المعنى ، بل على عكس ما يقتضى العقل السليم ، وقد تسوق مشابهة غامضة ، بين كلمة وكلمة أخرى أشد شيوعا ، أو أكثر شهرة ، إلى التقريب بينهما ؛ ومن هنا تنشأ بعض التشويهات الغريبة » [٢] .

والقاعدة هى أن الكلمات النادرة الوقوع ، أو الكلمات الأجنبية ، هى التى تتعرض بصفة خاصة ، لسوء الفهم وللربط الخاطىء ، ببعض مفردات اللغة القومية ، مثال ذلك الكلمة belfry بمعنى : « برج الناقوس » ترجع فى أصلها إلى الكلمة الفرنسية القديمة : berfrei (فى الفرنسية الحديثة : beffroi) وهى كلمة جرمانية قديمة مركبة ، معناها : « البرج يحتمى به » . ويرجع السبب فى وجود حرف اللام فيها ، وكذا السبب فى معناها الحديث ، إلى افتراض وجود علاقة وهمية بينها ، وبين كلمة : bell بمعنى : ناقوس » [٣] .

ومن أمثلة ذلك : ربط المتحدثين بالعربية ، بين « الحانوتى »

---

(١) أسس علم اللغة ١٥٩

(٢) اللغة لفندريس ٢٣٣

(٣) دور الكلمة فى اللغة لأولمان ٨٠ - ٨١

و « الحانوت » ، ولا علاقة بين من يجهز الموتى للغسل والدفن ، وكلمة : « الحانوت » ، وإنما هو منسوب إلى : « الحَنُوط » ، وهو نوع من الطيب يخلط للميت خاصة ، فالنسب إليه : « حَنُوطى » [١] ، غير أن اشتباه هذه الكلمة صوتياً بكلمة : « حانوت » هو الذى أدى إلى هذا الاشتقاق الشعبى .

وقد روى لنا الدكتور أحمد عيسى أن العامة « ترى شخصاً مضطرب النفس ، وبه غثيان وقىء ، فتقول : راح على بولاق » [٢] . وأصل الجملة كما يذكر هو : عَلَقْ بُولَقْ أُلْمقْ ، وهى جملة تركية معناها : بلا نظام ، أو تلبّك ، أو وقع فى حيص بيص ، فنطقها العامة فى مصر : « على بولاق » وهو من الاشتقاق الشعبى .

وإذا كانت المعاجم العربية تذكر : « الحُنْذُور » ، على أنه حدقة العين [٣] ، فهمنا الاشتقاق الشعبى عند العوام ، بربط هذه الكلمة بكلمة أخرى شائعة عندهم ، وهى : « الحنطور » للعربية التى يجرها الخيل ، ولم نعجب لقولهم : « أُدِّيك على حنطور عينك » بمعنى : أضرب حدقة عينك !

وكادت امرأة مصرية حاسرة الرأس ، تتشاجر مع خادم مسجد الكاظمين ببغداد ، عندما قال لها : « إنْتِ سَافْرَة » ؛ لأنها ربطتها بالاشتقاق الشعبى بكلمة : « سافلة » !

وكان أحد الألمان يصف الجو بالبرودة ، بقوله بالألمانية : kalt أمام أحد الإخوة العراقيين ، وكان قد فرغ فى التو من الأكل فى مطعم بألمانيا ،

---

(١) المحكم فى أصول الكلمات العامية ٦٠

(٢) المحكم فى أصول الكلمات العامية ١٥٥

(٣) الصحاح (حذر) ٢/٦٢٥

فرد عليه العراقي قائلا : الحمد لله ! ظانا أنه يسأله بالعربية ، عما إذا كان قد فرغ من أكله !

وقد حكى لى الدكتور عبد الوهاب التازى ، أن بعض المغاربة يطلقون على طائر اللقلق : « بلا رجل » ، وهو اشتقاق شعبى من الكلمة اليونانية : « بلارجْ » Pélarghos [1] .

كما ذكر لى الدكتور حسين مجيب المصرى ، أن الحلواء المعروفة والمسماة : « كل واشكر » ، هى فى الأصل العبارة الفارسية : « گل شَكَر » ، بمعنى : ورد لذيذ ؛ لأن كلمة : « گل » معناها : ورد ، وكلمة : « شَكَر » معناها : سُكَّر . وهذا هو الاشتقاق الشعبى عند العوام .

وكذلك عبارة : Roulement bille الفرنسية ، تحولت إلى : « رُمَّان بِلْى » بالاشتقاق الشعبى !

كما روى لى بعض العراقيين أن العامة فى بغداد ، ينطقون كلمة : « بروفسور » : « بوفيصل » ، وهذا أيضاً من الاشتقاق الشعبى .

ومن أمثلة ذلك فى عربية العصر العباسى : استخدام لفظ : « مصْلَحة » للدلالة على : الثغر ، أو القوات المرابطة على الحدود ، وهو اشتقاق شعبى ، وخلط للكلمة الأصلية ، وهى : « المسْلَحة » [2] من السلاح ، بكلمة : « المصلحة » الشائعة بمعنى : المطلب أو المنفعة [3] .

« ولو أننا نظرنا إلى عبارة : (لقمة القاضى) ، وهى تلك الحلوى من

---

(١) انظر : غرائب اللغة العربية ٢٥٥ وتثقيف اللسان ٢٠٥ وتصحيح التصحيف ١٦٨

(٢) انظر : الصحاح (سلح) ٣٧٦/١

(٣) انظر : العربية ، ليوهان فك ١١٣

عجين وسكر مذاب ، وتساءلنا عن السبب فى تسميتها على هذا النحو ، أكانت مما يصنع للقاضى على سبيل التكريم ؟ أم أنها من منتجات رجل اسمه : (القاضى) ؟

« لا هذا ولا ذاك ، ولكن الأتراك فى مصر كانوا يسمونها : (لقمة القادين) ، وكلمة : (قادين) تعنى : السيدة ، أو المرأة فى التركية ، ولاشك أن من سمات الجمال ، أن يكون فم المرأة صغيرا ، لا يتسع إلا لإدخال هذه اللقمة ذات الحجم الصغير ، ولهذا سميت : (لقمة القادين) .

« فلما تلقت الأذن المصرية هذه العبارة ، لم تتبين ملامحها الصوتية ، فإذابها تحولها إلى أقرب تركيب مناسب لها فى العربية .

« ولنأخذ مثالا آخر ، على مثل هذا التحريف السماعى على ألسنة العوام ؛ فالوقّاد الذى [كان] يعمل فى القطار [البخارى] ، لتزويده دائما بالوقود والنار ، يسمى فى التركية : (آتش جى) ، أى : عامل النار . ولكن العامة فى مصر وجدوا أن القطار يتوقف فى محطات مختلفة ، ليتزود بالماء ، وكان الذى يقوم بهذه العملية هو ذلك (الآتش جى) ، فكان أن ربطوا بين الاسم والعمل فى كلمة : (العطشجى) أى : الذى يروى عطش القطار ، وهو نوع من التقريب بين الكتلة الصوتية والمدلول الظاهر [١] » .

وهذه الظاهرة تشيع بين الأطفال ، ذوى الخبرات اللغوية المحدودة ، فقد سمعت طفلة تردد فى أغنية جماعية ، من أغانى « الهراء اللغوى » ، هذه العبارة : « آدى الجنة وادى النار وادى عذابكم يا كفّار » ، فتقول : « وادى عذابكم يا كلّ فار ! » ، وهو أمر يناسب الحصيلة اللغوية لمن فى مثل سنها .

---

(١) دراسات لغوية ، للدكتور عبد الصبور شاهين ٢٩٢

وقد ضرب لنا ڤندريس ، أمثلة كثيرة لهذه الظاهرة من اللغات المختلفة ، فذكر أن « التسمية اللاتينية : culcita puncta ومعناها الحرفى : ملحفة ذات غرز ، صارت فى الفرنسية : courte pointe (الغرزة القصيرة) ، مع أن فكرة القصر ، لا صلة بينها وبين تصريف المادة التى نحن بصددها . والرقص الإنجليزى المسمى : countrydance (رقص الريف) مع أنه منقول من فرنسا ، دخل اسمه فى اللغة الفرنسية من جديد بصيغة : contredanse (عكس الرقص) ، وهى عبارة لا معنى لها . ونحن نعرف الصيغ الطريفة ، التى تأخذها أسماء الأمراض والأدواء العصبية ، فى أفواه العامة ، فهى كنز لا يفنى من التسلية ، للمشتغلين بتسجيل الطرائف ... ومن أمتع هذه التشويهات ، ذلك الذى جعل من : pipe de Kummer (غليوم كومير = اسم صانعه) pipe d'écum de mer (غليوم زيد البحر) ... كما جاء من التسمية الإنجليزية : aunt sallay (العمة سلى = اسم للعبة) التسمية الفرنسية : ane salé (الحمار المملح) . وجاء من الإيطالية : girasole (نوع من الخضروات) الكلمة الإنجليزية : Jerusalem اسماً لهذا النوع من الخضروات »[(١)]

وقد يشبه هذا ما يطلقه الناس فى بعض الأحيان على مرض « الأنفلونزا » من : « أنف الوزّة » أو : « ألفين وزّة » على سبيل السخرية !

★ ★ ★

(١) اللغة لڤندريس ٢٣٣ وانظر فى بعض الأمثلة : دور الكلمة فى اللغة ، لأولمان ٨١

١٦ - أَخْطاءُ السَّمْعِ

هناك انقلابات صوتية ، ليست إلا نتيجة لأخطاء السمع ، فإن الطفل يعتمد فى تلقى اللغة عن المحطين به ، على حاسة السمع ، ولما كانت هذه الحاسة عرضة للزلل فى إدراكها للأصوات ، ولاسيما تلك الأصوات المتقاربة فى المخارج ، كان من الطبيعى أن يجانب الطفلَ السّدادُ فى بعض ما ينطق به ، محاكياً من حوله ، وليس ذلك قاصراً على الطفل إذ قد يخطىء الشخص البالغ كذلك فى السمع ، ويخلط بعض الأصوات بأصوات أخرى قريبة منها فى المخرج ، وأذكر أننا كنا نكتب وراء مُمْلٍ ، ينطق بكلمة : « شعث » ، فكتبها بعضنا : « شعف » بالفاء ، لا بالثاء .

وإلى هذا السبب ، وهو الخطأ السمعى ، يرجع فى نظرى معظم أمثلة ما يسمى فى اللغة العربية ، بحالات : « تعاقب الأصوات » ، فقد عقد القالى فى كتابه « الأمالى » فصلا للكلمات التى تتعاقب فيها الفاء والثاء ، [١] عدّد من بينها : « جدف » و « جدَث » للقبر ، و « الحثالة » و « الحفالة » للردىء من كل شىء ، و « الفناء » و « الثّناء » لفناء الدار ، و « الفُوم » ، و « الثوم » ، وأورد قراءة ابن مسعود : « وثُومها وعدسها » و « اللِّفام » و « اللِّثام » لغطاء الوجه ... وغير ذلك ، وقد حدث مثل ذلك تماماً فى اللغات المختلفة ، فمثلا الأسم : Theodor هو فى الروسية : Feodor واسم البلد : Athen هو فى الروسية : Afinni [٢] .

كما عقد القالى فصلا آخر ، للكلمات التى تتعاقب فيها الميم والباء [٣] ، مثل : « قحمة » و « قحبة » للمرأة العجوز ، وأصابتنا « أزمة »

---

(١) الأمالى للقالى ٣٦/٢

(٢) انظر : H. Kofler, Reste altarabischer Dialekte, WZKM 47, 86

(٣) الأمالى للقالى ٥٤/٢

و « أزبة » و « كمحته » و « كبحته » إذا جذبت عنانه ، و « مهلا » و « بهلا » ... وغير ذلك ، وقد ذكر أمثلة كثيرة من هذا القبيل ونحوه ، كل من « ابن السكيت » فى كتابه : « القلب والإبدال » و « أبى الطيب اللغوى » فى كتابه الضخم فى : « الإبدال » .

وقد عدّ القدماء من اللغويين العرب ، هذه الأمثلة وما شابهها من المترادفات ، وهى فى الواقع ليست من الترادف بمعناه الحديث فى شيء [١] ، بل نشأت من الأخطاء السمعية ، لشدة تقارب هذه الأصوات ، وعدم وضوح الفرق بينها فى السمع تماماً .

* * *

---

(١) انظر : فى اللهجات العربية ، للدكتور أنيس ١٦٦

١٧ - التَّطَوُّرُ الدَّلالِى

للتطور الدلالى عوامل مختلفة تؤدى إليه ، ومظاهر معينة يسلكها هذا التطور ونشرح فيما يلى هذين الأمرين [١] :

أما عوامل التطور ، فمنها عوامل مقصودة متعمدة ، كقيام المجامع اللغوية ، والهيئات العلمية بمثل ذلك ، عند وجود الحاجة إلى خلع دلالات جديدة ، على بعض الألفاظ ، التى تطلبتها حياة اجتماعية ، أو اقتصادية ، أو سياسية جديدة ، وهذه العوامل المتعمدة لا تهمنا هنا .

وهناك عوامل أخرى لا شعورية ، تتم دون تعمد أو قصد ، منها السِّياق المضلِّل الذى نسمع فيه الكلمة لأول مرة ، فإننا « عندما نسمع جملة أو نقرؤها ، نرى الكلمات التى تشتمل عليها ، يفسر بعضها بعضا ، فإذا كانت واحدة منها غير مألوفة لنا - والواقع أن هناك دائما فترة فى حياتنا ، نسمع فيه الكلمة لأول مرة - حاولنا بطبيعة الحال تفسيرها ، معتمدين على سياق النص ، وهذه هى الخطة التى يتبعها التلاميذ ، عندما يحاولون ترجمة نص أجنبى ... هذه الفكرة التى نحصل عليها بالتخمين قد تكون زائفة ، ولكنها تصحح فى غالب الأمر ؛ لأن الكلمة نفسها تقابلنا بعد ذلك فى جمل أخرى ، مع كلمات أخرى تحدد لنا معناها ، وعلى هذا النحو يثبت فى الذهن معنى كل كلمة ، وهناك كلمات محدودة الاستعمال ، لا تظهر مطلقاً إلا فى صحبة بعض الكلمات الأخرى ، وفرصة الخطأ فى هذه الكلمات أوسع لأن الاستعمال لا يقدم لنا الوسيلة لتحديد قيمتها ، وفى هذه الحال كثيراً ما تبتعد الكلمة عن دلالتها الأصلية ، بسبب المعنى

---

(١) انظر تفصيلا أكثر فى كتابى : دلالة الألفاظ للدكتور أنيس ، وعلم اللغة للدكتور على عبد الواحد واف .

الزائف الذى يضاف إليها » [١] . وقد سبق أن ذكرنا خطأ إحدى المذيعات فى وصف « البخل » بأنه « بخل مدقع » لأنها تسمع هذا الوصف دائماً ، مع كلمة : « الفقر » بمعنى : « الفقر الشديد » ، وهو معنى لازم للمعنى الأصلى للكلمة ، ومن يدرى لعلها تصف « المرض الشديد » ، قياساً على هذا ، بأنه « مرض مدقع » ، وهذا من وهم السياق الذى تدور فيه هذه الكلمة .

« وربما تتغير مدلولات كثيرة ؛ لأن الشيء الذى تدل عليه ، قد تغيّرت طبيعته أو عناصره أو وظائفه ، أو الشئون الاجتماعية المتصلة به ، وما إلى ذلك فكلمة : (الريشة) مثلا ، تطلق على آلة الكتابة ، أيام كانت تتخذ من ريش الطيور ، ولكن مدلولها الأصلى قد تغير الآن ، تبعاً لتغير المادة المتخذة منها آلة الكتابة ، فأصبحت تطلق على قطعة المعدن ، وكذلك قُلْ فى مدلول القطار ، الذى كان يراد به مجموعة الإبل المنتظمة فى سيرها ، ثم استعير للقاطرة الحديثة لأنها تجمع فى سيرها طائفة من العربات » [٢] . وما سمى « الخاتم » بهذا الاسم ، إلا لأنه كان ينقش عليه اسم صاحبه ، ويستخدم فى ختم الرسائل والوثائق والصكوك ، غير أنه فقد هذه الوظيفة بعد ذلك ، ولم يبق له إلا الاسم ، وتغيرت بذلك دلالته .

ومن عوامل التطور الدلالى سوء الفهم ، وهو عامل له صلة بما ذكرناه من قبل فى موضوع « القياس » لأن الإنسان يقيس ما لم يعرف ، على ما عرف من قبل ، ويستنبط على أساس هذا القياس ، فيصيب فى استنباطه حيناً ، ويصل إلى الدلالة الصحيحة ، ويخطىء حينا آخر ، فيستخرج دلالة

---

(١) اللغة لفندريس ٢٥٢ — ٢٥٣

(٢) مباحث لغوية للدكتور إبراهيم السامرائى ٩٢

جديدة ، قد تصادف الشيوع والذيوع بين الناس . وقد سبق أن عرفنا أن كلمة : « عتيد » تطورت دلالتها فى أذهان الناس ، إلى معنى « عتيق » ، أو « عنيد » بسبب القياس الخاطىء على هاتين الكلمتين .

ومن العوامل كذلك : تطور أصوات الكلمة ، بحيث تصبح تلك الكلمة ، مماثلة لكلمة أخرى لها معنى آخر ؛ فإن كلمة : « كماش » الفارسية ، بمعنى : نسيج من قطن خشن ، قد تطورت فيها الكاف فأصبحت قافاً ، فشابهت الكلمة العربية : « قماش » . بمعنى : أراذل الناس ، وما وقع على الأرض من فتات الأشياء ، ومتاع البيت ، فأصبحت هذه الكلمة العربية ، ذات دلالة جديدة على المنسوجات .

ومن العوامل التى تؤدى إلى التطور الدلالى أيضا : اختصار العبارة ، فتؤدى كلمة واحدة منها ، ما كانت تؤدية العبارة كاملة ، قبل اختصارها ، وعندئذ تتغير دلالة هذه الكلمة ، وتصبح بعد أجيال غير واضحة الصلة بينها وبين معناها الجديد . مثال ذلك قولنا فى اللهجة العامية المصرية : « فلان من الذوات » أو « من أولاد الذوات » ، أى من الأغنياء ، فهذه الكلمة مختصرة بلاشك من عبارة : « ذوات الأملاك [1] » .

ومثلها : « فلان بلغ » ، يعنى : بلغ الحلم وسن الشباب ، و « فلانة أدركت » ، أى أدركت سن الحيض (معروفة جيدا فى الريف المصرى) ، و « فلان عندو ضغط » ، يعنى : عنده ضغط دم ، و « فلان مبسوط » ، يعنى : مبسوط (واسع) الرزق .

وفى الإنجليزية تستعمل الصفة : constitutional اسما للدلالة على :

---

(١) يرى أحمد أمين فى قاموس العادات (ص ٢٠٥) أنها « كلمة تطلق على الطبقة الغنية . أصلها : ذوات الحيثية ، ثم اكتفى بالقسم الأول » .

« المشى لأغراض صحية » ، والسبب هو أن الكلمتين : walk + constitutional « قد ظهرتا معا جنبا إلى جنب على فترات متعددة ، مكونة عبارة تقليدية ، وفى نهاية الشوط ، اشتد الترابط بينهما اشتدادا وثيقا ، حتى تمكن العنصر الأول وحده ، من أن يؤدى معنى العبارة كلها » [١] .

وقد فطن إلى مثل هذا سيبويه ، حين قال : « وإنما أضمروا ما كان يقع مظهرا ؛ استخفافا ، ولأن المخاطب يعلم ما يعنى ، فجرى بمنزلة المثل ، كما تقول : لا عليكَ ! وقد عرف المخاطب ما تعنى ، أنه لا بأس عليك ، ولا ضَرَّ عليك ، ولكنه حذف لكثرة هذا فى كلامهم [٢] » .

وهناك عامل آخر ، يسبب التطور الدلالى للكلمة ، وهو كثرة دورانها فى الحديث فإننا « نلاحظ أن معنى الكلمة ، يزيد تعرضاً للتغير ، كلما زاد استعمالها ، وكثر ورودها فى نصوص مختلفة ، لأن الذهن فى الواقع يُوجّه كل مرة فى اتجاهات جديدة ، وذلك يوحى إليها بخلق معان جديدة ؛ ومن هنا ينتج ما يسمى (بالتأقلم) . ويجب أن يفهم من هذا الاسم ، قدرة الكلمات على اتخاذ دلالات متنوعة ، تبعاً للاستعمالات المختلفة التى تستعمل فيها ، وعلى البقاء فى اللغة مع هذه الدلالات . وعندنا مثال جميل عن التأقلم فى كلمة : bureau بمعنى : (مكتب) ؛ إذ كانت تدل فى الأصل على نوع من نسج الصوف الغليظ ... ثم أطلقت على قطعة الأثاث التى تغطى بهذا النسج ، ثم على قطعة الأثاث التى تستعمل للكتابة أيا كانت ، ثم على الغرفة التى تحتوى على هذه القطعة من الأثاث ، ثم على الأعمال التى تعمل فى هذ الغرفة ، ثم على الأشخاص الذين يقومون بهذه

---

(١) دور الكلمة فى اللغة ١٥٨

(٢) الكتاب ١١٤/١

الأعمال ، وأخيراً على أية مجموعة من الأشخاص ، تقوم بإدارة إحدى الإدارات أو الجمعيات . وخلق معنى جديد ، لا يقضى بالضرورة على المعانى السابقة ، فهنا يمكن لكل المعانى أن تبقى حية فى اللغة ، إذا استثنينا الأول منها (نوع من النسيج) . وحركة التغييرات المعنوية لا تسير دائما فى خط مستقيم ، بل تسير فى كل الاتجاهات حول المعنى الأساسى . وكل واحد من المعانى الثانوية ، يمكن أن يصير بدوره مركزاً جديداً للإشعاع المعنوى » [١] .

ومن عوامل التطور الدلالى كذلك : عامل « الابتذال » الذى يصيب الألفاظ فى كل لغة ، لظروف سياسية أو اجتماعية أو عاطفية ؛ فمثلا كلمة : « الحاجب » كانت تعنى فى الدولة الأندلسية : « رئيس الوزراء » ، ثم صارت على النحو المألوف الآن ، وإن « الانحدار الذى يصيب الكلمات ، ليعكس بطريقة ملموسة : إما الاحتقار الذى تكنه الطبقات الاجتماعية بعضها لبعض ، وإما البغض المتبادل بين الأوطان والأجناس ، وإما التعصب الأعمى من جانب الجماهير ، وإما عدم احترام المتعصبين لآراء غيرهم ، فالناس يتباغضون ويتناحرون ، ويتبادلون الاحتقار ، ويتنابذون بالألقاب ، واللغة حارس أمين على آثار هذه الحماقات المستمرة ، فالكلمات brigand (قاطع طريق) و ribaud (إباحى) و assissin (قاتل) و grivois (خليع) التى كانت تطلق فى أول أمرها ، على بعض الكتائب العسكرية ، تدين بمعناها الحالى ، إلى غلظة الأخلاق الحربية واستهتارها » [٢] .

وقد ثبت أن « تغييرات المعنى ، تخضع لمجموعة من العلاقات والارتباطات ، وللتركيب العقلى للمتكلم بصفة عامة ، فهى لابد أن تعكس

---

(٣) اللغة لفندريس ٢٥٣ - ٢٥٤

(٢) اللغة لفندريس ٢٦٦

اتجاهات معينة ، لها صفة الثبوت والاطراد ، أو قل إنها تعكس بعض الخواص الأساسية للعقل الإنسانى ، فاللامساس (taboo) وحسن التعبير (التفاؤل والبعد عما يتشاءم منه) وانحطاط المعنى ، تسير كلها فى اتجاهات متشابهة ، تشابها جوهريا فى لغات مختلفة . وهذه هى الحال أيضا فى الاستعارة والمجاز المرسل ، اللذان يعكسان بعض الخصائص المتماثلة ، ولو لم يكن هناك تأثير متبادل بين هذه اللغات [١] » .

وأهم مظاهر التطور الدلالى ثلاثة : تخصيص الدلالة ، وتعميم الدلالة ، وتغيير مجال استعمال الكلمة ، أى أن معنى الكلمة يحدث فيه تضييق أو اتساع أو انتقال [٢] ، « فهناك تضييق عند الخروج من معنى عام إلى معنى خاص ... وهناك اتساع فى الحالة العكسية ، أى عند الخروج من معنى خاص إلى معنى عام ... وهناك انتقال عندما يتعادل المعنيان أو إذا كانا لا يختلفان من جهة العموم والخصوص ، كما فى حالة انتقال الكلمة من المحل إلى الحال ، أو من السبب إلى المسبب ، أو من العلامة الدالة إلى الشيء المدلول عليه ... إلخ . ولسنا فى حاجة إلى القول بأن الاتساع والتضييق ينشآن من الانتقال فى أغلب الأحيان ، وأن انتقال المعنى يتضمن طرائق شتى ، يطلق عليها النحاة أسماء اصطلاحية » [٣] ومن هذه الأسماء الاصلاحية : المجاز المرسل (métonymie) والاستعارة (métaphore) وغير ذلك .

---

(١) دور الكلمة فى اللغة ١٨٨

(٢) انظر أمثلة من الإنجليزية لكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة فى كتاب : دور الكلمة فى اللغة ١٦٥ – ١٦٦

(٣) اللغة لڤندريس ٢٥٦

فإذا أخذنا مثلا كلمة : bureau السابقة هنا ، نجد أنه لا وجه للشبه بين معنييها : المكتب الذى يجلس إليه الإنسان ويكتب ، والمصلحة الحكومية « ولكن بينهما ارتباطا من نوع آخر ، فالمكتب الذى نكتب عليه ، يوضع عادة فى الأماكن التى تدار منها الأعمال . وعلى هذا فالفكرتان مرتبطتان ، بعضهما ببعض فى ذهن المتكلم ، أو قل إنهما تنتميان بالمجاز المرسل (metonymy) ، ويظهر هذا المجاز فى صور متعددة فقد يطلق الظرف على المظروف ، أو المحلّ على الحالّ ، كما فى نحو : شرب كوبا من الماء ، وبيت الرجل ، والمقصود أهله ، وقد يطلق اسم الأداة أو الآلة على وظيفتها ، أو اسم العلم على آثاره ونتائجه ، كإطلاق اللسان على اللغة ، وإطلاق الكتابة بمعنى العمل ، على الكتابة التى على الحائط مثلا . وكذلك قد يسمى الشيء باسم مخترعه أو مؤلفه أو مكانه الأصلى ، مثل سندوتش لذيذ ، واشترى فلان قطعة كشمير »[1] وهو نوع من الصوف ينسب إلى مقاطعة « كشمير » المعروفة .

ومن حالات التخصيص الدلالى « تلك الحالة التى يطلق فيها الاسم العام ، على طائفة خاصة ، تمثل نوعها خير تمثيل فى نظر المتكلم ؛ ذلك أن الإنسان إذا وثق من أن محدثه قادر على فهمه ، أعفى نفسه من استعمال اللفظ الدقيق المحدد ، واكتفى بالتقريب العام ، فعندما يطلب من الفتاة الفلاحة ، أن تُدخل (البهائم) ، لم تتردد لحظة فى كون المقصود بها ، البقر الذى لا يزال فى الحقل ؛ لأن البقر فى نظرها هو البهائم بمعنى الكلمة . وبالطبع لو تكلم الراعى أو الحوذى عن البهائم ، كان المقصود بها فى الحالة الأولى الأغنام ، وفى الثانية الخيل . والكلمات العامة لا تكاد تستخدم فى الاستعمال بقيمتها العامة ، اللهم إلا إذا كان ذلك عند الفلاسفة ، فكل

---

(١) دور الكلمة فى اللغة ١٧٣

واحد من المتكلمين ، يطلقها على نوع خاص من أنواع النشاط . وقد تكلم علماء اللغة عن المعانى المختلفة لكلمة : (عملية) ؛ فإن معناها يختلف تبعاً لما إذا كان الكلام فى الجراحة ، أم فى المالية ، أم فى الفن الحربى ، أم فى شئون الغابات ، أم فى الرياضة ، تبعاً لذلك نعرف ، ما إذا كان يدور حول قطع عضو من أعضاء الجسم ، أو عقد صفقة من صفقات البورصة ، أو قيادة كتيبة من الجيش فى ميدان القتال ، أو تعليم الأشجار التى يجب أن تقطع ، أو حل مسألة حسابية » [١] .

ومن أمثلة هذا النوع من التطور الدلالى فى العربية : تخصيص كلمة : « الطهارة » لمعنى : « الختان » فى أذهان الناس ، وتخصيص كلمة : « الحريم » للدلالة على النساء بعد أن كانت تطلق على كل حمى محرم . وكذلك إطلاق كلمة : « العيش » على : « الخبز » فى بعض اللهجات العربية الحديثة . وقد ذكر الزبيدى أن عامة الأندلس فى القرن الرابع الهجرى ، كانوا يطلقون كلمة : « الوادى » على النهر خاصة ، مع أنها فى الأصل للبطن المطمئن من الأرض عموماً ، كما كانوا يطلقون « اللحاف » على ذلك الغطاء ، الذى يوضع على الأسرة خاصة ، كما هو شائع الآن فى اللهجات الحديثة ، ومعناه فى الأصل : « كل ما يلتحف به » [٢] . ومن أمثلة ذلك عصرنا الحاضر : استعمال كلمة : « الصينية » بمعناها المعروف الآن ، وكانت تطلق فى الأصل ، على كل ما يرد من بلاد الصين ، وقد حدث هذا التطور الدلالى ، منذ الزمن البعيد ، فى تلك الكلمة ؛ فقد قال الثعالبى (المتوفى سنة ٤٢٩ هـ) : « كانت العرب تقول لكل طرفة من الأوانى

---

(١) اللغة لفندريس ٢٥٧ — ٢٥٨

(٢) لحن العوام للزبيدى ٢٤٠ ؛ ٢٤٢

وما أشبهها : صينية ، وقد بقى هذا الاسم الآن على هذه الصوانى المعروفة »[١] .

أما تعميم الدلالة ، فإنه ينحصر « فى إطلاق اسم نوع خاص من أنواع الجنس على الجنس كله . وهذه هى حال الأطفال ، الذين يسمون جميع الأنهار ، باسم النهر الذى يروى البلدة التى يعيشون فيها ، هكذا يفعل الطفل الباريسى ، عندما يصيح وقد رأى نهراً : je vois une Seine (أرى سيناً) . وتلك غلطة طفل لا يدوم لها أثر ، ولكن هناك أخطاء مماثلة ، قد استمر بقاؤها ، ففى السلاڤية الجنوبية ، صار اسم الوردة ، يطلق على الزهرة عموما ... وقد امتد أثر هذه الواقعة امتداداً جعل كلمة : Blume (زهرة) ، تختفى من اللهجات الألمانية المجاورة ، ويحل محلها كلمة : Rose (أصل معناها : وردة) ، فيقال : Die Wiese ist voll Rosen بمعنى : « الحقل مملوء بالأزهار »[٢] .

ويشبه هذا ما حدث فى لهجاتنا العربية الحديثة ، من إطلاق « الورد » على كل « زهر » . ومن أمثلة هذه الظاهرة عندنا كذلك : إطلاق « البأس » على كل شدة ، وهى فى الأصل بمعنى : « الحرب » ، وإطلاق : « البحر » على النهر والبحر .

كما يشبه هذا إطلاق أهل الأندلس ، فى القرن الرابع الهجرى ، كلمة : « البلاط » على البيت المحصن البناء ، وهى فى الأصل للحجارة المفروشة بالأرض ، وجعلهم كلمة : « الاستحمام » للاغتسال بالماء مطلقاً حاراً كان أو بارداً ، وهى فى الأصل للاغتسال بالماء الحميم ، أى الحار[٣] ؛ إذ يقال : « ابتردت بالماء ، أى صببت علىَّ ماءً بارداً واقتررت به . وقد استحممت به ، إذا صببت عليك ماءً حارًّا »[٤] . وقد ذكر الحريرى (المتوفى سنة ٥١٦ هـ)

---

(١) ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للثعالبى ٥٤٣

(٢) اللغة لفندريس ٢٥٨

(٣) لحن العوام للزبيدى ٢٢٢ ؛ ٢٥٦

(٤) إصلاح المنطق ٣٧٨

من ذلك : استعمال الناس كلمة : « القافلة » لجماعة الركب مطلقاً راحلة كانت أو قادمة ، وهى فى الأصل للرفقة الراجعة ، من الفعل : قَفَلَ بمعنى : « رجع » [١] .

ومن ذلك استعمال : (تعال) للأمر بالمجىء مطلقا « وأصلها الأمر لمن كان فى سفل أن يأتى محلا مرتفعا ، ثم استعملت لمطلق المجىء » [٢] ، قال ابن قتيبة : تعال : تَفَاعَلَ من علوت ، قال الفراء : أصلها : عالِ إلينا ، وهو من العُلوّ ، ثم إن العرب لكثرة استعمالهم إياها صارت عندهم بمنزلة : هلُمَّ ، حتى استجازوا أن يقولوا للرجل وهو فوق شَرَف : تعالَ ، أى اهبط ، وإنما أصلها الصعود [٣] .

ويشبه خطأ الطفل الباريسى ، فى إطلاق اسم « نهر السين » على كل نهر يراه ما حدث لأحد أطفالى ، فى أوائل مراحل نموه اللغوى ؛ إذ إطلق كلمة : « العصاية » على كل شىء طويل ، يشبه : « العصا » ، كعمود النور ، والنخلة ، وما شابه ذلك .

أما انتقال الدلالة لغير التخصيص والتعميم ، فمن أمثلته استعمال كلمة : « الشجرة » بمعنى : « النخلة » ، و « الطير » بمعنى : « الذباب » ، و « الوغى » بمعنى : « الحرب » ، وأصلها : اختلاط الأصوات فى الحرب ، وما إلى ذلك . و « أسماء أجزاء الجسم ، تعد الميدان التقليدى لانتقالات المعنى ، فنرى عدداً كبيراً منها يتأرجح فى اللغات المختلفة ، وينتقل بسهولة من عضو إلى عضو ، أو من جزء إلى جزء آخر ... فأصل واحد هو الذى

---

(١) درة الغواص فى أوهام الخواص ١٧٢

(٢) شفاء الغليل للخفاجى ٥٣

(٣) تأويل مشكل القرآن ٤٢١ وانظر الزاهر لابن الأنبارى ٢٧٧/٢

أعطانا الكلمة اللاتينية : mentum (ذقن) والغالية : mant (فك) والألمانية : Mund (فم) أما الكلمة الفرنسية : bouche (فم) ، فقد جاءت من اللاتينية : bucca التى تدل على : الخدّ » [(١)] .

ويشبه هذا إطلاقنا : « الشنب » على : « الشارب » ، والشنب هو : ماء الثغر . وكذلك إطلاق المصريين كلمة : « الذقن » على : « اللحية » ، والذقن هو : مجتمع عظام اللحيين من الفك . وكذلك إطلاقهم كلمة : « الصدر » على ثديى المرأة تأدباً و « الكعب » على « العقب » ، وهو فى الأصل للعظم الناتىء فى مفصل القدم ، وما شابه ذلك .

وذكر الزبيدى (المتوفى ٣٧٩ هـ) أن أهل الأندلس فى القرن الرابع الهجرى كانوا يطلقون « الأطناب » على شقاق القبة المخيطة بها ، وهى فى الأصل : حبال القبة . كما كانوا يسمون الحزام بالقلادة ، وهى فى الأصل للعقد الذى يوضع فى العنق [(٢)] . ويذكر ابن الإمام (المتوفى بعد سنة ٨٢٧ هـ) أن الناس فى عصره كانوا يطلقون على المغنية لفظة : « غانية » والغانية فى الأصل « إنما هى المرأة الجميلة ، كأنها غنيت بجمالها عن الزينة ، أى استغنت » [(٣)] فقد خلطوا بين الفعلين : « غَنِيَ » بمعنى : « استغنى » ، و « غنّى » من : الغناء .

كما يذكر الشيخ محمد على الدسوقى أن « استعمال (الجيب) فى الرقعة التى فى جيب القميص والقباء ونحوهما ، مجاز علاقته المجاورة . وفى شفاء الغليل : جيب القميص طوقه . وأما الجيب الذى توضع فيه الدراهم ، فمولد لم تستعمله العرب . صرح به ابن تيمية [(٤)] » .

---

(١) اللغة لڤندريس ٢٦٠

(٢) لحن العوام للزبيدى ٢٠٩ ، ٢١٣

(٣) الجمانة فى إزالة الرطانة ٣٥

(٤) تهذيب الألفاظ العامية ١/٨٠ وانظر كذلك : شفاء الغليل ٣٥

والأصل فى معنى كلمة : « التنزه » ، القرب من الطهارة والبراءة ، ثم انتقل استعمالها عند العرب إلى ما يشبه هذا ، وهو الخروج إلى البساتين والخضر . قال أبو عبيد : « وأصل التنزه : البعد مما فيه الأدناس ، والقرب مما فيه الطهارة والبراءة ... ثم كثر استعمال الناس للنزهة فى كلامهم ، حتى جعلوها فى البساتين والخضر . ومعناه راجع إلى ذلك الأصل [1] » .

وقال ابن السكيت عن هذه الكلمة : « ومما تضعه العامة فى غير موضعه قولهم : خرجنا نتنزه ، إذا خرجوا إلى البساتين ، وإنما التنزه التباعد عن المياه والأرياف . ومنه قيل : فلان يتنزه عن الأقذار ، أى يتباعد عنها [2] » .

* * *

---

(١) غريب الحديث لأبى عبيد ٨١/٣ وانظر كذلك : الزاهر ٣٢٦/١

(٢) إصلاح المنطق ٢٨٧ ؛ ٣١٤ وانظر أيضا : الفاخر ١١٦

١٨ - تَجْدِيدُ الأَلْفَاظِ

أحياناً تبتذل بعض الألفاظ ، ويمجها المجتمع ، ويعافها الذوق ، ومن الألفاظ الدائمة التطور والتغير ، تلك التى تشير إلى التبول والتبرز ، والعملية الجنسية ، وأعضاء التناسل ، فلا يكاد اللفظ منها يشيع ، حتى يمجه الذوق الاجتماعى ، وتأباه الآداب العامة ، فيستعاض عنه بآخر من اللغة نفسها ، أو من لغة أجنبية : « والأسباب الاجتماعية واضحة جداً ، فى تغيير الكلمات مراعاة للياقة ؛ إذ ليس من اللائق أن يتكلم فى أحد المجتمعات ، عن أفعال معروفة بالفظاظة ، أو بأنها مما يجرح الحياء ، وتستبعد الألفاظ التى تعبر عنها ، من بين المفردات التى يستعملها الأشخاص المهذبون ، فللتعبير عن هذه الأفعال ، عبارات متنوعة ، تبقى مستعملة حتى تصير بدورها خشنة ، وجارحة للأذن ... والذى يقطع بكون الكلمة لائقة أو غير لائقة إنما هو العرف ، واللفظ بذاته ، يختلف حاله فى إقليم عنه فى الآخر ، فكلمة : pissoir (مكان البول) فى الألمانية ، أقل منها جرحا للأذن فى الفرنسية ، لأن استعارة كلمة من الخارج ، تخفف من افتضاح الشيء ، الذى يُعبر بها عنه ، فهى تلعب دور الكناية » [١] .

ويشبه ذلك ما حدث فى العربية ، فى أسماء الحمامات ، وأماكن قضاء الحاجة ، فمنها ما وضع قبل العصر الحديث ، بزمن لا نعرف مداه ، لفقدان الوثائق التى تبين لنا ذلك الزمن ، فى كثير من الأحيان ؛ فمثلا كلمة : « الكنيف » ، يعيبها ابن سنان الخفاجى (فى القرن الخامس الهجرى) فى شعر الشعراء [٢] ؛ فيقول : « ومثل هذا قول عروة بن الورد العبسى :

---

(١) اللغة لفندريس ٢٨٠

(٢) سر الفصاحة لابن سنان ٨٢

قلتُ لقوم فى الكنيف تَرَوَّحُوا   عشيّةَ بِتْنَا عندما وان رُزَّحُ

والكنيف أصله الساتر . ومنه قيل للترس : كنيف . غير أنه قد استعمل فى الآبار التى تستر الحدث ، وشهر بها ، فأنا أكرهه فى شعر عروة ، وإن كان ورد مورداً صحيحا ؛ لموافقة هذا العرف الطارىء . على أن لعروة عذراً ، وهو جواز أن يكون هذا الاستعمال حدث بعده ، بل لا أشك أنه كذلك ؛ لأن العربَ أهلَ الوبر لم يكونوا يعرفون هذه الآبار » .

هذا ، غير أننا لا نعرف متى استعملت كلمات مثل : « المرحاض » و « بيت الأدب » و « الحمام » و « دورة المياه » وكلها لا تزال حية فى ريف بلادنا ، حتى يومنا هذا ، غير أن الناس فى المدن ، استعاروا للدلالة على هذا المكان ، كلمات من اللغات الأجنبية ، مثل « الكابنيه » و « التواليت » ، وأخيراً « الدبليوسى » (W.C) .

والألفاظ التى تدل على التبول والتبرز ، هى الأخرى فى تغير مستمر ، ففى العامية العربية مثلا : « يشخّ » و « يعمل زى الناس » و « يروح الحمام » و « يعمل كابنيه » و « يروح التواليت » وما إلى ذلك . والألمان يقولون للدلالة على ذلك الآن : Darf ich verschwenden! ومعناها حرفيا : هل تسمح لى أن أختفى ؟ .

ويحكى ابن فارس اللغوى ، أنه قد جرى بين يدى الوزير ابن العميد « أسماء الفَرْج وكثرتها ، فقال بعض الحاضرين : ماذا أرادت العرب بتكثيرها مع قبحها ؟ فقال : لما رأوا الشىء قبيحا ، جعلوا يكنون عنه ، وكانت الكناية عند فشوها تصير إلى حد الاسم الأول ، فينتقلون إلى كناية أخرى ، فإذا اتسعت أيضا رأوا فيها من القبح ، مثل ما كنوا عنه من أجله . وعلى هذا فكثرت الكنايات ، وليس غرضهم تكثيرها [١] » .

---

(١) مثالب الوزيرين ، لأبى حيان التوحيدى ٢٥٤

ومعنى هذا الكلام أن « الابتذال فى الألفاظ ، وما تدل عليه ، ليس وصفا ذاتيا ، ولا عرضا لازما ، بل لاحقا من اللواحق المتعلقة بالاستعمال فى زمان دون زمان ، وصقع دون صقع [١] » .

« والواقع أن الثروة الطائلة من المترادفات ، التى ولدتها جميع اللغات لتخفيف صدمة الموت ووقعه على النفس ، إنما ترجع إلى قانون الاستهلاك بكثرة الاستعمال ، والحاجة الدائمة إلى التجديد ، وليس دور هذا القانون فى هذا المضمار ، بأقل من دور الموت نفسه ، ذلك المجال الذى يضطرنا إلى التنويع والتجديد فى اصطلاحاته ، بسبب ماله من تأثير عاطفى » [٢] .

وبعض الألفاظ يصاب بما يشبه « الحظر » على استعمالها فى المجتمع ؛ لأن الناس يتشاءمون من ذكرها ، فيستبدلون بها كلمات أخرى ، كاستعمالهم « المبروكة » للحمى ، و « المرض الخبيث » للسرطان .

وهذه الظاهرة هى ما يطلق عليه اسم « اللامساس » أو « الحظر » ، وهو ترجمة لكلمة : taboo وتطلق على كل ما هو مقدس ، أو ملعون ، يحرم لمسه ، أو الاقتراب منه ، من الأشياء وأسمائها ؛ بسبب الاعتقاد الخرافى فى سحر الكلمة ، « فإذا ما اصطدمت كلمة ما بحظر الاستعمال ، تحت تأثير عامل اللامساس ، حلت محلها كلمة أخرى خالية من فكرة الضرر والأذى . وهذه العادة ليست مقصورة بحال من الأحوال على المجتمعات البدائية ، فهى معروفة فى كل البيئات ، وفى كل أنواع الحضارات بمستوياتها المختلفة . وتحريم استعمال الكلمات بتأثير فكرة اللامساس ، نتيجة طبيعية للخرافات اللغوية وأثر من آثار الاعتقاد فى سحر الكلمة » [٣] .

---

(١) المزهر ١٩١/١ ومنهاج البلغاء (ملحق) ص ٣٨٦

(٢) دور الكلمة فى اللغة ١٨٢

(٣) دور الكلمة فى اللغة ١٧٧

ونحن نعرف فى الديانة اليهودية أن كلمة : « يهوه » فى العبرية ، بمعنى : الإله ينطقها اليهود : « أذوناى » بمعنى : « سادتى » ؛ بسبب الخوف الذى يسيطر عليهم ، لارتباط الاسم القديم بالكوارث واللعنات ، التى حلت عليهم ، خلال تاريخ اليهود الطويل [١] .

« وهناك عادات مماثلة ، نلحظها فى المأثورات الشعبية ، لكثير من الأجناس والأمم ، ففى بلاد المجر فى العصور الوسطى ، كان الأطفال يسمون أحيانا بأسماء وقائية ، كأن يدعى الواحد منهم : (بالموت الصغير) ، أو (ليس حيا) ، أو (القذارة) ، أو (الوسخ) ؛ وذلك لصرف الأرواح الشريرة عن هذه المخلوقات ... وعندنا نحن من العادات الخرافية والخزعبلات ، ما يعكس هذه الرهبة العميقة الجذور : رهبة تأثير الكلمة ، وسحرها العجيب » [٢] .

« ولا ينحصر الأثر الناجم من تحريم المفردات ، فى استبدال كلمة مكان كلمة فحسب ، بل يتعداه أيضا إلى تشويه الكلمات الموجودة ، فتغيير حرف من الكلمة ، أو نقله ، يخفف ما ينطوى عليه من الحظر ، أو مما لا يليق ، دون أن ينقص ذلك من قيمتها الدلالية . وفى استطاعة كل إنسان فى هذه الحال ، أن يفهم المراد على الفور ، فالحجاب لا يستر إلا الجهات الجارحة والمؤذية للحياء ، ويشف عن معالم الكلمة الكبرى ، ولونها العام ، ونرى الشتائم فى كثير من اللغات ، تصاب بشىء من التشويه المقصود ، الذى يمكن من إدخالها فى أرقى الأوساط » [٣] .

---

(١) انظر : اللغة العبرية ، للدكتور رمضان عبد التواب ٧٥

(٢) دور الكلمة فى اللغة ١٧٨

(٣) اللغة لفندريس ٢٨٢

ويكفى أن نذكرّ هنا بالتشويه الحاصل فى عبارة : « ينعل ديكك » ففيها القلب المكانى فى الكلمة الأولى ، وتغيير بعض معالم الكلمة الثانية ، غير أن دلالة العبارة على معناها ، لا تزال كاملة ، ومثل ذلك تشويهنا للعبارة التى نتشاءم من ذكرها ، كقولنا : « يا نهار اسوح » أو « يا نهار احوس » أو « يا نهار اسوخ » ، بدلاً من : « يا نهار اسود » !

وقد دلنا الفراء على أن ذلك مذهب العرب قديما ، فى الكلمات والعبارات التى يستقبحونها ، فيعمدون إلى تشويهها ، بتغيير بعض أصواتها ، للتخفيف من حدة وقعها على السمع ؛ يقول الفراء : « ومن كلام العرب أن يقولوا : قاتله الله ، ثم يستقبحونها ، فيقولون : قاتعة وكاتعة ، ويقولون : جُوعاً ، دعاء على الرجل ، ثم يستقبحونها فيقولون : جُودا ، وبعضهم : جُوساً ومن ذلك قولهم : ويحك وويسك ، إنما هى : ويلك ، إلا أنها دونها بمنزلة ما مضى »[1] .

* * *

---

(١) معانى القرآن ٢/٣٧٢

١٩ - الأعرابُ وَتَرْتِيبُ أَجْزاءِ الجُمْلَةِ

تختلف - فى ترتيب الكلمات داخل الجملة - تلك اللغات التى تلحق بكلماتها ، علامة معينة (Morphem) للدلالة على وظيفتها فى الجملة ، وهى تلك العلامة التى نسميها الإعراب - عن اللغات التى لا تستخدم مثل هذه العلامة ، والنوع الأول تمتاز الكلمات فيه ، بحرية الحركة فى داخل الجمل ؛ فمثلا اللغة اللاتينية تلحق بكلماتها تلك المورفيمات الإعرابية ، لذلك يمكن أن يقال فيها عبارة مثل عبارة : « بيت الملك » بطريقتين مختلفتين : (domus regis) أو (regis domus) فكلمة domus بمعنى : « بيت » فى حالة رفع ، وكلمة : regis بمعنى : « ملك » فى حالة جر !

أما الفرنسية ، وهى لغة متطورة عن اللاتينية ، فإنها لا تستخدم الجملة السابقة إلا بصورة واحدة هى : la maison du roi وترجمتها الحرفية : « البيت بتاع الملك » . ومع فقدان الفرنسية لعلامات الإعراب اللاتينية ، فى هذه الجملة ، فإنها استعاضت عنها بعلامتين أخريين ، للدلالة على علاقة الملكية ، هما (la) وهى أداة التعريف (ال) و (du) بمعنى : (بتاع) فى العامية المصرية . و « على العكس من ذلك ، توجد لغات ، لا يعبر فيها عن هذه العلاقة ، إلا بمكان كل من الكلمتين بالنسبة للأخرى فيقال فى الغالية مثلا : ti brenhin (ti منزل + brenhin ملك) ، مع وضع المالك دائما بعد الشىء المملوك . ويقال فى الصينية : wang tien (wang ملك + tien بيت) ، مع وضع الشىء المملوك بعد المالك ، على عكس المثال السابق ، وفى كلتا هاتين اللغتين ، لا يعبر عن علاقة التبعية ، بأية علامة خارجية ، ولا يشار إليها إلا بترتيب وضع الكلمات ، الذى يجب لذلك بالطبع أن يكون ثابتاً ، لا يعتريه تغيير . فاللغات التى فقدت إعراب الحالات على وجه عام ، استعاضت فى تأدية العلاقات ، التى كان يعبر عنها

بالإعراب إما بكلمات مساعدة (حروف جر أو أدوات أو غير ذلك) ، وإما بوضع كل كلمة بالنسبة للكلمات الأخرى » [١] .

ولقد كانت جملة مثل : « بطرس يضرب بولس » تقال فى اللاتينية بأربعة أوجه هى : Petrus caedit Paulum « بطرسُ يضرب بولسَ » أو : Petrus Paulum caedit « بطرسُ بولسَ يضرب » أو : Paulum caedit Petrus « بولسَ يضربه بطرسُ » ، أو : Paulum Petrus caedit « بولسَ بطرسُ يضرب » . وقد بقى من الوجوه الستة الممكنة فى هذه الجملة : وجهان يتقدم فيهما الفعل : caedit ، غير أن الذى منع من ذلك فى اللاتينية عدم وجود النظام الفعلى فى جملها ، أى الجمل التى تبدأ بفعل فى أولها .

وإذا قارنا اللاتينية بالفرنسية المتطورة عنها ، نجد الجملة السابقة ، لزمت حالة واحدة فى ترتيب كلماتها ؛ إذ يقال فى الفرنسية مثلا : Pierre frappé Paul « بيير يضرب بول » ، بتقديم الفاعل فالفعل فالمفعول .

وهذا يماثل ما حدث فى العربية تماماً ؛ فقد كانت الجملة العربية ، تظفر بحرية كبيرة إلى حد ما ، فى ترتيب أجزائها ، بسبب وجود الإعراب فى الفصحى ، والاكتفاء به فى كثير من الأحيان ، للدلالة على وظيفة الكلمة فى الجملة ، ومن هنا تعددت أشكال الجملة العربية من ناحية موقع كل جزء فيها ؛ فجملة مثل : « ضرب محمد عليا » يمكن أن تقال فى العربية الفصحى ، بأوجه أخرى ؛ مثل : « ضرب عليا محمد » أو « محمد ضرب عليا » أو « عليا ضرب محمد » ، تبعاً لاختلاف المقصود من الكلام ، والجزء الذى يعنى المتحدث إبرازه والاهتمام به ، أكثر من غيره .

وقد ساعد على هذه الحرية فى بناء الجملة العربية ، وجود الإعراب ،

---

(١) اللغة لفندريس ١١١

فلما فقد هذا الإعراب ، كان الواجب أن يلزم بناء الجملة نظاماً واحداً ، وهو ما حدث فى اللهجات العربية الحديثة ، فإن جملة : « ضرب محمد علياً » مثلا ، أصبحت فى اللهجات الحديثة : « محمد ضرب على » ، بتقديم الفاعل ، والتثنية بالفعل ، ثم الإتيان بالمفعول به .

وفى ذلك يقول أنطوان مييه : « وجود إعراب غنى بالحالات ، بحيث يكفى للعبارة عما هو ضرورى لبناء الجملة — يعفى من الاعتماد على قواعد الترتيب . وعلى العكس من ذلك ، يجب أن تكون هناك قواعد دقيقة لترتيب الكلمات ، عندما لا يوجد أى عنصر من عناصر الإعراب ، كما هو الحال فى اللغة الصينية ، أو عندما لا يوجد إلا عدد محدود كما هى الحال فى الفرنسية » (١) .

كما يقول ماريو باى (٢) : فى لغات معينة كالصينية مثلا ، يحتل نظام الجملة مكانا هاما ، نظراً لعدم وجود مورفيمات الإعراب ، وفى لغات أخرى كاللاتينية ، يلعب نظام الجملة دورا ثانويا بسيطا ، حيث إن المعدّات الصرفية ، المتمثلة فى النهايات التصريفية ، توجه اهتماما إلى معظم المشاكل المتعلقة بالتغييرات التى تؤثر فى المعنى ، وفى معظم اللغات الغربية الحديثة ، يوجد مزيج من النوعين ، وهو مزيج غير محتاج إليه فى بعض الأحيان .

وفى الجملة الإنجليزية : John hit George لا يدل السامع على الضارب والمضروب هنا ، إلا نظام الجملة لا غير ؛ وفى : He hit me نجد دليلين اثنين ، فإن He لم تأت فى موقع محجوز دائما للفاعل فحسب ، بل تدل كذلك بصيغتها (he وليس him) على الفاعلية ، وفى الوقت نفسه جاءت me فى

---

(١) علم اللسان لأنطوان مييه ٤٤٧

(٢) أسس علم اللغة ٥٤

الوضع المعتاد المخصص للمفعول ، ودلت على المفعولية كذلك بصيغتها (me وليست I) .

وإذا أدخلنا فى الاعتبار لغات أخرى ، وأردنا المقارنة ، نجد أنه فى الصينية ، ليس من الممكن إلا أن نقول : He hit I بدون تغيير الضمير لاختلاف محله ، وحينئذ فموقعية الضمير وحدها ، هى التى تبين الفاعل من المفعول .

وعلى خلاف ذلك ، نجد اللاتينية تستخدم الصور التالية للجملة السابقة : Me hit he و Hit he me و Hit me he وكذلك فى الحالات التى تحل فيها الأسماء الظاهرة محل الضمائر ، اعتماداً على ما تحويه تلك الأسماء من نهايات معينة تشير إلى الفاعل والمفعول .

* * *

مَراجعُ الكِتاب

١ – المراجع العربية

١ – أبحاث فى اللغة العربية ، للدكتور داود عبده – بيروت ١٩٧٣ م .

٢ – الإبدال ، لأبى الطيب اللغوى – تحقيق عز الدين التنوخى – دمشق ١٩٦٠ م .

٣ – أبنية الفعل فى اللغات السامية ، للدكتور رمضان عبد التواب – مجلة كلية اللغة العربية بالرياض (العدد الرابع) ١٩٧٤ م .

٤ – الإتقان فى علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطى – القاهرة ١٣٦٨ هـ .

٥ – أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، للمقدسى – نشر دى غويه – ليدن ١٩٠٦ م .

٦ – الإحكام فى أصول الأحكام ، لابن حزم – القاهرة (بلا تاريخ) .

٧ – أخطاؤنا فى الصحف والدواوين ، لصلاح سعدى الزعبلاوى – دمشق ١٩٣٩ م .

٨ – أدب الكاتب ، لابن قتيبة الدينورى – تحقيق جرونرت – ليدن ١٩٠٠ م .

٩ – الأذكياء ، لأبى الفرج بن الجوزى – تحقيق الدكتور محمد الخولى – القاهرة ١٩٧٠ م .

١٠ – أساس البلاغة ، للزمخشرى – طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٢٢ م .

١١ – أسس علم اللغة ، لماريوباى – ترجمة الدكتور أحمد مختار عمر – طرابلس ليبيا ١٩٧٣ م .

١٢ – الأشباه والنظائر فى النحو ، لجلال الدين السيوطى – حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٥٩ هـ .

١٣ – الاشتقاق ، لابن السراج – تحقيق محمد صالح التكريتى – بغداد ١٩٧٣ م .

١٤ – إصلاح المنطق ، لابن السكيت – تحقيق أحمد شاكر وهارون – القاهرة ١٩٥٦ م .

١٥ – الأصمعيات ، للأصمعى – تحقيق أحمد شاكر وهارون – القاهرة ١٩٥٥ م .

١٦ - الأصوات اللغوية ، للدكتور إبراهيم أنيس - القاهرة ١٩٥٠ م .

١٧ - الأصول فى النحو ، لابن السراج - تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلى - بيروت ١٩٨٥ م .

١٨ - أصول الكلمات العامية ، لحسن توفيق العدل - القاهرة ١٨٩٩ م .

١٩ - الأضداد ، لأبى بكر بن الأنبارى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - الكويت ١٩٦٠ م .

٢٠ - إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ، لابن خالويه - تحقيق عبد العزيز الميمنى - القاهرة ١٩٤١ م .

٢١ - إعراب القرآن ، للنحاس ، تحقيق الدكتور زهير غازى زاهد - بغداد ١٩٧٧ - ١٩٨٠ م .

٢٢ - إعراب القرآن ، المنسوب للزجاج - تحقيق إبراهيم الإبيارى - القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٦٥ م .

٢٣ - الأغانى ، لأبى الفرج الإصفهانى - بولاق ١٢٨٥ هـ .

٢٤ - الإفادة والاعتبار ، لعبد اللطيف البغدادى - تحقيق الدكتور على محسن مال الله - بغداد ١٩٨٧ م .

٢٥ - الأفعال ، للسرقسطى - تحقيق الدكتور حسين شرف - القاهرة ١٩٧٥ وما بعدها .

٢٦ - الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب ، للبطليوسى - نشر عبد الله البستانى - بيروت ١٩٠١ م .

٢٧ - ألف باء ، للبلوى - القاهرة ١٢٧٨ هـ .

٢٨ - ألفاظ عامية فصيحة ، للدكتور داود التنير - القاهرة ١٩٨٧ م .

٢٩ - الألفاظ الفارسية المعربة ، للسيد أدى شير - بيروت ١٩٠٨ م .

٣٠ - الأمالى ، لابن الشجرى - حيدرآباد الدكن بالهند ١٣٤٩ هـ .

٣١ - الأمالى ، لأبى على القالى - بولاق ١٣٢٤ هـ .

٣٢ - الأمثال ، لأبى عكرمة الضبى - تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب - دمشق ١٩٧٤ م .

٣٣ - الأمثال العربية القديمة ، للمستشرق الألمانى رودلف زلهايم - ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب - بيروت ١٩٧١ م .

٣٤ - إنباه الرواة على أنباه النحاة ، للقفطى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٥٠ - ١٩٧٣ م .

٣٥ - الإنصاف فى مسائل الخلاف ، لأبى البركات بن الأنبارى - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - القاهرة ١٩٥٣ م .

٣٦ - الإيضاح العضدى ، لأبى على الفارسى - تحقيق الدكتور حسن شاذلى فرهود - القاهرة ١٩٦٩ م .

٣٧ - إيضاح الوقف والابتداء فى كتاب الله عز وجل ، لأبى بكر بن الأنبارى - تحقيق محيى الدين رمضان - دمشق ١٩٧١ م .

٣٨ - البحر المحيط ، لأبى حيان الأندلسى - مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٨ هـ .

٣٩ - بحوث ومقالات فى اللغة ، للدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٨٨ م .

٤٠ - البديع ، لابن المعتز - تحقيق كراتشكوفسكى - لندن ١٩٣٥ م .

٤١ - بغية الوعاة ، للسيوطى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٦٤ - ١٩٦٥ م .

٤٢ - البيان فى غريب إعراب القرآن ، لأبى البركات بن الأنبارى - تحقيق الدكتور طه عبد الحميد طه - القاهرة ١٩٧٠ م .

٤٣ - البيان والتبيين ، للجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة ١٩٤٨ - ١٩٥٠ م .

٤٤ - تأويل مشكل القرآن ، لابن قتيبة - تحقيق السيد أحمد صقر - القاهرة ١٩٥٤ م .

٤٥ - تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية ، لحفنى ناصف - القاهرة ١٩٥٨ م .

٤٦ - تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، للخطيب البغدادى - القاهرة ١٩٣١ م .

٤٧ - تاريخ العرب قبل الإسلام ، للأصمعى - تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين - بغداد ١٩٥٩ م .

٤٨ - تاريخ مصر ، للمسبحى - تحقيق أيمن فؤاد سيد - القاهرة ١٩٧٧ م .

٤٩ - تثقيف اللسان وتلقيح الجنان ، لابن مكى الصقلى - تحقيق عبد العزيز مطر - القاهرة ١٩٦٧ م .

٥٠ - تخريج الدلالات السمعية ، للخزاعى التلمسانى - تحقيق الشيخ أحمد أبو سلامة - القاهرة ١٩٨٠ م .

٥١ - تذكرة الكاتب ، لأسعد داغر - القاهرة ١٩٢٣ م .

٥٢ - تذكرة النحاة ، لأبى حيان الأندلسى - تحقيق الدكتور عفيف عبد الرحمن - بيروت ١٩٨٦ م .

٥٣ - التذكير والتأنيث فى اللغة ، للدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٦٧ م .

٥٤ - تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ، لابن مالك - تحقيق محمد كامل بركات - القاهرة ١٩٦٧ م .

٥٥ - تصحيح التصحيف وتحرير التحريف ، للصفدى - تحقيق السيد الشرقاوى ومراجعة الدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٨٧ م .

٥٦ - تصحيح الفصيح ، لابن درستويه - تحقيق عبد الله الجبورى - بغداد ١٩٧٥ م .

٥٧ - التطور النحوى ، للمستشرق برجشتراسر - أخرجه وصححه وعلق عليه الدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٨٢ م .

٥٨ - تفسير الطبرى = جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، للطبرى - القاهرة ١٣٢١ هـ .

٥٩ - تقويم اللسان ، لابن الجوزى - تحقيق عبد العزيز مطر - القاهرة ١٩٦٨ م .

٦٠ - التكملة فيما يلحن فيه العامة ، للجواليقى - نشر ديرنبورج - ليبزج ١٨٧٥ م .

٦١ - التنبيه على غلط الجاهل والنبيه ، لابن كمال باشا - نشر لاندبرج - ليدن ١٨٨٩ م .

٦٢ - تهذيب الألفاظ العامية ، للشيخ محمد على الدسوقى - القاهرة ١٩٢٠ - ١٩٢٣ م .

٦٣ - تهذيب اللغة ، لأبى منصور الأزهرى - تحقيق عبد السلام هارون وآخرين - القاهرة ١٩٦٤ - ١٩٦٧ م .

٦٤ - التيسير فى القراءات السبع ، لأبى عمرو الدانى - استانبول ١٩٣٠ م .

٦٥ - ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ، للثعالبى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٦٥ م .

٦٦ - الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ، للخطيب البغدادى - تحقيق الدكتور محمود الطحان - الرياض ١٩٨٣ م .

٦٧ - الجمانة فى إزالة الرطانة ، لابن الإمام - تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب - القاهرة ١٩٥٣ م .

٦٨ - الجمل ، للزجاجى - نشر العلامة ابن أبى شنب - باريس ١٩٥٧ م .

٦٩ - الجيم ، لأبى عمرو الشيبانى - تحقيق إبراهيم الإبيارى وآخرين - القاهرة ١٩٧٤ - ١٩٧٥ م .

٧٠ - حلية الأولياء ، لأبى نعيم الإصفهانى - القاهرة ١٩٣٢ - ١٩٣٨ م .

٧١ - الحماسة البصرية ، لصدر الدين البصرى - تحقيق مختار الدين أحمد - حيدرآباد الدكن بالهند ١٩٦٤ م .

٧٢ - حماسة ابن الشجرى - تحقيق عبد المعين الملوحى وأسماء الحمصى - دمشق ١٩٧٠ م .

٧٣ - حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، لابن تغرى بردى - تحقيق فهيم شلتوت - القاهرة ١٩٨٩ م .

٧٤ - خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، لعبد القادر البغدادى - بولاق ١٢٩٩ هـ .

٧٥ - الخصائص ، لابن جنى - تحقيق محمد على النجار - القاهرة ١٩٥٢ - ١٩٥٦ م .

٧٦ - خلاصة تذهيب تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ، للخزرجى - القاهرة ١٣٢٢ هـ .

٧٧ - دراسات لغوية ، للدكتور عبد الصبور شاهين - القاهرة ١٩٧٦ م .

٧٨ - درة الغواص فى أوهام الخواص ، للحريرى - مطبعة : الجوائب باستانبول ١٢٩٩ هـ .

٧٩ – الدرر اللوامع على همع الهوامع ، لأحمد بن الأمين الشنقيطى – القاهرة ١٣٢٨ هـ .

٨٠ – دروس فى علم أصوات العربية ، لجان كانتينو – ترجمة صالح القرماوى – تونس ١٩٦٦ م .

٨١ – دفع الإصر عن كلام أهل مصر ، للشيخ يوسف المغربى – نشره مصورا الدكتور عبد السلام عواد – موسكو ١٩٦٨ م .

٨٢ – دلالة الألفاظ ، للدكتور إبراهيم أنيس – القاهرة ١٩٥٨ م .

٨٣ – دور الكلمة فى اللغة ، لأولمان – ترجمة الدكتور كمال بشر – القاهرة ١٩٦٢ م .

٨٤ – ديوان الأخطل – نشر أنطون صالحانى – بيروت ١٨٩١ م .

٨٥ – ديوان أوس بن حجر – تحقيق محمد يوسف نجم – بيروت ١٩٦٠ م .

٨٦ – ديوان جرير بن عطية الخطفى – نشر محمد إسماعيل الصاوى – القاهرة ١٩٥٣ م .

٨٧ – ديوان جرير ، بشرح محمد بن حبيب – تحقيق نعمان أمين طه – القاهرة ١٩٦٩ م .

٨٨ – ديوان خفاف بن ندبة السلمى – تحقيق الدكتور نورى القيسى – بغداد ١٩٦٧ م .

٨٩ – ديوان رؤبة بن العجاج – تحقيق أهلورت – ليبزج ١٩٠٣ م .

٩٠ – ديوان الطرماح بن حكيم – تحقيق كرنكو – لندن ١٩٢٧ م .

٩١ – ديوان عمرو بن قميئة – تحقيق حسن كامل الصيرفى – القاهرة ١٩٦٥ م .

٩٢ – ديوان كثير عزة – تحقيق إحسان عباس – بيروت ١٩٧١ م .

٩٣ – ديوان أبى محجن الثقفى – تحقيق امتياز على عرشى – مجلة ثقافة الهند فى سبتمبر ١٩٥٢ م .

٩٤ – ديوان مزاحم العقيلى – نشر كرنكو – ليدن ١٩٢٠ م .

٩٥ – ذيل فصيح ثعلب ، لعبد اللطيف البغدادى – نشر محمد عبد المنعم خفاجى (ضمن كتاب : فصيح ثعلب والشروح التى عليه) – القاهرة ١٩٤٩ م .

٩٦ - ذيل مرآة الزمان ، لليونينى - حيدرآباد الدكن بالهند ١٩٥٤ وما بعدها .
٩٧ - الركام اللغوى للظواهر المندثرة فى اللغة ، للدكتور رمضان عبد التواب - المجلة العربية (السنة الثانية) العدد الأول - الرياض ١٩٧٧ م .
٩٨ - الزاهر فى معانى كلمات الناس ، لأبى بكر بن الأنبارى - تحقيق الدكتور حاتم الضامن - بغداد ١٩٧٩ م .
٩٩ - الزينة فى الكلمات الإسلامية العربية ، لأبى حاتم الرازى - تحقيق حسين الهمدانى - القاهرة ١٩٥٧ - ١٩٥٨ م .
١٠٠ - السبعة فى القراءات ، لابن مجاهد - تحقيق الدكتور شوقى ضيف - القاهرة ١٩٧٢ م .
١٠١ - سر صناعة الإعراب ، لابن جنى - تحقيق مصطفى السقا وآخرين - القاهرة ١٩٥٤ م .
١٠٢ - سر الفصاحة ، لابن سنان الخفاجى - نشر عبد المتعال الصعيدى - القاهرة ١٩٥٣ م .
١٠٣ - سيرة ابن هشام = السيرة النبوية ، لابن هشام - نشر قستنفلد - ليدن ١٨٦٠ م .
١٠٤ - شرح أشعار الهذليين ، للسكرى - تحقيق عبد الستار فراج - القاهرة ١٩٦٥ م .
١٠٥ - شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك - مطبعة عيسى الحلبى بالقاهرة (بلا تاريخ) .
١٠٦ - شرح التسهيل ، لابن مالك - تحقيق الدكتور عبد الرحمن السيد - القاهرة ١٩٧٤ م .
١٠٧ - شرح التصريف الملوكى ، لابن يعيش - تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة - حلب ١٩٧٣ م .
١٠٨ - شرح الشافية ، للأستراباذى - تحقيق محمد الزفزاف وآخرين - القاهرة ١٣٥٦ هـ .

١٠٩ - شرح شواهد الشافية ، لعبد القادر البغدادى - تحقيق محمد الزفزاف وآخرين - القاهرة ١٣٥٦ هـ .

١١٠ - شرح الفصيح للهروى - تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى (ضمن : فصيح ثعلب والشروح التى عليه) - القاهرة ١٩٤٩ م .

١١١ - شرح كتاب سيبويه ، للسيرافى - مخطوط بدار الكتب المصرية - برقم ٥٢٨ نحو تيمور .

١١٢ - شرح مراح الأرواح ، لديكنقوز - القاهرة ١٩٣٧ م .

١١٣ - شرح ابن يعيش لمفصل الزمخشرى - المطبعة المنيرية بالقاهرة (بلا تاريخ) .

١١٤ - شعراء عباسيون ، للمستشرق فون جرنباوم - ترجمة الدكتور محمد يوسف نجم - بيروت ١٩٥٩ م .

١١٥ - شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل ، لشهاب الدين الخفاجى - القاهرة ١٣٢٥ هـ .

١١٦ - شواهد التوضيح ، لمشكلات الجامع الصحيح ، لابن مالك النحوى - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى - القاهرة ١٩٥٧ م .

١١٧ - الصاحبى فى فقه اللغة ، لابن فارس - تحقيق مصطفى الشويمى - بيروت ١٩٦٣ م .

١١٨ - الصاهل والشاحج ، لأبى العلاء المعرى - تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن - القاهرة ١٩٧٥ م .

١١٩ - الصحاح = تاج اللغة وصحاح العربية ، للجوهرى - تحقيق أحمد عبد الغفور عطار - القاهرة ١٩٥٦ م .

١٢٠ - الصعقة الغضبية فى الرد على منكرى العربية ، لابن عبد القوى الحنبلى - تحقيق الدكتور إبراهيم الإدكاوى - القاهرة ١٩٨٦ م .

١٢١ - طبقات الشافعية الكبرى ، للسبكى - تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحى - القاهرة ١٩٦٣ وما بعدها .

١٢٢ - طبقات النحويين واللغويين ، لأبى بكر الزبيدى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٥٤ م .

١٢٣ - ظاهرة المخالفة الصوتية ودورها فى نمو المعجم العربى ، للدكتور أحمد عبد المجيد هريدى - القاهرة ١٩٨٩ م .

١٢٤ - عبث الوليد ، لأبى العلاء المعرى - القاهرة ١٩٧٠ م .

١٢٥ - عثرات اللسان فى اللغة ، لعبد القادر المغربى - دمشق ١٩٤٩ م .

١٢٦ - العربية ، دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب ، ليوهان فك ، مع تعليقات المستشرق الألمانى شبيتالر - ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٨٠ م .

١٢٧ - العربية ، لهنرى فليش - ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين - بيروت ١٩٦٦ م .

١٢٨ - العربية فى السودان ، للأمين الضرير - بيروت ١٩٦٧ م .

١٢٩ - علم اللسان ، لأنطوان مييه - ترجمة محمد مندور (ضمن : النقد المنهجى عند العرب) - القاهرة ١٩٦٩ م .

١٣٠ - علم اللغة ، للدكتور على عبد الواحد وافى - القاهرة ١٩٦٢ م .

١٣١ - علم اللغة ، للدكتور كمال بشر - القاهرة ١٩٧٠ م .

١٣٢ - العين ، للخليل بن أحمد الفراهيدى - تحقيق الدكتور عبد الله درويش - بغداد ١٩٦٧ م .

١٣٣ - العين ، للخليل بن أحمد الفراهيدى - تحقيق الدكتور مهدى المخزومى والدكتور إبراهيم السامرائى - بغداد ١٩٨٠ - ١٩٨٥ م .

١٣٤ - عيون الأخبار ، لابن قتيبة الدينورى - القاهرة ١٩٢٨ - ١٩٣٠ م .

١٣٥ - غاية النهاية فى طبقات القراء ، لابن الجزرى - تحقيق برجشتراسر وبرتسل - القاهرة ١٩٣٢ - ١٩٣٥ م .

١٣٦ - غرائب اللغة العربية ، للأب رفائيل نخلة اليسوعى - بيروت ١٩٦٠ م .

١٣٧ - غريب الحديث ، لأبى عبيد القاسم بن سلام - حيدرآباد الدكن ١٩٦٤ - ١٩٦٧ م .

١٣٨ - غريب الحديث ، لابن قتيبة الدينورى - تحقيق الدكتور عبد الله الجبورى - بغداد ١٩٧٧ م .

١٣٩ — الفائق فى غريب الحديث ، للزمخشرى — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم — القاهرة ١٩٤٥ — ١٩٤٨ م .

١٤٠ — الفاخر ، للمفضل بن سلمة — نشر عبد العليم الطحاوى — القاهرة ١٩٦٠ م .

١٤١ — الفاضل ، لأبى العباس المبرد — تحقيق عبد العزيز الميمنى — القاهرة ١٩٥٦ م .

١٤٢ — فصول فى فقه العربية ، للدكتور رمضان عبد التواب — القاهرة ١٩٨٠ م .

١٤٣ — فصيح ثعلب والشروح التى عليه — نشر محمد عبد المنعم خفاجى — القاهرة ١٩٤٩ م .

١٤٤ — فعلت وأفعلت ، لأبى حاتم السجستانى — تحقيق الدكتور خليل إبراهيم العطية — بغداد ١٩٧٩ م .

١٤٥ — فقه اللغات السامية ، لكارل بروكلمان — ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب — الرياض ١٩٧٧ م .

١٤٦ — الفلسفة اللغوية ، لجرجى زيدان — مراجعة الدكتور مراد كامل — دار الهلال بالقاهرة (بلا تاريخ) .

١٤٧ — فى قواعد الساميات ، للدكتور رمضان عبد التواب — القاهرة ١٩٨٣ م .

١٤٨ — فى اللهجات العربية ، للدكتور إبراهيم أنيس — القاهرة ١٩٥٢ م .

١٤٩ — قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، لأحمد أمين — القاهرة ١٩٥٣ م .

١٥٠ — القاموس المحيط ، للفيروزابادى — القاهرة ١٩١٣ م .

١٥١ — القلب والإبدال ، لابن السكيت — نشر هفنر (ضمن : الكنز اللغوى) — بيروت ١٩٠٣ م .

١٥٢ — الكامل فى اللغة والأدب ، للمبرد — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة — القاهرة ١٩٥٦ م .

١٥٣ — الكتاب ، لسيبويه — بولاق ١٣١٦ — ١٣١٧ هـ .

١٥٤ — كراهة توالى الأمثال فى أبنية العربية ، للدكتور رمضان عبد التواب — مجلة المجمع العلمى العراقى (الجزء الثامن عشر) ١٩٦٩ م .

١٥٥ — لحن العامة والتطور اللغوى ، للدكتور رمضان عبد التواب — القاهرة ١٩٦٧ م .

١٥٦ - لحن العوام ، لأبى بكر الزبيدى - تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٦٤ م .

١٥٧ - لسان العرب ، لابن منظور الإفريقى - بولاق ١٣٠٠ - ١٣٠٧ هـ .

١٥٨ - لغات البشر ، لماريوباى - ترجمة الدكتور صلاح العربى - القاهرة ١٩٧٠ م .

١٥٩ - اللغة ، لفندريس - ترجمة عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص - القاهرة ١٩٥٠ م .

١٦٠ - اللغة بين المعيارية والوصفية ، للدكتور تمام حسان - القاهرة ١٩٥٨ م .

١٦١ - اللغة العبرية ، قواعد ونصوص ومقارنات ، للدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٧٧ م .

١٦٢ - اللغة والتطور ، للدكتور عبد الرحمن أيوب - القاهرة ١٩٦٤ م .

١٦٣ - اللغة والمجتمع ، للدكتور على عبد الواحد وافى - القاهرة ١٩٤٦ م .

١٦٤ - لغويات ، للشيخ محمد على النجار - القاهرة (بلا تاريخ) .

١٦٥ - اللهجة العامية المصرية فى القرن الحادى عشر ، للدكتور رمضان عبد التواب - حوليات كلية دار العلوم ١٩٧٠ م .

١٦٦ - ما تلحن فيه العامة ، للكسائى - تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٨٢ م .

١٦٧ - ما يجوز للشاعر فى الضرورة ، للقزاز القيروانى - تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب والدكتور صلاح الدين الهادى - القاهرة ١٩٨١ م .

١٦٨ - مباحث لغوية ، للدكتور إبراهيم السامرائى - بغداد ١٩٧١ م .

١٦٩ - مثالب الوزيرين ، لأبى حيان التوحيدى - دمشق ١٩٦١ م .

١٧٠ - مجالس ثعلب - تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة ١٩٦٠ م .

١٧١ - مجالس العلماء ، للزجاجى - تحقيق عبد السلام هارون - الكويت ١٩٦٢ م .

١٧٢ - مجمع الأمثال ، للميدانى - القاهرة ١٣١٠ هـ .

١٧٣ - المحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، لابن جنى - تحقيق على النجدى ناصف وآخرين - القاهرة ١٣٨٦ هـ .

١٧٤ - المحكم فى أصول الكلمات العامية ، للدكتور أحمد عيسى - القاهرة ١٩٣٩ م .

١٧٥ - المحيط فى اللغة ، للصاحب بن عباد - تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين - بغداد ١٩٧٥ م .

١٧٦ - المخصص فى اللغة ، لابن سيدة الأندلسى - بولاق ١٣١٦ - ١٣٢١ هـ .

١٧٧ - المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان ، لابن هشام اللخمى - تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب (تحت الإعداد) .

١٧٨ - المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوى ، للدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٨٥ م .

١٧٩ - المذكر والمؤنث ، لأبى بكر بن الأنبارى - تحقيق الدكتور طارق الجنابى - بغداد ١٩٧٨ م .

١٨٠ - المرتجل ، لابن الخشاب - تحقيق على حيدر - دمشق ١٩٧٢ م .

١٨١ - المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ، للسيوطى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين - القاهرة ١٩٥٨ م .

١٨٢ - مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، لابن فضل الله العمرى - تحقيق أيمن فؤاد سيد - القاهرة ١٩٨٥ م .

١٨٣ - المسائل البصريات ، لأبى على الفارسى - تحقيق الدكتور حسن الشاطر - القاهرة ١٩٨٥ م .

١٨٤ - معانى القرآن ، للفراء - تحقيق الشيخ محمد على النجار - القاهرة ١٩٥٥ م وما بعدها .

١٨٥ - معانى القرآن وإعرابه ، للزجاج - تحقيق الدكتور عبد الجليل شلبى - بيروت ١٩٧٣ م .

١٨٦ - معجم الأدباء ، لياقوت الحموى - نشر أحمد فريد رفاعى - القاهرة ١٩٣٦ م .

١٨٧ - معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة ، لمحمد العدنانى - بيروت ١٩٨٦ م .

١٨٨ - مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ، لابن هشام المصرى - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - القاهرة (بلا تاريخ) .

١٨٩ - مفاتيح العلوم ، للخوارزمى - القاهرة ١٩٤٢ م .

١٩٠ - مقاييس اللغة ، لابن فارس اللغوى - تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة ١٣٦٦ - ١٣٧١ هـ .

١٩١ - المقتصد فى شرح الإيضاح ، لعبد القاهر الجرجانى - تحقيق الدكتور كاظم بحر المرجان - بغداد ١٩٨٠ م .

١٩٢ - المقتضب ، لأبى العباس المبرد - تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة - القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٦٨ م .

١٩٣ - مقدمتان فى علوم القرآن ، مقدمة المبانى وابن عطية - نشر آرثرچفرى - القاهرة ١٩٧٠ م .

١٩٤ - الممتع فى التصريف ، لابن عصفور تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة - حلب ١٩٧٠ م .

١٩٥ - من أسرار اللغة ، للدكتور إبراهيم أنيس - القاهرة ١٩٦٦ م .

١٩٦ - منامات الوهرانى ، لركن الدين بن محرز الوهرانى - تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نغش - القاهرة ١٩٦٨ م .

١٩٧ - مناهج البحث فى اللغة ، للدكتور تمام حسان - القاهرة ١٩٥٥ م .

١٩٨ - المنصف ، لابن جنى - تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين - القاهرة ١٩٥٤ م .

١٩٩ - منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، لحازم القرطاجنى - تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة - بيروت ١٩٨١ م .

٢٠٠ - منهج السالك ، لأبى حيان - تحقيق سيدنى جلازر - واشنطون ١٩٤٧ م .

٢٠١ - مولد اللغة ، للشيخ أحمد رضا العاملى - بيروت ١٩٥٦ م .

٢٠٢ - الموفى فى النحو الكوفى ، للكنغراوى - نشر محمد بهجة البيطار - دمشق (بلا تاريخ) .

٢٠٣ - نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ، لأبى البركات بن الأنبارى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٦٧ م .

٢٠٤ - النشر فى القراءات العشر ، لابن الجزرى - نشر على محمد الضباع - القاهرة (بلا تاريخ) .

٢٠٥ — نشوء اللغة ونموها واكتهالها ، للأب أنستاس مارى الكرملى — القاهرة ١٩٣٨ م .

٢٠٦ — نفائس عرائس الكلام ، لخسروزاده — مختصر : تنبيه الأنام فى توجيه الكلام — مخطوط فى برلين ٧٠٩٩

٢٠٧ — نهاية الأرب فى فنون الأدب ، لشهاب الدين النويرى — القاهرة ١٩٢٩ — ١٩٥٥ م .

٢٠٨ — النهاية فى غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير — تحقيق محمود الطناحى — القاهرة ١٩٦٣ — ١٩٦٥ م .

٢٠٩ — النوادر فى اللغة ، لأبى زيد الأنصارى — نشر سعيد الشرتونى — بيروت ١٨٩٤ م .

٢١٠ — الواضح المبين فى ذكر من استشهد من المحبين ، للحافظ مغلطاى — نشر أوتو شبيز — شتوتجارت ١٩٣٦ م .

٢١١ — الوسيط ، معجم من صنع مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٧٢ م .

* * *

٢ – المراجع الإفرنجية

G. Bergstrasser , Sprachatlas von Syrien und Palästina , Leipzig 1915 .

C. Brockelmann , Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen , Bd. I-II, Berlin 1908 - 1913 .

C. Brockelmann , Syrische Grammatik , Leipzig 1955 .

C. Brockelmann , Semitische Sprachwissenschaft , Leipzig 1906 .

D. Jones , An Outlein of English Phonetics , London 1972 .

Der Sprach-Brockhaus , Wiesbaden 1956 .

G. Kampffmeyer , Die arabische Verbalpartikel b(m) , Marburg 1900 .

H. Kofler , Reste altarabischer Dialekte , WZKM , Wien 1940 - 1942 .

E. Littmann , Morgenländische Wörter im Deutschen , Tübingen 1924 .

W. Whiteney , Life and Growth of Language , London 1880 .

فهرس الموضوعات

تم بحمد الله

رقم الإيداع ٤٦٣٠/١٩٨١
٩٧٧ - ٧٢٩٢ - ٧٩ - ١

هذا الكتاب

يعالج جانبا مهما من حياة اللغة ، وهو جانب التطور اللغوى . وكلمة « التطور » عند علماء اللغة لا تعنى أكثر من مرادف لكلمة « التغير » . وقد وضح المؤلف هذا المعنى ، وقطع بذلك الطريق على الأدعياء ، الذين يرون فى كلمة « التطور » حكما معياريا ، يقترن بالصواب والخطأ .

وقد برهن المؤلف فى كتابنا هذا ، على أن اللغات لا تسير فى حياتنا على نحو من الصدفة المطلقة ، ولا تخبط فى تنقلها على ألسنة الناس خبط عشواء ، بل يحكمها فى هذا وذاك قوانين ، تكاد ترق إلى مكانة القوانين الطبيعية ثباتا وقوة .

وشرح المؤلف هذه القوانين المختلفة بالتفصيل ، واستشهد على تفسيراته اللغوية هنا وهناك ، بالكثير من الأمثلة ، التى تثبت فاعلية هذه القوانين ، وترد على الغُتْم الذين يوجههم الحقد ، ويقودهم الهوى والغرض ، فينكرون أثر بعض هذه القوانين .

وفى هذه الطبعة الجديدة من الكتاب إضافات كثيرة ، وأبواب جديدة ، فى موضوعات : سياحة الألفاظ ، وشاهد الحال ، وتعاقب التطور ، وسيادة الحالة الإعرابية ، إلى جانب الأبواب القديمة فى المماثلة والمخالفة ، والسهولة والتيسير ، ونظام المقاطع ، والقياس ، والحذلقة ، والبلى اللفظى ، والفصل الخاطىء ، والاشتقاق الشعبى ، وتغير الدلالة ، وتجديد الألفاظ ، والإعراب ونظام الجملة .

ولاشك أن عشاق الدراسات اللغوية الجادة ، سيجدون بغيتهم فى إضافات هذه الطبعة الجديدة ، فلهم وحدهم ، ألف هذا الكتاب ؛ وبالله التوفيق

الناشر